

خواطر قرآنية

نظرات في أهداف سور القرآن



خواطِرُ فِرَآئِنَةٍ

نظرات في أهداف سور القرآن

مسرو خالدا



الدارالعلمية للعلوم
Arab Scientific Publishers

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي.
والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى أو
حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ISBN 9953-29-623-5

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الرمم

هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (961-1)

فاكس: 786230 (961-1) ص.ب: 13-5574 - بيروت - لبنان

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

الإهداء

إلى رسولنا الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي
علّمنا أن عزتنا وقوتنا في تمسكنا بكتاب الله تعالى، فقال:
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين..

إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت، الذي جمع القرآن،
وأوتمن على أعظم مهمة في التاريخ وهو في ريعان
الشباب...

إلى شباب الإسلام، أحفاد الصحابة الكرام، الذين كان
ينادى بهم في المعارك عند اشتداد الأزمات: يا أهل
القرآن، زينوا القرآن بالفعال

إلى أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته،

أهديكم خواطر قرآنية

نظرات في أهداف سور القرآن

عمرو خالد

لمسة وفاء

إلى العلماء الأجلاء والسادة الأفاضل والجنود
المجهولين الذين شاركوا في تحضير هذه المادة القرآنية،
ولم يبخلوا بعلم ولا جهد ولا وقت، فجزاهم الله عني وعن
أمة القرآن خير الجزاء

عمرو خالد

المحتويات

الصفحة	هدفها	اسم السورة
15	حاوية أهداف القرآن	سورة الفاتحة:
24	أنت مسؤول عن الأرض	سورة البقرة:
45	الثبات على المنهج	سورة آل عمران:
65	العدل والرحمة خاصة مع الضعفاء	سورة النساء:
80	أوفوا بالعقود	سورة المائدة:
98	توحيد الله تعالى في الاعتقاد والتطبيق	سورة الأنعام:
111	احسم موقفك في الصراع بين الحق والباطل	سورة الأعراف:
125	قوانين النصر مادية وروائية	سورة الأنفال:
137	التوبة	سورة التوبة:
148	الإيمان بالقضاء والقدر	سورة يونس:
159	التوازن في الثبات على الحق دون ركون أو تهور	سورة هود:
171	ثق بتدبير الله، واصبر ولا تيأس	سورة يوسف:
177	قوة الحق وضعف الباطل	سورة الرعد:
184	نعمة الإيمان ونقمة الكفر	سورة إبراهيم:
190	حفظ الله لدينه	سورة الحجر:
196	نعم الله تعالى	سورة النحل:
208	استشعر قيمة القرآن	سورة الإسراء:
218	العصمة من الفتن	سورة الكهف:
230	توريث الدين للأبناء	سورة مريم:
237	منهج السعادة	سورة طه:الاسلام
243	دور الأنبياء في تذكرة البشرية	سورة الأنبياء:
247	دور الحج في بناء الأمة	سورة الحج:
251	صفات المؤمنين	المؤمنون:
255	شرع الله نور المجتمع	سورة النور:
268	التحذير من سوء عاقبة المكذبين	سورة الفرقان:
274	دور الإعلام في توصيل رسالة الاسلام	سورة الشعراء:

الصفحة	هدفها	اسم السورة
279	أهمية التفوق الحضاري	سورة النمل:
290	الثقة بوعده الله	سورة القصص:
300	احذر من الفتن	سورة العنكبوت:
305	آيات الله ظاهرة وواضحة، فكيف لا تؤمنون	سورة الروم:
309	تربية الأبناء	سورة لقمان:
315	الخضوع لله تعالى	سورة السجدة:
317		سور الاستسلام لله
		- سورة الأحزاب: الاستسلام لله في المواقف الحرجة
		- سورة سبأ: الاستسلام لله سبيل بقاء الحضارات
		- سورة فاطر: الاستسلام لله سبيل العزة
		- سورة يس: الاستسلام لله بالاصرار على الدعوة حتى لو يبست من النتيجة
		- سورة الصافات: الاستسلام لله وإن لم تفهم الحكمة من أوامره
		- سورة ص: الاستسلام لله بالعودة إلى الحق دون عناد
334	الاخلاص لله تعالى	سورة الزمر:
340	أهمية الدعوة إلى الله وتفويض الأمر إليه	سورة غافر:
346		واجبات ومحاذير للأمة المسؤولة عن الأرض
		- سورة فصلت: حسن الاستقبال لأوامر الله تعالى
		- سورة الشورى: التحذير من الفرقة، والأمر بالشورى
		- سورة الزخرف: التحذير من الانبهار بالمظاهر المادية
		- سورة الدخان: التحذير من الانبهار بالسلطة والتمكين
		- سورة الجاثية: التحذير من التكبر والتعالي
		- سورة الأحقاف: نماذج لمن أجاب ولمن رفض أوامر الله
361	طاعة النبي صلى الله عليه وسلم مقياس قبول الأعمال	سور محمد:
361	سورة الفتوحات والتجليات الربانية	سور الفتح:
361	أدب العلاقات	سورة الحجرات:
373		سور الاختيار
		- سورة ق: الاختيار بين الهدى والضلال
		- سورة الذاريات: العطاء والمنع بيد الله ففروا إلى الله
		- سورة الطور: الاختيار بين طريق الجنة وطريق النار
		- سورة النجم: اختر مصدر معلوماتك
		- سورة القمر: التعرف على الله تعالى من خلال نغمه

9 خواطر قرآنية

الصفحة	اسم السورة	هدفها
		- سورة القمر: التعرف على الله تعالى من خلال نعمه
		- سورة الواقعة: وكنتم أزواجاً ثلاثة
		- سورة الحديد: التوازن بين المادية والروحانية
393		سور الانتماء للإسلام
		- سورة المجادلة: التبرؤ من المناهج الأخرى والاتصال بالاسلام
		- سورة الحشر: مواقف مختلفة من الانتماء لدين الله
		- سورة الممتحنة: امتحانات الانتماء
		- سورة الصف: أهمية وحدة الصف
		- سورة الجمعة: دور صلاة الجمعة في الانتماء
		- سورة المنافقون: خطر النفاق
		- سورة التغابن: مشاغل اجتماعية تضع الانتماء
		- سورة الطلاق: لا للخلاف
		- سورة التحريم: دور المرأة في تحقيق الانتماء لدين الله
414		سور الجزء التاسع والعشرين: الدعوة إلى الله
425		سور الجزء الثلاثين: ختام المنهج الرباني

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً،

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

هذا الكتاب ليس كتاب تفسير، ولا يهدف إلى تفسير آيات القرآن بالتفصيل، ومن أراد ذلك فليرجع إلى أمهات الكتب في التفسير، كتفسير الطبري وابن كثير وغيرها من كتب التفاسير التي تمتلئ بها مكتبتنا الإسلامية... لكن فكرة هذا الكتاب مختلفة، وهدفه مختلف.

فكرة هذا الكتاب تراودني منذ عشر سنوات، تحديداً رمضان من كل عام... حيث يقبل المسلمون في كل العالم الإسلامي على قراءة القرآن وختمه في شهر رمضان المبارك. لكنني كنت أحزن كثيراً عندما أجد هذه الرغبة الصادقة لقراءة القرآن دون أن يرتبط بها فهم واضح لأهداف هذه السورة، ولماذا نزلت، وما هي الرسالة التي توجهها لنا هذه السورة. وبالتالي كنت أجد الناس يقرأون القرآن ويستشعرون في قرارة أنفسهم أن معاني القرآن غريبة عنهم، بل قد ينظر لها البعض على أنها طلاس غير مفهومة، يجب علينا قراءتها دون إدراك مغزاها وأهدافها. وقد يفهم البعض معاني كلمات الآيات، ولكنه يشعر أن آيات كل سورة متناثرة، ليس لها أية علاقة تربطها ببعضها، وأنه لا يوجد هدف واحد للسورة تنتظم فيه جميع آياتها. ومن هنا بدأت الفكرة: أن نقوم بعمل متواضع في سبيل كسر الحواجز بين شباب الأمة وبين كتاب الله.

هذا الكتاب يؤكد لقارئ القرآن أن الترابط بين آيات كل سورة ترابط وثيق، و أن كل سورة لها موضوع واحد وأهداف محددة، وأن آيات السورة قد

تبدو لأول وهلة متناثرة غير مترابطة؛ لكنك إن أمعنت النظر، وعرفت هدف السورة وموضوعها، عرفت أن آيات السورة متصلة اتصالاً عجيباً، يوصلك بقوة لإدراك هدف السورة، مما يزيدك حباً لكتاب الله وإيماناً بأنه تنزيل من حكيم خبير [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا] وبذلك نرى أن كل سورة من سور القرآن هي عبارة عن وحدة متكاملة، تحقق هدفاً واضحاً، وكل آية تخدم هذا الهدف من طريق واحد أو من عدة طرق. وحتى اسم السورة له علاقة بهذا الهدف (ومن هنا نفهم سبب تسمية سور القرآن، كالبقرة وآل عمران ويونس والنمل...) وليس هذا فحسب، بل أن كل سورة لها علاقة قوية بما قبلها وما بعدها من السور، لأن ترتيب سور القرآن هو أيضاً وحي من عند الله، وبذلك نستخلص أن سور القرآن كلها عبارة عن سلسلة واحدة مترابطة، بحيث أنك لو فهمت هدف أو اهداف السور القرآنية، ستجد أنك قد فهمت مراد ربنا من هذه السور وماذا يريد منك الله في هذا الكتاب، حتى لو لم تفهم معنى كل آية وكل كلمة على حدى، لأنك إذا فهمت الأهداف الكلية للسور فتكون قد فهمت القرآن كله، وبذلك يكون هذا الكتاب مفيداً للعامة والبسطاء، ليعطيهم المبادئ الأساسية لفهم القرآن، كما يكون في نفس الوقت موجّهاً لحفظة القرآن والمهتمين بعلم التفسير، كمحاولة متواضعة مني لعرض المحاور والموضوعات الأساسية لسور القرآن، وبهذا سيكون منهجنا في عرض الخواطر القرآنية على الشكل التالي:

- تحديد هدف السورة
 - عرض الآيات المؤكدة لهذا الهدف
 - بيان علاقة اسم السورة بهدفها
 - اظهار علاقة السورة بما قبلها وما بعدها
 - اختيار بعض الآيات للتعليق عليها
- ولا بد من التأكيد على أن هذا الكتاب ليس تفسيراً، فكل ما فيه هو اجتهاد

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة (مكية)، وعدد آياتها سبع آيات، وهي خامس سورة من حيث التنزيل...

ما هو سر سورة الفاتحة؟ لماذا افتتح بها المصحف؟ ما سر تسميتها بأمر الكتاب، وأم القرآن..؟ لماذا نقرأها في اليوم واللييلة سبع عشرة مرة على الأقل؟ لماذا لا تصح الصلاة الا بقراءتها؟

أهميتها

وأكثر من ذلك كله، يقول النبي ﷺ لأحد الصحابة «لأعلمتكم أعظم سورة في القرآن» فقال ما هي يا رسول الله؟ فقرأ عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله رب العالمين... الرحمن الرحيم... إلى آخر السورة». حين بين الله تعالى في سورة الحجر عظمة القرآن قال تعالى: [وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ] والسبع المثاني هي الفاتحة، وقد سميت بالمثاني لكثرة تكرارها...

يقول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا الفرقان مثلها إنها السبع المثاني» رواه الإمام أحمد.

أسمائها

ولفضلها وشرفها، سميت هذه السورة بأسماء كثيرة، فهي أم القرآن، والسبع المثاني، والوافية والكافية، لكفايتها عن غيرها وحاجة غيرها إليها واكتفاؤه منها. فهي تفيض على المؤمن نوراً يضيء حياته، وخيراً الهياً يغلق عنه أبواب الفتن ويفتح له أبواب الرحمة.

أي سر؟ وأي عظمة لهذه السورة التي يقرأها الكثير من المسلمون من دون أن يفقهوا هذه المعاني وهذه الرسائل؟

حاوية أهداف القرآن

إن سر الفاتحة يكمن في اشتغالها على جميع معاني القرآن، فكل معنى في القرآن تجده في الفاتحة، وكل أهداف القرآن جمعت في هذه الآيات السبع. كيف هذا؟ تعال معي لنعيش لحظات رائعة مع أول سورة في القرآن:

محاوِر القرآن

يدور حديث كتاب الله حول ثلاثة معان يطلبها من المؤمنين به والقارئ له:

1. عقائد (فيمن نعتقد)

2. عبادات (كيف نعبد من نعتقد فيه)

3. مناهج الحياة (المنهج الذي أراده الله تعالى لنا)

فالقرآن يدعو أولاً للعقيدة الصحيحة، أي أن تؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً على أسس سليمة. وهو ثانياً يدعو للعبادة الصحيحة وإقامة الشعائر، ولكن العبادة ليست كافية لوحدها لأن الإسلام منهج حياة شامل ومتكامل.

وسورة الفاتحة قد اشتملت على هذه الأهداف الثلاثة، ففي محور العقيدة تقرأ قوله تعالى: **[الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ & الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]**. فالتوحيد والايان باليوم الآخر هما أساس عقيدة المسلم. وفي محور العبادة تقرأ: **[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]**. وفي منهج حياة المسلم تقرأ: **[أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ & صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]**.

والقرآن كله بعد سورة الفاتحة إما أن يكون مبيّناً للعقائد، مفسّراً معنى الحمد لله رب العالمين ومعنى الرحمن الرحيم ومعنى مالك يوم الدين.. أو مبيّناً كيف نعبد الله تعالى **[إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]**. أو يخبر عن المناهج في الأرض وطرق الظالمين والهالكين وطرق الناجين، فنجد آيات كثيرة تشرح معنى **[أَهْدِنَا الصِّرَاطَ**

الْمُسْتَقِيمَ].

أساسيات الإسلام

وتذكرنا سورة الفاتحة بأساسيات الدين ومعانيه العظيمة:

1. نعم الله تبارك وتعالى [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ].
2. الإخلاص بكلمة [إِيَّاكَ نَعْبُدُ]. أي نفردك وحدك يا ربنا بالعبادة، فلا نعبد إلا أنت، ولا نستعين بأحد إلا أنت [وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ].
3. طلب الصحبة الصالحة [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ & صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ].
4. التحذير من أصحاب السوء [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ].
5. أسماء الله الحسنى، مع التركيز على أسماء الله [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]. فأصل علاقة ربنا بالبشر هي الرحمة ولذلك ورد قوله الرحمن الرحيم مرتين.
6. الإستقامة [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ].
7. الآخرة والاستعداد لها [مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ]، و[أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ].
8. أهمية الدعاء وأدب الدعاء، فالسورة قد اختتمت بالدعاء.
9. أمتنا أمة واحدة.. ولذلك فإنَّك تجد بأنَّ كل ألفاظ المخاطبة والدعاء في سورة الفاتحة جاءت بصيغة الجمع فحتى لو كان المرء يصلي وحيداً في غرفته لا تصح صلاته بأن يقول "اياك اعبد واياك استعين" أو "اهدني الصراط المستقيم"، فلا بد ان يقول [أَهْدِنَا] و[إِيَّاكَ نَعْبُدُ] [وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]، وكلها بصيغة الجمع، حتى يعرف المرء انه ضمن أمة واحدة وأنه ليس وحيداً في هذا الكون.

الأدب مع الله

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن السورة تعلّم العبد الأدب مع ربه، فهي مقسّمة إلى نصفين، النصف الأول ثناء على الله والنصف الثاني دعاء اليه. فالثناء على الله

يتجلى في الآيات: [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ & الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ & مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ & إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]. وبعد ذلك الدعاء: [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ & صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]. واللطف أن عدد أحرف الثناء في النصف الأول مساوية تماماً لعدد أحرف الدعاء في النصف الثاني.

فالسورة تعلم المرء كيف يتعامل مع الله، فإن أراد الدعاء فيستحب له أن يثني على الله أولاً (فيبدأ بحمد الله تعالى وتمجيده ثم الصلاة على رسوله ﷺ)، وبعد ذلك يدعو بما يشاء فإنَّ دعاءه يستجاب بإذن الله.

الحوار مع الله

إن تلاوة سورة الفاتحة تفتح لك أعظم أبواب الشرف وهو الحوار مع الله تبارك وتعالى. ولهذا جاء في الحديث القدسي: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين، قال الله حمدني عبدي، فإذا قال العبد الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي، فإذا قال العبد مالك يوم الدين قال الله مجَّدني عبدي، فإذا قال العبد إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذا بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سألت".

فتستشعر أنك كلما تقرأ سورة الفاتحة فإنَّ الله تعالى يجيبك. أي شرف هذا في حوار يكرر رب العزة ذكرك فيه بالعبودية ويكافئك بالاجابة مع أنك لم تأت بمجديد ولم تتفضل بشيء من عندك، فهو سبحانه أهل الثناء كما تقول وخيراً مما تقول.

حساسية عمر

لذلك كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان يقرأ الفاتحة آية آية ويسكت بين الآية والأخرى، وحين سئل عن سبب سكوته قال: "لأستمع برد

ربي".

فلو أن قلب المرء استشعر بأن ربه يرد عليه حين يقرأ كل آية من سورة الفاتحة لطار من كثرة الفرح...

جوامع خير الدهر

هل أحسست معي بأهمية السورة؟ لكل ما ذكر يقول ابن القيم: ان الله تعالى قد أنزل (104) كتب، جمع معانيها في ثلاثة كتب: التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في الفاتحة، وجمع معاني الفاتحة في [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ].

وهذه الآية مقسومة إلى قسمين، كلاهما ضروري في الإسلام: عبادة الله تعالى أي ممارسة الشعائر [إِيَّاكَ نَعْبُدُ]، والإستعانة بما خلق الله في هذه الأرض وتسخيرها للنجاح في الحياة ولإدارة الأرض وفق منهج الله (كما سنرى في سورة البقرة). ولأن الصحابة فهموا هذه الآية جيداً وطبقوها - بمحوريتها - في حياتهم، قادوا الأرض ونجحوا في الدنيا والآخرة.

وإننا نرى في عصرنا الحاضر، بعض المسلمين يطبقون [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] فيقتصر فهمهم للإسلام على التدين فقط، وللأسف نرى الغرب يطبق [وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] فيستخر ما في الأرض لإدارتها وعمارتها. لكن الإسلام يأمر بالتوازن بين الأمرين، وهذا ما تبيّنه سورة الفاتحة بوضوح.

مفتاح القرآن

فلماذا سميت بالفاتحة؟ هناك معنيان للإسم، أحدهما قريب، وهو لأنه افتتح بها المصحف، ولكن المعنى البعيد هو أنها سميت بذلك لأنها مفتاح القرآن (أي لمعانيه)، فيها تفتتح كل سورة من سوره. فكل كنوز القرآن فيها، ولو فهم المرء الفاتحة فسيفهم كل سور القرآن التي بعدها.

ومن روعة السورة أنّ كل سور القرآن متسلسلة في معانيها وأهدافها ورسائلها،

فهي مرتبطة بما قبلها ولا يصح أن تربط الا بالسورة التي جاءت قبلها بترتيب المصحف الا سورة الفاتحة، فلو جاءت قبل آية سورة لوجدت المعنى متصلاً بل متكاملأً أيضاً. لذلك فإننا نبدأ صلاتنا بالفاتحة ثم نقرأ أي سورة بعدها ويبقى المعنى متصلاً مهما كانت السورة.

سورتان لكلمتين

ينبغي أن نلاحظ علاقة الفاتحة بالسور التي جاءت بعدها وفق ترتيب المصحف وهي البقرة وآل عمران. فلقد جاء في سورة الفاتحة [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ].

وفي بداية سورة البقرة [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ]. وذلك إشارة إلى أن قوله تعالى [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] سيشرح في سورة البقرة..

كيف هذا؟ اقرأ قول الله تعالى [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ].

فالمغضوب عليهم والضالين، صفات لأناس استحقوا غضب الله، أو ضلوا عن صراط الله، فسورة البقرة تشرح [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] وسورة آل عمران تشرح [الضَّالِّينَ]. سورة كاملة عدد آياتها 268 آية تشرح كلمة في الفاتحة [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] وسورة كاملة وهي آل عمران تشرح [وَلَا الضَّالِّينَ].

ترابط رائع في الأهداف والمواضيع سنحس به ونعيش معه أكثر عندما نتناول السورتين بالتفصيل.

رحمة للعالمين

نلاحظ أن كلمة [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] قد تكررت مرتين في السورة [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] وقوله تعالى [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]. وهذا يشعرنا برحمة ربنا التي شملت الدنيا والآخرة..

فلفظ الرحمن الرحيم الأول جاء بعد [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]، فالعالمين والدنيا كلها تسير برحمة ربنا، و[الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] جاء بعدها [مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ]

للإشارة أن اليوم الآخر أيضاً يسير برحمة الله.

فهذه السورة تطمئن المرء بأن الأصل في الكون هو رحمة الله، وأن أصل علاقة الله بعباده هي الرحمة.

العالمين... الناس

ولفظة [أَلْعَلَمِينَ] تدل على معنى لطيف، فالفاتحة - وهي أول سور القرآن - قد ابتدأت بـ [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ أَلْعَلَمِينَ]، بينما آخر سورة في القرآن (سورة الناس) قد انتهت بقوله تعالى [مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ].

فالمصحف ابتداء بكلمة العالمين وختم بكلمة الناس، وكأن المعنى أن هذا القرآن ليس للمسلمين فقط بل إن هذا القرآن هو هداية البشرية كلها.

غنيمة سهلة

ولسورة الفاتحة خصوصية تميزها، وهي أنها خالية من كل أحكام التجويد الصعبة وذلك لكي تيسر للقراءة للجميع حتى لمن لا يتحدث بالعربية.

فالفاتحة هي جواز سفر المرء لفهم القرآن والبطاقة الشخصية للدخول إلى مناجاة الله والأنس برحابه. فكيف نخشع في صلاتنا ونستشعر كل ما سبق من المعاني؟

ميزان الخشوع

يقول النبي ﷺ: (ليس للعبد من صلاته الا ما عقل منها)، فهل ترضى أن تغادر صلاتك وقد كتب لك نصفها أو ربعها أو ثمنها؟ تعال معي إذاً لنقرأ سورة الفاتحة سوياً ونتدبر في آياتها ومعانيها.

لو أردت يوماً أن تصلي وشعرت بعدم الخشوع، فاعلم أن هناك نعمة لم تتذكرها، ولو عرفت كيف تقول [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ] جيداً لكان تذكر كل نعمة من نعم الله يجعلك تخشع في صلاتك. اجعل لكل ركعة من الركعات نعمة تتفكر بها وتشكر ربك عليها، من نعمة الإسلام والايمان، إلى نعمة القرآن، إلى ارسال النبي

ρ، إلى المال والصحة، إلى نعمة النظر والسمع... [وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا].

وحين تقرأ [الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] تتذكر رحمة الله بعباده، والتي شملت الدنيا والآخرة، فتطلب منه الرحمة وتخضع بصلاتك.

وحين تقرأ [مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ] تتذكر يوم القيامة وأهواله، وتطلب من ربنا أن يخفف عنك تعب ذلك اليوم، فتخضع في صلاتك.

وكلما تقرأ: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]، تشعر عند كلمة [إِيَّاكَ] أن الاخلاص يتجدد في قلبك كل يوم، أنه لا معبود الا الله ولا معين الا الله، فتخضع في صلاتك.

إن هذه الآية قد جمعت معاني كل كتب الله المنزلة - كما أسلفنا - فلا تمر عليها مرور الكرام بل اجعلها عنوان حياتك وجدد معانيها في قلبك كلما تقرأها
وحين تقرأ [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] تشعر أنه ليس لك من يهديك إلى صراط الدنيا ويثبتك عليه الا الله، وليس لك من يهديك إلى صراط الآخرة ويثبت قدمك عليه لتجتازه الا الله، فيزيد قربك منه ورجاؤك لرحمته وخوفك من عذابه فتخضع في صلاتك.

قف بجوارهم

وكلما تقرأ [صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ]، تذكر من أنعم الله عليهم من قبلك، فمثلاً تذكر في الركعة الأولى سيدنا إبراهيم عليه السلام وآدم ونوح وخاتم النبيين محمد ρ، وادع الله تعالى أن يهديك إلى طريقهم. واجعل الركعة الثانية لرجال عظام كأبي بكر وعمر وباقي الصحابة رضوان الله عليهم، وتذكر في الركعة الثالثة صلاح الدين وغيره من أبطال الإسلام، وفي الركعة الرابعة تفكر بالمؤمنين الذين يعيشون معك وصحبتك الصالحة وادع الله تعالى أن يثبتك عليها. وفي هذا تكون [صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ] أمام عينيك. أما حين تقرأ [غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]، فتذكرك بأعداء الإسلام والكفار عبر الأزمان، الذين حادوا عن هذا الصراط فضلوا وغضب الله عليهم.

هذا الكم الهائل من المعاني المتجددة في ختام السورة يطبع في ذهن قارئ القرآن آلاف الصور عن القدوات الصالحة، الماضية والمعاصرة، وآلاف الصور عن القدوات السيئة، مما يعطيه خشوعاً رائعاً وزيادة في القرب من الله والتزام شرعه، صلاة بعد صلاة، وبذلك تصبح صلاتنا حياة.

مفتاح فهم القرآن

هذه هي سورة الفاتحة، بطاقتك الشخصية أيها المسلم، وجواز سفرك لفهم القرآن.

فبعد أن تأملنا بعض جوانب عظمة هذه السورة، وفهمنا مفتاح الدخول إلى معاني القرآن، تعال معنا إلى كتاب الله تعالى، لنعيش مع آياته وأحكامه ونتعلم من ترابط آياته وسوره.

سورة البقرة

تعريف بالسورة

سورة البقرة (مدنية) وهي أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة وبقيت تنزل على مدى المرحلة المدنية كلها تقريباً أي أنّها رافقت تكوين المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية من بدايتهما. هي أطول سورة في القرآن وعدد آياتها 286.

كيف تخاف وهي معك؟

ورد في فضل سورة البقرة حديثان: الحديث الأول رواه الإمام مسلم: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما» تأملوا أيها الأحبة كيف أنّ سورتي البقرة وآل عمران تحاجان - أي تدافعان - عن صاحبهما (الذي حفظهما وعمل بهما وكان يقرأهما كثيراً).

وفي رواية «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو ظلتان»... إنّ حرّ يوم القيامة شديد، تدنو فيه الشمس من رؤوس الخلائق، فتأتي سورة البقرة على من حفظها أو عمل بها أو كان كثير القراءة لها لتظل عليه... فتأمل قيمة سورة البقرة!..

الحديث الثاني: رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في سورة البقرة يقول «البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان». وفي رواية «..لا يدخله الشيطان ثلاثة أيام». وبالتالي فإنّ الكثير من الناس يحرصون على قراءة سورة البقرة في البيت لمنع الشيطان من دخوله.

أين أصحاب البقرة؟

وأكثر من ذلك، فإنَّ النبي ﷺ كان ينادي حين تشتدَّ المعركة على المسلمين ويقول أين أصحاب البقرة؟ وكأنَّ أصحاب البقرة أناس مخصوصون وحين يسمعون النداء يهّبون مباشرة لتلبية النداء...

ونحن الآن ننادي على الناس ليكونوا من أصحاب البقرة، حتى يكونوا في الدنيا من الصفوة ويوم القيامة من أصحاب الظلّة.

هدف السورة: أنت مسؤول عن الأرض.

الحديث عن هدف السورة يساعدنا على فهم الآيات بتسلسل واكتشاف الروابط بين موضوعاتها المختلفة. واللطيف أن بعض العلماء قال بأن تسمية أقسام القرآن بالسور، لأن كل واحدة منها تشتمل على موضوع واحد، وآيات السورة هي كالسور أو السياج الذي يحيط بهدف السورة ويدور حوله ويخدمه. إذاً لكل سورة محور وهدف واحد، فما هو هدف سورة البقرة؟ وما هو المحور الذي يجمع 286 آية على مدى جزئين ونصف من القرآن؟

إن هدف السورة هو الإستخلاف في الأرض، وهذا يعني ببساطة «يا مسلمين أنتم مسؤولون عن الأرض». يا من سوف يقرأ سورة البقرة إعلم أنّك مسؤول عن الأرض وهذا منهجك: سورة البقرة..

وكأنَّ القرآن يخاطبنا قائلاً اعلموا أنّ الأرض هذه ملك لله، والله هو مالك الكون خلقكم وملّكم الأرض لكي تُديروها وفقاً لمنهج الله...

السعيد من وعظ بغيره

إنَّ الله تعالى خلال مسيرة التاريخ قد استخلف أمماً كثيرة على الأرض، فمنهم من نجح ومنهم من فشل وقد حان الدور في نهاية المطاف على هذه الأمة، والله تعالى لا يجابي أحد حتى ولو كانت أمة محمّد صلى الله عليه وسلم. فلو فشلت في المسؤولية فإنّها ستستبدل كما استبدلت أمم من قبلها..

هنا نفهم لماذا كانت سورة البقرة أول سورة في القرآن بعد الفاتحة فهي التي سترسم معالم المنهج. ولهذا أيضاً نفهم سبب كون هذه السورة أول سورة أنزلت في المدينة، وظلت تنزل طوال السنين التسعة من المرحلة المدنية، لأنَّ النبي ﷺ قد هاجر من مرحلة الإستضعاف في مكة إلى مرحلة بناء الأمة، فكان من الطبيعي أن تنزل السورة في مرحلة البناء لترشد الأمة كيف تكون مسؤولة عن الأرض... فينبغي لكل من يقرأ هذه السورة أن يفهم أن كل آية تطلب منه القيام بالمهمة التي خلق من أجلها: أنت مسؤول عن الأرض لإصلاحها وتعميرها وهدايتها ولا بد أن يعلم الإنسان أنَّ المسؤولية تحتم عليه أن لا يكون فاشلاً في حياته فيأخذ بيد الناس، وينجح في حياته وسيظهر ذلك كله خلال قراءة سورة البقرة.

أقسام سورة البقرة

إنَّ سورة البقرة مقسّمة إلى مقدمة ثم قسمين فخاتمة.

القسم الأول هو الجزء الأول من القرآن وهو يعرض نماذج لثلاث مجموعات من الناس قد استخلفهم الله قبلنا. والقسم الثاني يتكون من الآيات (142-283)، وهو عبارة عن أوامر ونواهي يجب على الأمة وأفرادها أن يتبعوها ليستخلفوا.

الجزء الأول من القرآن

هذا الجزء مكون من ثمانية أرباع:

- ربع الحزب الأول: يتكلم عن أصناف الناس وكأننا نستعرض الأصناف الموجودة على هذه الأرض والتي سيكلف أحدها بالإستخلاف.
- الربع الثاني: أول تجربة إستخلاف على الأرض: آدم عليه السلام.
- الربع الثالث إلى السابع: أمة استخلفها الله على هذه الأرض لمدة طويلة وفشلت في المهمة، بنو إسرائيل.
- الربع الثامن والأخير: تجربة سيدنا إبراهيم عليه السلام الناجحة في

الإستخلاف.

تجربة سيدنا آدم تجربة تمهيدية تعليمية، وكانت المواجهة بين إبليس وسيدنا آدم عليه السلام لإعلان بداية مسؤولية سيدنا آدم وذريته عن الأرض. ثم بنو إسرائيل: نموذج فاشل، فهم أناس حملوا المسؤولية وفشلوا، وتستمر السورة في ذكر أخطائهم لا لشتمهم ولكن ليقال للأمة التي ستستخلف: تنبهي من الوقوع في الأخطاء التي وقعت فيها الأمة التي قد سبقت في الاستخلاف! وآخر ربع يضرب الله به المثل بالتجربة الناجحة لشخص جعله الله خليفة في الأرض وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويكون الترتيب هذا منطقياً، فبدأ بآدم التجربة الأولى وختم بالتجربة الناجحة لرفع المعنويات وبينهم التجربة الفاشلة، للتعلم من الأخطاء السابقة وأخذ الدروس والعبر.

القسم الأول: نماذج ثلاثة

وأول خمس آيات من آيات المقدمة عبارة عن صفات المتقين، ثم آيتان تتحدثان عن صفات الكفار، ثم ثلاث عشرة آية (8-20) عن صفات المنافقين لخطورتهم.

وكأنّ المقدمة تخاطبك قائلة: «هذه أنواع الناس، فحدّد واختر أي الأصناف تريد أن تكون لأنّ واحداً فقط من هذه الأصناف سيجعله الله تعالى مسؤولاً عن الأرض».

ولاحظ أن أول صفة للمتقين هي "الذين يؤمنون بالغيب". فأهم صفات الأمة المسؤولة عن الأرض هي الإيمان بالغيب وأخطر صفة في الأمة السابقة هي المادية الشديدة وعدم الإيمان إلا بما تراه أعينهم، كما سيتبين معنا.

أول تجربة استخلاف: آدم عليه السلام

وبعد ذلك تبدأ السورة بسرد قصة آدم عليه السلام وتجد أمامك آية محورية في بداية القسم الأول الذي يلي المقدمة: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الأرض خليفةً [30]

فأنت أيها الإنسان مسؤول عن الأرض وقد كان أبوك آدم عليه السلام مسؤولاً عنها أيضاً فالأرض ليست مسؤولية البعدين عن الله ولا الناكرين لمنهجه. فالأصل أن المسؤول عنها كان أبو البشر آدم عليه السلام. ولاحظ أن رد الملائكة وسؤالهم ليس اعتراضاً على حكم الله (والعياذ بالله) لكنه خوفهم من الاستبدال وبيانهم أنهم لم يفعلوا ما يغضب الله، فكل أوقاتهم تسبيح وعبادة لكن الله قال لهم: [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ].

عَلَّمَ اللهُ آدَمَ تَكْنُولُوجِيَةَ الْحَيَاةِ

والآية التالية هي أيضاً آية محورية: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا] (31).

وماذا يعني ذلك!

يعني أنه تعالى علَّمَ آدم تكنولوجية الحياة - إذا جاز التعبير - أي أسماء المخلوقات ووظائفها من شمس وقمر وبحر وشجر وثمر. وكان في المعنى تحذيراً للمؤمنين من أن يظنوا بأنهم سيكونون مسؤولين عن الأرض بدون أن يعرفوا طريقة إدارتها وهنا لفتة لطيفة في الآية 22 [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً] ففي هذه الآية يبين لنا الله تعالى أدوات الإستخلاف: تسخير الأرض والسما والزرع...

فهنا تحذير لعدم فهم الإسلام أنه صلاة وصيام فقط، دون ان يفهم المؤمنون كيف يديرون الحياة والأرض، فالله عزَّ وجل قد علَّمَ آدم كيف يدير الأرض حتى يفهمنا أن الأمور لا تدار بالتدين فقط ولكن بالعلم والتكنولوجيا.

المعصية هي سبب الإستبدال

وتأتي الآية التالية 36 لتبين لنا تجربة آدم مع ابليس [فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ] (36).

وهنا دلالة أن المعصية هي سبب الإستبدال، كأن الآية تخاطبنا في زماننا هذا

لتقول: يا أمة محمد، لقد بقيتم 1300 سنة مسؤولين عن الأرض وما حصل لكم في المئة سنة الأخيرة هو بسبب معصيتكم كما حصل لأبيكم آدم عليه السلام، (مع بُعد التشبيه بين زلة آدم عليه السلام نبي الله وبين المعاصي الفادحة التي تقع بها الأمة ليل نهار) فتعلموا من الأخطاء السابقة واجتنبوا المعاصي ليعود الإستخلاف إليكم.

وتمضي الآيات في الحديث عن قصة سيدنا آدم حتى نصل إلى الآية 38 [فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] (38).

وهنا نتذكر أنّ الهدى الذي سيأتي من عند الله تعالى قد ذكر في أول السورة على أنه القرآن [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ]، ونحن ندعو الله في الفاتحة أن نسير على هذا الهدى [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] فهل بدأت أخي المسلم تستشعر معي حلاوة القرآن وترابط آياته.

تجربة بني إسرائيل

تبدأ تجربة بني إسرائيل بالآية 40 من سورة البقرة لتبيان فشلهم في امتحان مسؤوليتهم عن الأرض.

باب المهمة: تذكر النعم.

وأول آية في هذا السياق تقول: [يٰۤبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ].

فأول آية يخاطب الله بها بني إسرائيل [اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ] وأول كلمة خاطبنا الله إياها في منهجنا [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]. وكأنّ بداية مسؤولية واستخلاف كل أمة تكون بتذكر نعم الله تعالى.

نماذج نعم الله تعالى على بني إسرائيل

وبعد هذه الآية يبدأ الله تبارك وتعالى بتعداد نماذج من هذه النعم فيقول لهم في الآية 50: [وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ] ويقول لهم في الآية 52 [ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مَن بَعْدَ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] ويقول أيضاً في الآية 57 [وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ].

آيات متتالية تتحدث عن النعم ثم تنتقل للحديث عن أخطاء الأمة السابقة، وكل هذا الكلام لكي ننتبه ونتجنب الوقوع في أخطائهم.

أخطاء الأمة السابقة

وتبدأ الآيات التي تصف أخطاء بني إسرائيل [وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً] (55)

لأنهم أمة مادية للغاية وكأن الخطأ الجسيم الذي قد تقع به أي أمة ويكون سبباً في استبدالها هو طغيان المادية فيها، ومعنى المادية أنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا أمراً ملموساً. وهنا نتذكر أول صفة للمتقين في بداية السورة [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ] (2).

وتمضي الآيات الكثيرة في الحديث عن بني إسرائيل والموبقات التي ارتكبوها كقتل الأنبياء بغير الحق، وعصيانهم وكفرهم بآيات الله، واعتداء أصحاب السبب وتحايلهم على آيات الله، إلى أن تصل بنا الآيات إلى القصة المحورية: قصة البقرة.

لماذا سميت السورة بالبقرة؟

قد يتساءل البعض لماذا سميت هذه السورة بسورة البقرة؟

قد يجيب البعض بأنها سميت كذلك لأن قصة البقرة جاءت في هذه السورة، مع العلم بأن هذه السورة قد جاء بها قصص كثيرة فلماذا سميت السورة باسم هذه القصة دون غيرها؟

إن قصة البقرة قد جسدت الأخطاء الأساسية الكبرى لبني إسرائيل، فسميت السورة باسمها لكي يتذكر المسلم المسؤول عن الأرض هذه الأخطاء ويتجنبها.

الجدل مفتاح الشرور

وهذه الأخطاء التي ارتكبتها بنو إسرائيل تظهر من أول الآية السابعة والستين [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ & قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ & قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ & قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ & قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] (67-71).

إختارها لحكمة

وقصة البقرة أن رجلاً من بني اسرائيل قتل ولم يعرف من قتله، فاختلف فيه فأوحى الله إليهم أن اذبحوا بقرة وأن يأخذوا قطعة منها ثم يضرىوا بها الميت فيحييه فيقول من الذي قتله ولقد طلب الله تعالى منهم ذلك لأنهم ماديون للغاية وليرىهم بأنه تعالى قادر على كل شيء وأن الأمور ليست كما تعودوا عليه دائماً فيحيى الميت بالميت فينطق.

وبما أنهم لم يفهموا الحكمة وبما أنهم ماديون جداً فقد رفضوا تطبيق الأمر، وقصة البقرة تجسد أخطاء بني إسرائيل، من المادية إلى الجدل وعدم طاعة أنبيائهم إلى عدم طاعة الله تعالى والإلتواء على منهجه وحتى حين نقذوا ما أمرهم الله به نقذوا ذلك مكرهين مجبرين [فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ].

وكأن قصة البقرة تنبّه من المادية الشديدة وكأنها تنبّه من الجدل في دين الله

تعالى، تنبّه من المراوغة والتحايل على شرع الله تعالى، أو أن تنفّذ شرع الله تعالى وأنت كاره لذلك فسمّيت سورة البقرة لخطورة هذه الأفعال.

تميّزوا حتى في مصطلحاتكم

وتمضي الآيات إلى أن نصل إلى الآية التي يذكر فيها لأول مرة [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا]. وهذا يتجلى في قوله تعالى [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا] (104).

لقد كان اليهود يخاطبون النبي صلى اله عليه وسلم بقولهم (راعنا) ومعنى راعنا أي راعي أمورنا ولكنهم كانوا يقصدون بها معنى سيئاً بلغتهم (إسمع لا سمعت) أو تعني شيئاً من الرعونة. ومن لا يفهم لغتهم ولا يعرف ما يقصدون يظن بأنهم يقولون للنبي راعي أمورنا. فالله جل وعلا يقول للصحابة لا تقولوا راعنا ولكن قولوا انظرننا والكلمتان تحملان المعنى نفسه ولكن ذلك تغيير في المصطلح..

وكأن المعنى: تميّزوا حتى في مصطلحاتكم. فالله تعالى يريد أن يفهمنا بأن الأمة السابقة قد وقعت بأخطاء شديدة فلا تتبعوها أو تقلّدوها، وتميّزوا عنها حتى في مصطلحاتكم وهنا علاقة مع سورة الفاتحة حين يطلب المؤمن أن لا يكون مثل بني إسرائيل [غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ] وتأملوا شباب اليوم كيف تقلّد الأمم الأخرى وكيف تقلّد الغرب في أتفه الأشياء بينما الله تعالى يعلمنا أن نتميّز حتى في مصطلحاتنا.

وبعد ذلك تعددت الايات التي تحذّر من التبعية، لأنها تبدأ بالأشياء الثانوية ولن تنتهي الا بالكفر والعياذ بالله: [وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا] (109)

التجربة الناجحة: إبراهيم عليه السلام

ونصل إلى الربع الأخير من الجزء الأول والذي يتحدث عن تجربة إبراهيم وهي تجربة ناجحة جاءت في نهاية الجزء للتحفيز على النجاح

في امتحان الاستخلاف: [وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ
 إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا] (124). ولاحظ أن سيدنا إبراهيم
 لم ينجح في الامتحان نجاحاً عادياً بل [أَتَمَّهُنَّ] أي قام بهنَّ خير قيام فلما أتمَّ هذه
 الابتلاءات (الرمي في النار، الحجرات وترك الولد في الصحراء، ذبح الولد..). أخبره
 الله انه سيجعله للناس إماماً (الاستخلاف) لأنه قد اطاع الله تعالى فقال إبراهيم
 عليه السلام [قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (124)

فقوله لا ينال عهدي الظالمين درس هام لنا بأن الله تعالى لا يجابي أحداً حتى
 أمة محمد والاستخلاف مقرون بالطاعة لا بالنسب وبهذا المعنى يدعو سيدنا إبراهيم
 أن يستخلف واحداً من ذريته [رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا] (129).

ومن المفيد هنا ملاحظة بدايات القصص الثلاث: فكلها بدأت بآيات تبين
 مجال الاستخلاف وكلها اشتملت على اختبارات في طاعة الله تعالى:

قصة آدم: أول آية في القصة [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
 الْأَرْضِ خَلِيفَةً] (30) (اختبار آدم في مسألة عدم الأكل من الشجرة).

قصة بني اسرائيل: أول آية في القصة: [يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
 أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ] (47) (الاختبار في تنفيذ أوامر الله
 المختلفة وشكر النعم).

قصة إبراهيم: أول آية في القصة وهي الآية 124: [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
 إِمَامًا] [وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ] (تحدي الاب - تحدي القوم -
 الرمي في النار - الهجرة - ترك الولد والزوجة في الصحراء - الذبح).

وقفات ولطائف

في الختام تأتي آية رائعة بتلخيصها حياة سيدنا يعقوب (وإسرائيل) في أسطر
 [أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
 قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَانِكَ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ] (133).

فهنا حرص سيدنا يعقوب على نقل أمانة الاستخلاف من آباءه إبراهيم واسحق إلى ابنائه وذريته بني إسرائيل.

ونلاحظ أيضاً في ختام الجزء الأول وبعد أن قصّ علينا القصص الثلاث تأتي الآية [قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (136).

فهذه الآية تفصيل للذين أنعم الله عليهم المذكورين في سورة الفاتحة [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ & صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ].

من فضلك اقرأ هذا الجزء بنفسية من يريد أن يكون مسؤولاً عن الأرض ليستخلفه الله، وأن يستفيد من أخطاء غيره، وأن يحذر المادية والجدل والتحليل على شرع الله ويتحرى طاعته.

يحدد الجزء الثاني من سورة البقرة الأوامر والنواهي التي لا بد للأمة من الأخذ بها حتى تستخلف. وكل هذه الأوامر والنواهي - كما سيتبين معنا - متعلقة بثلاثة أمور:

1. طاعة الله

2. تمييز الأمة

3. تقوى الله

إن من سيستخلف على الأرض لا بد له من منهج ليسير عليه، هذا المنهج هو الجزء الثاني من سورة البقرة.

تغيير القبلة: إختيار للطاعة وأمر بالتمييز

يبدأ الجزء الثاني بالتعقيب على الحادثة التي أمر الله بها المسلمين بتغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة، وتشكيك اليهود في المدينة بهذا

الأمر: [سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...]. (142).

وهنا سؤال يطرح: ما علاقة هذا الربع بما قبله؟ لقد تناول الجزء الأول ثلاث قصص لآدم عليه السلام، وبنو إسرائيل، وإبراهيم عليه السلام. إن العامل المشترك هو أن كل هذه القصص إختبار للطاعة... فجرى إختبار آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة، وبنو إسرائيل في ذبح البقرة وخضع إبراهيم عليه السلام لاختبارات كثيرة في طاعة الله عز وجل فأتمها [وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ] (124).

فبعد أن أخبرنا عن أحوال الأمم السابقة وأراد رسم المنهج لهذه الأمة، كانت أول مقومات المنهج هي الأمر بالطاعة. فالله تعالى لم يقص علينا القصص إلا لحكمة، وهي ترسيخ مفهوم الطاعة عند الأمة المسؤولة عن الأرض، فجاءت حادثة تغيير القبلة كإمتحان عملي.

ولذلك كانت الآية 143 واضحة جداً في بيان هذا المعنى [وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ] (143). وقد يظن البعض أن المسألة كانت سهلة لكن الواقع غير ذلك، فالعرب كانت تقدّس الكعبة من عهد سيدنا إبراهيم، فجعل الله قبلة المسلمين لبيت المقدس، ثم جاء الأمر بالإتجاه للكعبة مرة ثانية، طاعة لله.

لاحظ معي علاقة الأرباع السابقة من الجزء الأول بهذا الربع:

- الربع السابع مهّد لفكرة النسخ (وهو تغيير الأحكام) في بدايته [مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا] (106).
- ثم يأتي الربع الثامن ليتحدث عن بناء الكعبة [وَإِذِ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ] (127).
- وكانت آخر حلقات السلسلة بيان أن نسخ الحكم سيكون بتغيير إتجاه القبلة،

فانظر إلى جمال ترابط الآيات ببعضها!

تمييز الأمة حتى في مصطلحاتها

ولكن الربع هذا ينبّه إلى هدف آخر غير إختبار الطاعة. فكما سبق في الجزء الأول التنبيه إلى أهمية التمييز عن الأمم الأخرى في المصطلحات: **[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْنَا وَقُولُوا نُنْظَرْنَا]** (104) ففي هذه الآية أيضاً أمر بالتمييز عن الآخرين في إتجاه القبلة..

فاليهود كانوا يصلّون باتجاه بيت المقدس، فأمر المسلمون بمخالفتهم والتوجّه للكعبة. وكأن الرسالة هنا: كيف تستخلف أمة على هذه الأرض وهي ليست متميّزة عن غيرها؟ كيف يكون التابع والمقلّد مسؤولاً عن الأرض؟... فكان لا بد قبل الاتيان بأي أمر أو نهي في المنهج أن يأتي الأمر بالتمييز عن طريق تغيير إتجاه القبلة! لتمييز المسلمون فلا يشعروا بالتقليد والتبعية للأمم الأخرى.

وسطية التمييز

أما الربع الثاني من هذا الجزء فيبدأ بالآية 128 والتي يقول الله تعالى فيها **[إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا]** (158) بعض الناس يفهم هذه الآية أن لا بأس بالطواف وأن الطواف إختياري. لكن لكي نفهم معنى الآية لا بد من معرفة سبب نزولها، فالواقع أن الصحابة عندما سمعوا خطاب القرآن يأمرهم بالتمييز (سواء بتغيير المصطلحات أو بتغيير إتجاه القبلة)، ووجدوا أن المشركين يطوفون بين الصفا والمروة (ويضعون صنمين على جبلي الصفا والمروة (آساف ونائلة) وكانوا يسعون بينهما)، عندها شعر الصحابة بخرج من السعي بين الصفا والمروة وأنه ينافي التمييز الذي أمروا به، فجاءت الآية لتخبرهم أن ليس كل ما يفعله الكفار خطأ، فإن أصل السعي بين الصفا والمروة أمر رباني واتباع لسيدنا إبراهيم. وبهذا تضح الرسالة: لا بد من التوازن في التمييز لأن هذه الأمة أمة وسط فليس كل ما يفعله الكفار مرفوض...

ولذلك تأتي في هذا الربع آية هامة في رسم المنهج: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ] (143).

أنت منتمي إلى أمة متميزة: تخيل أنك أنت ستشهد على البشرية التي تعاصرها، وأنت ستقول يوم القيامة أين الحق وأين الضلال، فتأمل حجم المسؤولية الملقاة على عاتقك يوم القيامة، وتابع معي قراءة سورة البقرة حتى تتبين معالم مسؤوليتك وشهادتك على الأمم.

الإسلام والإصلاح الشامل

في الربع الثالث تبدأ سلسلة من الأوامر الشاملة لكل نواحي الإصلاح في المجتمع.

فيبدأ بقول الله تعالى: [لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ...] (177)

يقول العلماء أن هذه الآية شاملة للإسلام، فقد شملت العقائد (الإيمان بالله والملائكة والكتاب) والعبادات (إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة) والمعاملات (الوفاء بالعهد) والأخلاق.

لاحظ معي التدرج الرائع الذي جاءت به هذه السورة:

1. تغيير القبلة (لتحقيق التميز) [فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ] (144).
2. التوازن في التميز [لا جناح عليكم أن تطوفوا بين الصفا والمروة] (158).
3. الاتجاه ليس كل شيء: [لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ] (177).

فبعد ان رسخ الله تعالى لدى الصحابة الطاعة والتميز في الربع الأول، بين لهم أن المسألة ليست مسألة إتجاه وإنما هي قضية إصلاح شاملة. فحين جاء الأمر بالتوجه للكعبة كان ذلك فقط لاختبار الطاعة والتميز، بينما الأصل هو عمل البر بكل أشكاله التي وردت في الآية 177.

مفردات الإصلاح الشامل

ومن أول الربع الثالث في الجزء الثاني تبدأ الأوامر والنواهي للأمة لترسم شمول المنهج:

تشريع جنائي: [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى] (178). وبعدها يأتي قوله تعالى [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ] (179).

مواريث: [كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ] (180)

وبعد هذا

تشريع تعبدى: [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]..

التقوى مصباح الطريق

والملاحظ أن كل الأحكام الواردة هنا قد ركزت بشكل أساسي على تقوى الله تعالى، فتجد في آية القصاص: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (179) وفي آيات المواريث [إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ] (180) وفي آيات الصيام [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (183) وفي ختام عرض الأحكام: [كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] (187).

فهذا المنهج لا بد له من أناس طائعين، متميزين عن غيرهم، ومتمقين يريدون إرضاء الله تعالى، فهذه المحاور الثلاثة هي سياج يحمي المنهج، ذكرت بطريقة مترابطة ومدهشة لا تشبه طريقة البشر في الشرح والعرض.

وكلما تقدمت أخي المسلم في قراءة السورة تفتتح عينك على بقية أجزاء المنهج، فتتضح أمامك شموليته.

فالقرآن بدأ بالتشريع الجنائي ثم التشريع التعبدية. وقد يتساءل البعض عن العلاقة بينها. وهنا ينبغي التنبيه إلى أنك حين تجد موضوعات متتابعة ولكن متفرقة فهي إشارة إلى أن الدين يشملها كلها. فلم يأت تشريع العبادات منفصلاً عن غيره من الأحكام للتأكيد على شمول المنهج وتناوله لكل مظاهر الحياة.

دروع الإسلام الحصينة

نصل إلى القسم الرابع الذي يتحدث عن تشريع القتال وأحكام الجهاد [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ & وَأَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ..] (190-191).

فهنا تأكيد أنه لا بد من القتال للحفاظ على المنهج، ولا بد من إنفاق المال على الجهاد [وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ] (195) فهذا المنهج يستلزم قتالاً يحميه من أعدائه الواقفين في طريقه، وليس للإرهاب وسفك الدماء. وسنلاحظ في القرآن قاعدة عامة: كلما يذكر القرآن القتال يذكر معه ضوابطه، فهنا مثلاً حددت الآية قتال المعتدين [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ] (190) كما وبيّنت الأخلاق الحربية في القتال بعدم الاعتداء (ولا تعتدوا).

الحج: محطة وقود

وتنتقل الآيات للحديث عن أحكام الحج، فما الذي دعا للكلام على الحج بعد القتال؟ إن الحج هو أول تدريب على القتال، والله تعالى يتيح للأمة من خلال

الحج فرصة تدريبية (من إعداد نفسي وبدني وروحي) للتدريب على الجهاد وتغيير العادات.. تأمل كيف أن آيات السورة وحدة متماسكة رغم تنوع موضوعاتها. وهنا نتذكر دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام في آخر الجزء الأول من السورة [... وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا...] فكان التفصيل في أحكام الحج في الآيات (196-200) استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم في الآية (128).

أركان الإسلام

ويلاحظ أمر هام، وهو أن أركان الإسلام الخمسة لم تأت مفصلة ومجتمعة في أي سورة من القرآن كما في سورة البقرة.. فأحكام الصيام لم ترد إلا في سورة البقرة وأحكام الحج لم تفصل إلا في سورة البقرة وكذلك أحكام الإنفاق وأن الإسلام منهج زكوي تنموي لا ربوي. وأما الشهادتان فأول آيات سورة البقرة تشير إلى [... الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...] (3). نصل إلى عماد الدين: الصلاة، التي تكررت الإشارات إليها من أول [وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ] (43) إلى قوله تعالى [حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى] (238) وهنا الآية الوحيدة التي خصصت إحدى الصلوات الخمسة لأهميتها وهي صلاة العصر.

أدخلوا في السلم كافة

وبعد أن عرضت الآيات أحكاماً مختلفة نصل إلى آية محورية هامة [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً] (208) ومعنى السلم هنا الإسلام. أي أن المعنى: يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في الإسلام الكامل الشامل، الإسلام الذي يمثل هذا المنهج بجميع جوانبه. وسبب ورود الآية في هذا المواضع أن الآيات السابقة بيّنت معالم المنهج من تعبد وتشريع جنائي وتركات وقتال وأحكام الحج والإنفاق. فتأتي هذه الآية لتأمر بأخذ الإسلام بأحكامه كلها والتحذير من أخذ جزء وترك جزء آخر كما فعل اليهود [أَفْتُونُونَ بَعْضَ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] (36).. فهذا تنبيه لأمة محمد ﷺ على الدخول في الإسلام كافة وإتباعه كافة فلا ينبغي أن

نأخذ أجزاء ونترك أجزاء، كالتي تصلي وتترك الحجاب أو تقوم الليل وتؤدي جارتها.

اكتمال المنهج: أحكام الأسرة

ويستمر المنهج في تبيان أحكام الأسرة والزواج والطلاق والرضاعة والخطبة، على مدى ربعين كاملين، وقد يتساءل البعض عن سبب تأخر أحكام الأسرة وعدم ورودها في الأول.. والجواب أنه لا بد من البدء بطاعة الله والتقوى والصيام والحج للإعداد، لأن تنظيم الأسرة من الأمور الصعبة.. فملايين القوانين تعجز عن إصلاح نفوس تريد الإنحراف. لذلك أغلب آيات هذين الربعين ختمت بتقوى الله أو التذكير بعلمه ومراقبته: [وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (231)

[وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] (233)

[وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (234)

[وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى] (237)

[وَلِلْمُطَلَّاتِ مَتْعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ] (241)

وتغليظ أحكام الأسرة بالتقوى، يعلمنا أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مرتبطان دائماً.

من سيكمل إلى النهاية؟

وتذكر الآيات (246 - 252) قصة قتال طالوت وجالوت، قصة فئة من بني إسرائيل نجحت في المهمة وفئة أخرى فشلت لأسباب عديدة (رفض أمر الله والتولي بعد أن كتب عليهم القتال - عدم طاعة النبي - الفشل في امتحان الشرب من النهر - قياس النصر والهزيمة بالمقاييس المادية). هذه القصة اشتملت على قتال وحرب وأناس خافت من لقاء العدو وأخرى قاتلت، للتأكيد على لزوم القتال لحماية المنهج، وأن الجبناء والخائفين لا يصلحون لحملة وبالتالي لا يصلحون للمسؤولية على الأرض.

آية الكرسي: قدرة وعظمة الله

وتصل الآيات إلى أعظم آية في القرآن: آية الكرسي (255) وهي أروع كلام عن الله وصفاته عرفته البشرية في تاريخها.

[اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ] (255)

واللطيف أن بعد هذه الآية مباشرة يأتي قوله تعالى في الآية (256) [لا إكراه في الدين...]. وسبب هذا أن الحجة قد أقيمت على البشر بآية الكرسي فمن أثر الكفر بعدها فلا تكرهوه على الإيمان [قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ].

وسبب ورود آية الكرسي في وسط الكلام عن المنهج هو أننا أثناء تطبيق هذا المنهج نحتاج إلى ما يثبتنا ويشعرنا بأن هذا المنهج من الله تعالى، وأن الله ولي من يطبق هذا المنهج [اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا].

دلائل وبراهين

ويأتي بعد آية الكرسي ثلاث قصص تعرض نماذج حياتية لتؤكد آية الكرسي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود [إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ] (258).

وقصة عزيز [أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ... ثُمَّ بَعَثَهُ...] (259).

وقصة سيدنا إبراهيم وهو يقول [رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...] (260).

فأمره الله تعالى أن يأخذ عدداً من الطيور ويقطعها ثم يطرقها على رؤوس الجبال ثم يدعوها، فإذا بالريش والدم يعود كما كانوا قبل تقطيعهم، [وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (260).

فهذه للقصص تؤكد قدرة الله على الإحياء والإماتة [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] (255) جاءت بعد كل آيات المنهج لتقوية إيمان المسلم وبقينه بالله فتكون عوناً له على تحمل تبعات المنهج الثقيل.

النظام المالي والاقتصادي

وتظهر الآيات آخر ملامح المنهج وهو النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، والذي عنوانه: الإسلام منهج تنموي وليس منهج ربوي، وتأتي الآيات لتحذر من الربا: [يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ] (276).
[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ & فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ] (278 - 279).

حتى تأتي آية المداينة (وهي أطول آية في القرآن) لتوضح معالم المنهج فأكثر في قضايا الديون وإثباتها جاءت لتفيد الثبوت في المعاملات [إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ] (282) بعد ذكر قصة إبراهيم في الثبوت في العقيدة [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] (260) لتوحي هاتان الآيتان في داخلك أن الثبوت أسلوب المسلم في حياته في كل نواحيها. والملاحظ أن آيات الربا جاءت بين آيات الإنفاق والتنمية لتوضح أن الإسلام لا يحرم شيئاً إلا ويأتي بالبديل الأصح.

سورة البقرة: إشارة الإمارة

بعد أن استعرضنا سورة البقرة وشموليتها لأحكام الإسلام نفهم لماذا كان النبي يولي على القوم من يحفظ سورة البقرة لأنه بذلك قد جمع معالم المنهج. هذا المنهج الشامل الذي هو الصراط المستقيم في سورة الفاتحة، نجد عقيدة في آية الكرسي وعبادة في أحكام الصيام والحج ومعاملات في الإنفاق وتوثيق الديون وتحريم الربا وأحكام القتال، يغلفها جميعها محاور ثلاثة الطاعة، التميز بالوسطية، التقوى.

الختام: سمعنا وأطعنا

تختتم سورة البقرة بآيتين هما كنزٌ من تحت العرش يمدح الله بهما المؤمنين:
[وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (285).

فبنو إسرائيل قالوا **[سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا]** (93) أما أمة الإسلام فليكن شعارنا **[سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا]** لنبقى مسؤولين عن الأرض. ويأتي بعدها الدعاء **[لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ]** (286).

قد يخطئ الإنسان في حياته أثناء قيامه بهذا المنهج وقد يضعف فالصراط المستقيم هو هداية من الله، لذلك يحتاج المسلم إلى العون الرباني بأن يدعو بالعمو والغفران والرحمة. فإذا قام المسلم بقتال من أراد محاربة المنهج وأهله فهو يسأل الله النصر على القوم الكافرين، ولقد إستجاب الله تعالى لهذه الدعوات بقوله (قد فعلت).

سورة آل عمران

سورة آل عمران (مدنية) نزلت بعد الأنفال وعدد آياتها 200 آية وهي بعد سورة البقرة في ترتيب المصحف.

علاقتها مع سورة البقرة

سورة آل عمران هي شقيقة سورة البقرة بنص أحاديث النبي ﷺ وتسميان (بالزهاوين). وهناك تشابه كبير بينهما، فكليهما بدأتا بـ [ألم]، واختتمتا بدعاء، ومن لطائف القرآن أن أول 3 سور من القرآن قد اختتمت بدعاء:

الفاتحة [أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...]. (4).

البقرة [رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا] (255).

وآل عمران [...رَبَّنَا فَاعْفُفْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ] (193).

وهذه إشارة إلى أهمية الدعاء عند المسلم ليلجأ إليه دائماً.

من وحي الحروف (ألم)

ولعل أهم أوجه التشابه هو ابتداء السورتين بالأحرف المقطعة [ألم]، وهي إشارة إلى أن كل آية من آيات السورتين تحتوي على هذه الأحرف الثلاثة. وهناك سور كثيرة في القرآن ابتدأت بأحرف مقطعة (مثل ألم أو حم)، فكأنها مفتاح للدخول إلى معاني السور. وهناك ملحوظة أخرى أن كل السور التي تبدأ بنفس الأحرف ترتبط في أهدافها ومعانيها.

وقد يتساءل البعض عن المراد من ابتداء بعض السور بهذه الأحرف والواقع

أن هناك آراء كثيرة للعلماء في تفسيرها.

ولتبسيط الموضوع وتقريبه إلى الأذهان نقول: هذه الأحرف قد جاءت في أوائل السور لتحدي الكفار، وكأنه سبحانه يقول للكفار: أليست هذه الحروف هي حروف لغتكم؟ أليست هي المادة الأولية التي تستخدمونها؟ فهل تستطيعون أن تأتوا منها بمثل هذا القرآن؟ فالمادة والذرة قد يصنع منهما الإنسان الكمبيوتر والسيارة، ولكنه لا يقدر أن ينفخ فيهما الروح. وكذلك هذه الحروف قد يصنع الناس منها شعراً ونثراً لكن هل يقدر على أن يأتوا بقرآن فيه روح؟

اسمع قول الله تعالى: **[وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا]** (الشورى، 52).

ولذلك فإن أغلب السور التي تبدأ بالحروف المقطعة يأتي بعدها تمجيد للكتاب (أو القرآن أو الوحي أو الذكر).

الثبات على المبدأ

إن الهدف الذي تدور حوله السورة وثيق الصلة بهدف سورة البقرة التي كانت تحذر المسلمين بأنهم مسؤولون عن الأرض، والتي عرضت منهج الاستخلاف. فسورة آل عمران تؤكد الثبات على هذا المنهج، والكثير من الأشخاص - بعد أن يقرأوا المنهج ويتحملوا المسؤولية - يزيغون ويسقطون، ويتعدون عن المنهج القويم، كالذي يتعبد في شهر رمضان ثم يغلق أبواب الطاعة والعبادة بعده. فالسورة تخاطب المتدينين منذ أكثر من 20 سنة وتثبتهم على الدين، كما تخاطب الشباب الذين تدينوا بالأمس وتقول لهم أثبتوا على دينكم ومنهجكم لتحقيق استخلاف المسلم في الأرض.

كيف نثبت على الحق؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نعرف كيف يزيغ الناس، فالناس يضللون إما بالأفكار التي تشوش عقائدهم، أو يتيهون وسط مشاغل الحياة فتضعف

عزائمهم. وبالتالي فأسباب الهلاك فكرية (داخلية) أو عملية (خارجية)، والسورة تحت المؤمن على الثبات في المجالين وتحذره مما قد يكون سبباً في زلته.

لذلك تقسم السورة إلى قسمين:

1. القسم الأول: الآيات (1 - 120)

الثبات على الحق فكراً أمام المؤثرات الخارجية، من خلال الحديث عن أهل الكتاب والحوار معهم، وهو أول حوار بين العقائد في القرآن.

2. القسم الثاني: الآيات (120 - 200)

تحدث عن الثبات على الحق عملياً أمام المؤثرات الداخلية من خلال الحديث عن غزوة أحد، كنموذج للأخطاء التي قد تقع وكيفية تفاديها.

وقد بدأت بالخارج حتى تجهز للمسلم البيئة المحيطة، وبعد ذلك بدأت بالتكلم على الداخل. والواقع أن السورة تناولت هذين المحورين من خلال التعليق على حادثتين حصلتا على عهد النبي ﷺ:

- الحادثة الأولى: لقاء وفد نصارى نجران مع النبي، حين استضافهم في المسجد النبوي وحوارهم لمدة ثلاثة أيام.

- الحادثة الثانية: غزوة أحد والهزيمة أمام المشركين، فتأتي آية 80 للتعقيب عليها، لأن أكثر المؤمنين لم يثبتوا في الغزوة ولم يطيعوا أوامر نبيهم ﷺ (وخاصة الرماة).

صحيح أن هذه الآيات تعلق على حوادث مضى عليها أكثر من 1400 سنة، لكنها تخاطب المسلمين في كل العصور لتعلمهم كيف يثبتوا خارجياً وداخلياً، فكراً وعملياً.

من البداية للنهاية

بدأت السورة بما يساعد المسلم على الثبات، وختمت أيضاً بما يثبتته على الحق.

اقرأ في بداية السورة: [الم & الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ & نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ] (1-3).

فإلهك إله واحد وهو المعين على الثبات، والكتاب حق، وهو طريقك إلى الثبات على هذا الدين.

والآية الأخيرة تقول للمؤمنين [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (200).

اصبروا أي اصبر نفسك، أما صابروا فمعناها أن تساعد غيرك على الصبر، وأما رابطوا فمعناها أن يبقى المسلم مستعداً لمواجهة أي خطر يأتي من الخارج. والرباط يكون على الشغور لدفع وصد العدو الخارجي سواء كان هذا العدو جيشاً أو فكرة وشبهة.

وذكر القرآن كعامل من عوامل الثبات قد تكرر كثيراً في السورة.

فتأتي الآية (7) لتوضح [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ].

فالفهم الصحيح للقرآن من أهم عوامل الثبات الفكري والكثير من الناس قد يزيغون ويقعون في الباطل عن طريق اتباع المتشابه من القرآن. فالسورة تحذرننا من هذا الضلال وتحثنا على أن نكون من الراسخين في العلم، وان ندعو بدعاء الثبات: [رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ] (8).

آيات تدعو إلى الثبات

وهذه الآيات كثيرة جداً في السورة. فمرة يكون ذلك عبر التذكير بأشخاص ثبتوا عند لقاء العدو.

(في معرض الحديث عن غزوة بدر) [قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي نَقَمْتَا فِئَةٌ

تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ
مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ] (13).

ومرة تذكرنا السورة بالحواريين حين ثبتوا على نصرته دين الله تعالى وعدم الكفر

به.

[فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ] (52).

وبمناسبة الحديث عن الأمم السابقة، يذكرنا الله تعالى بعهد الأنبياء وثباتهم

على نصرته الإسلام.

[وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ
ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...] (81).

وفي سورة آل عمران تجد آيات تحثك على التقوى والثبات على الدين حتى

الممات.

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ]

(102) الآية تقول لك: إياك أن تموت إلا وأنت مسلم.

ولكن كيف ونحن لا نعرف متى نموت؟ الجواب: اتق الله واثبت على طاعته

تموت على الإسلام وتضمن حسن الخاتمة إن شاء الله.

وتأتي الآية التي بعدها مباشرة [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا]

(103).

فإذا أردت الثبات على الحق فاعتصم بالقرآن والزم المتدينين والصحبة الصالحة

وإياك والاختلاف.

[وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ...]

(105).

وتتوالى الآيات في السورة لتحث على الثبات في مواطن مختلفة. فتأمل معي

قول الله تعالى في الثبات عند لقاء العدو:

[وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ] (146).

وتأمل قول الله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ & فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ] (173-174).

آيات كثيرة تدعو المسلمين للثبات وعدم الضعف والتخاذل تحت أي ظرف. ولأن الثبات أمر خطير ومصيري، فالسورة تحذر من عوامل تنزل إيمان المؤمن وتقلل من مقدرته على الثبات.

عقبات الثبات: (الشهوات والمعاصي)

في أوائل السورة نقرأ الآية [رُئِنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَأْبِ] (14).

فالتعلق بمتاع الدنيا الزائل وشهوتها الفانية عامل خطير ضد ثبات الأمة.

ويقول تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا] (155).

فهذه الآية تقول بأن الذين تولوا من الصحابة يوم غزوة أحد كان عندهم ذنوب في الماضي، فاستزلهم بها الشيطان فلم يثبتوا.

ونرى آية أخرى في نفس المعنى:

[أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَّصِيْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ] (165).

الحل: (التوبة)

لذلك تتكرر الآيات التي تدعو إلى التوبة والمسارعة فيها.
 فيقول تعالى: [الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
 النَّارِ] (16).

[إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (89).
 وتأتي الآية [وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
 أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ] (133).

فلتكن هذه الآية شعاراً للشباب الذين يقعون في المعاصي، المسارعة
 بالاستغفار والتوبة لنثب على الحق ونضمن جنة عرضها السماوات والأرض.
 مما سبق تبين لنا أن الثبات على الحق أمر مهم وخطير وأن العقبات دونه كثيرة
 مما يوصلنا إلى السؤال المهم: ما هي العوامل التي تساعدنا على الثبات على الحق؟
 خمسة عوامل: أتت بها السورة وركزت عليها:

1. اللجوء إلى الله: فالثبات من الله تعالى وهو القادر على تثبيتنا على منهجه.
 لذلك فالسورة تحث على الدعاء كثيراً من أولها:
 [رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
 الْوَهَّابُ] (8).

[رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ] (9).
 [قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ
 وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (26).
 إلى أن يصور لنا القرآن نماذج مضيئة وكيف كانت تلجأ إلى الله.

فهذه زوجة عمران تدعو الله قائلة: [رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي
 مُحَرَّرًا] (35).

وزكريا [هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً
 طَيِّبَةً] (38).

وتمضي الآيات في السورة لتحث على الدعاء وترغب فيه، فهذا دعاء الأمم السابقة في الثبات عند لقاء العدو [وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ] (147).

وهذا دعاء أولي الألباب [رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ & رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ & فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنشَأَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقَتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ] (193 - 195).

2. العبادة: وتقرأ في ذلك قوله تعالى: [كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا] (37) فكانت السيدة مريم عاكفة على المحراب، فتعلم منها سيدنا زكريا لذلك عندما نادته الملائكة لتبشره بيحيى: [فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ] (39).

وهكذا نرى أن أجواء العبادة في السورة كثيرة ونصل إلى صفات أولي الألباب في آخر السور لنقرأ قوله تعالى: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ...] (191).

3. الدعوة إلى الله: توجد منطقة في مخ الإنسان هي منطقة القناعات، وهناك منطقة أبعد وأقوى هي منطقة الهوية والانتماء، ولكي ننقل فكرة في المخ من منطقة القناعات إلى منطقة الهوية والانتماء لا بد أن نتحدث عنها. فقد يكون المرء مقتنعاً بالإسلام، لكن الإسلام لم يصبح هوية له. فإذا أراد الإنسان أن يكمل انتمائه إلى دينه فينبغي أن يكثر الحديث عنه، فيقوى انتمائه للفكرة ويثبت عليها. فالدعوة إلى الله من أهم عوامل الثبات لأن الداعي حين يأخذ بيد الناس

فإنه سيكون أول من يثبت على ما يدعو الناس إليه. لذا فإن السورة تحتوي على الكثير من الآيات التي تحث المؤمن على الدعوة إلى الله:

[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (104).

[كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] (110).

4. **وضوح الهدف:** ومن عوامل الثبات أن يكون لك هدف واضح في حياتك.

يقول تعالى: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] (191).

فلا بد أن نفهم أن هذا الكون قد أنشئ لهدف ولم ينشأ عبثاً، والهدف هو عبادة الله ومعرفته وأن نكون مسؤولين عن الأرض (كما وضحت سورة البقرة).

5. **الأخوة:** [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا] (103).

فالأخوة في الله تؤمن للمسلم الصحبة الصالحة وهي من أهم نعم الله على الإنسان [فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا] (103).

لذلك تحذرننا السورة من تضييع الأخوة والتفرق [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ] (105).

الثبات الفكري

سبق وذكرنا أن السورة تنقسم إلى قسمين:

والقسم الأول من الآية (1 - 120) يناقش عقيدة أهل الكتاب مناقشة راقية وعلمية ومؤدبة. إنها لا تهدف إلى تسفيه أفكارهم بل تهدف إلى تثبيت المؤمنين فكرياً وتنقية أفكارهم من الشبهات.

لذلك إذا عدنا إلى جو هذه المناقشة، نجد أحداثها تدور في المسجد النبوي مع وفد نصارى نجران الذين مكثوا ثلاثة أيام في المدينة ليتحاوروا مع رسول الله ﷺ حواراً هو الأول من نوعه بين المسلمين والمسيحيين. ومن المهم هنا أن نوضح أن الحوار والتفاهم مع الآخر لا يعني أبداً التنازل عن جزء من العقيدة أو القيم والمبادئ، وهذا ما سنراه بوضوح من خلال الحوار الموجود في السورة وتقسيم القرآن الرائع والمنطقي لمراحله:

تقوية عقيدة المسلمين قبل النقاش

تبدأ السورة قبل النقاش بتقوية عقيدة المسلمين:

[شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (18).

[إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ] (19).

[أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا] (83).

[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ] (85).

[فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ] (20).

إيجاد نقاط اتفاق

لا بد من إيجاد أرضية مشتركة قبل البدء بأي حوار، وهو ما بينه القرآن في قوله تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ] (64).

وتذكر السورة الإيمان بأنبياء الله تعالى كلهم (بما في ذلك أنبياء أهل الكتاب) كنقطة أخرى من النقاط المشتركة معهم:

[قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ]

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [(84).

الحجج والبراهين وسيلة القرآن للتثبيت

[إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (59).

[يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] (65).

[هَآئِنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ] (66).

[مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (67).

آيات كثيرة في الإقناع العقلي والمنطقي:

[مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ] (79).

[وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] (80).

تحذير أهل الكتاب من التكذيب

وبعد أن عرضت الآيات الأدلة العقلية والمنطقية، تنتقل إلى جانب آخر من النقاش وهو التحذير والترهيب.

[يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ] (70).

[يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]

(71).

[فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَّا يُظْلَمُونَ] (25).

ثم يشتدّ التحدي:

[فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ] (61).

تسمى هذه الآية بآية المباهلة: أي أن يجتمع الفريقان المتناقشان ويتهلون إلى الله بأن ينصر الفئة المحقة ويلعن الفئة الكاذبة، وطبعاً لم يقبل نصارى نجران هذا التحدي الشديد.

العدل والتوازن في النقاش

ولأن الإسلام دين راق جداً، هذا الحوار لا يختم إلا بذكر حسنات بعض أهل الكتاب ويحثّ المسلمين على العدل في النظرة إليهم: [لَيْسُوا سَوَاءً مَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ] (113).

[وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا] (75).

فالقرآن يعلمنا أن كونهم غير مسلمين لا يعني أن كل تصرفاتهم خطأ وكل معاملاتهم غش.

يا مسلمون تعلّموا من سورة آل عمران التوازن في التعامل مع غير المسلمين. والقرآن يثني أيضاً على أنبياء أهل الكتاب: [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ] (33).

وتمتدح السيدة مريم باصطفائها على نساء العالمين: [وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ... عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ] (42).

إنه مبدأ رائع في التوازن والعدل، فلم تأت هذه الآية في مدح زوجة النبي ولا ابنته بل أتت في الثناء على السيدة مريم عليها السلام.

لا للاتباع الأعمى

وبالمقابل يحدّثنا القرآن من الاتباع الأعمى لأهل الكتاب بعد أن بيّن لنا عقائدهم:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ] (100).

[وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ] (101).

[هَآأَنْتُمْ ءَؤُلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ] (119).

[وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (105).

والملاحظ أن محاور هذا النقاش تأتي ضمن آيات متشابكة متتالية: ثناء عليهم، ثم برهان، ثم نقطة اتفاق، ثم تقوية عقيدة (وهو ما يظهر بوضوح في بعض المقاطع مثل الآيات 79 - 83).

ولا ننسى في خضم هذا النقاش آل عمران هذه العائلة المباركة التي سمى الله تعالى السورة باسمها. من امرأة عمران ودعائها إلى السيدة مريم وتبّلتها، ثم زكريا ودعائه، إلى سيدنا عيسى ووالدته ثم رفعه إلى السماء. آيات رائعة في اصطفاؤهم وفضلهم على العالمين.

ختام أقسام السورة بالثبات

ومن الإشارات الواضحة أن يختتم القسم الأول بالثبات [وَأِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً] (120).

كما ختم القسم الثاني بالثبات [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (200).

الثبات العملي بعد الثبات الفكري

بعدما ثبت البناء الخارجي ضد الأفكار والشبهات ينتقل القرآن إلى تثبيت البناء الداخلي، ويعالج القرآن هذا الموضوع بالتعقيب على غزوة أحد. فالمسلمون خرجوا من الغزوة منكسرين، خجلين من عصيان أمر النبي ﷺ ومن هروبيهم وخذلانهم لرسول الله ﷺ. فكان أن عاجلهم القرآن علاجاً راقياً من خلال:

1. التذكير بفضل الله عليهم: وأن النصر من عند الله، فذكرهم بغزوة بدر: [إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا] (أي أن لا تثبتا على الحق) [وَأَلَّ اللَّهُ لِيُثَبِّتَهُمَا] (122) (هو الذي ثبتهما).

[وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ] (123).

ونرى في نفس السياق التأكيد على أن النصر من عند الله:

[بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ... مُسَوِّمِينَ] (125).

لاحظ أن الصبر والتقوى قد تكرر ذكرهما في ختام أقسام السورة، كما ذكرنا هنا أيضاً كسبب لنزول الملائكة ونصر المؤمنين.

2. الأمر بالتوبة والعودة إلى الله: هنا مظهر آخر من روعة القرآن في التربية

والتثبيت، فقبل أن يذكر أخطائهم أو يؤنبهم، يدعوهم للعودة والإنابة إلى الله:

[وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ] (133).

[وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [(135).

3. المواساة: رفع الروح المعنوية بين الصحابة، آيات رائعة تخاطب المسلمين في كل زمان ومكان لتثيبتهم رغم كل الآلام وكل المصائب: [وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (139).
[إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ] (140).

فتمسح الآيات بجنان على آلام الصحابة، فالكفار قد تألموا مثلكم وفقدوا الأرواح مثلكم.

ثم تأتي الآية الرائعة في الثبوت: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ] (142).
فالجنة غالية، ولا بد لمن يطلبها أن يجاهد ويصبر لينالها.

4. لوم رقيق: بعد رفع الروح المعنوية يبدأ اللوم الرقيق.

[وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفُوهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ] (143).

[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ] (144).

ويلومهم لوماً آخر: [إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ] (153).

تخيل هذا المشهد: المسلمون يركضون ولا يستمعون لأحد والرسول ρ ثابت في أرض المعركة يناديهم ويدكرهم بالآخرة. ثم ذكرهم بأحوال السابقين وثباتهم: [وَكَايِنَ مَنِ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ [146].
 5. عودة للمواساة: [ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ] [154].

ويحن قلب النبي ﷺ عليهم [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ] [159].

حتى بعد الهزيمة، تأمر الآيات النبي ﷺ أن لا يترك الشورى.
 استشعر روعة هذا الدين الذي يمزج اللوم مع الحنان والمواساة في أحلك الظروف وأصعبها.

6. أسباب الهزيمة وعدم الثبات: بعد كل هذا لا بد من تبيان أسباب الهزيمة والثبات حتى يستفيد المسلمون في كل زمان ومكان من الأخطاء التي وقعت:
 أ. الاختلاف وعدم الطاعة: [وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ] [152].

فالله تعالى قد أصدقكم وعده بالنصر [حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ] (أي لم تثبتوا) [وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ] (أي اختلفتم) [وَعَصَيْتُمْ] وهذه إشارة إلى خطورة المعصية وأثرها [مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ] (من بعد ما أراكم بشائر النصر) [مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ] (بعضكم كان يبغي متاع الدنيا من وراء القتال، فكانت الهزيمة).

ب. المعاصي والذنوب: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا] [155].

ج. التعلق بالأشخاص: فعندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالفكرة يضعف ثباتهم وانتماؤهم للفكرة نفسها، فبعض الصحابة ألقى السلاح عندما سمعوا بإشاعة قتل النبي ﷺ فنزلت الآيات تؤنبهم

[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ] (144).

التحذير من الخلاف في السورة

لاحظنا أن السورة ركزت على التحذير من الخلاف لأنه من أكثر العوامل التي تؤدي لعدم الثبات وتزلزل الصف الداخلي سواء أكان الخلاف فكرياً أو عملياً.

لذلك حذرت السورة من:

- أ. اتباع الآيات المتشابهة من الكتاب بقصد الفتنة والتأويل: [فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ] (7).
- ب. التفرق والاختلاف في الفروع: [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] (103). وتحذرتنا السورة من الخلاف والتفرق في آيات الله [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ] (105).
- ج. الربا: لأنه من أسباب الخلاف بين المسلمين [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَافَةً] (130).
- د. التفرد بالرأي: لذلك أمرت الآيات النبي بالشورى رغم كل ما حدث في أحد [فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ] (159).

علاقة القسم الأول بالثاني

1. عدم التعلق بالأشخاص: إن إشاعة قتل النبي ρ والمفاجأة التي حصلت في أحد لخبطت المسلمين، وكذلك فإن قصة رفع المسيح فجأة لخبطت المسيحيين وأدت إلى ما هم عليه من ضلال. فسورة آل عمران توجهنا إلى التعلق بالفكرة لا بالأفراد والأشخاص، فهم يزولون ويموتون وتبقى الفكرة ويبقى الدين، فيا

شباب إن أردتم الثبات فإياكم والتعلق بداعية ما أو بشخص ما ونسيان الفكرة والرسالة.

2. أهمية الاتباع: مع أن السورة ركزت على عدم التعلق بالأشخاص لكنها بيّنت أهمية الاتباع والطاعة.

- ففي القسم الأول: [فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ] (52).

هذه الآية وضّحت الغاية [إلى الله] وبيّنت لهم الوسيلة والطريق: [مَنْ أَنْصَارِي] فلا بد لهم أن يكونوا من أنصار النبي.

- ونرى في القسم الثاني آية عامة على مر العصور في اتباع الأنبياء:

[وَكَايِنَ مَنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ] (146).

والآية [إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ] (153).

تلوم المؤمنين على تقصيرهم في اتباع النبي وطاعته في غزوة أحد.

لماذا سميت السورة بآل عمران؟

ما علاقة كل ما قيل عن الثبات بآل عمران؟ إن الله تعالى قد اختار في هذه السورة رمزين من رموز الثبات، امرأة آل عمران، ومريم بنت عمران، وسرد لنا قصتهما في ريعين كاملين من السورة. فالسيدة مريم ثبتت على طاعة الله تعالى وعبادته وثبتت على العفة حتى استحقت أن تذكر بهذه الصفة في القرآن [الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا] فمن أخطر الأمور التي تضيّع الأفراد وتضيّع المجتمعات الفشل في الثبات على الطاعة وعلى العفة. فكانت السيدة مريم عليها السلام رمزاً للثبات عليهما.

وأما زوجة عمران فقد كان همها الأول أن يكون الجنين الذي تحمله ناصراً لدين الله تعالى: [رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي] (53).

محزراً أي خالصاً لك فكانت تريده أن يحرر المسجد الأقصى من يد الرومان المعتدين وبذلك كانت رمزاً للثبات على فكرتها حتى بعد أن علمت أن وليدها كان أنثى. [فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...] (36) فتقبل الله تعالى من امرأة عمران صدق نيتها [فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...](37).

واللطيف أن الله تعالى ذكر هذين الرمزين في السورة التي تناقش أهل الكتاب وهذه طريقة مميّزة للقرآن في تقريب الناس كما مرّ معنا. فمع أنه ينكر على ما يعتقد أهل الكتاب لكنه يثني على شخصيات عظيمة يؤمنون بها كزوجة عمران والسيدة مريم.

قيمة المرأة في السورة

واللطيف أيضاً في السورة التي تتحدث عن الثبات أن الله تعالى قد جعل نموذج الثبات سيدتين فالسورة مع أن اسمها آل عمران، لم تذكر عمران نفسه بل ركزت على زوجته ونيتها المخلصة في نصرة دين الله التي كانت سبباً بعد ذلك في ولادة السيدة مريم ومن بعدها سيدنا عيسى. لاحظ أيضاً أن سيدنا زكريا على ما له من قيمة في أنبياء بني إسرائيل قد تعلم من السيدة مريم.

[كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...] و[هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...] (37-38).

فرمز الثبات في السورة هو النساء، والسورة التالية بعد آل عمران هي أيضاً سورة النساء، وهذا أوضح دليل على تكريم الإسلام للمرأة ورفع قدرها. فيا شباب أثبتوا على الحق فكراً وعملاً، ويا فتيات أثبتن على الحق فكراً وعملاً، وتعلموا من السيدتين اللتين ذكرت في هذه السورة: امرأة عمران، ومريم بنت عمران.

سورة النساء

سورة النساء (مدنية) نزلت بعد سورة الممتحنة وعدد آياتها (176) مائة وست وسبعون آية، وهي السورة الرابعة في ترتيب المصحف بعد سورة آل عمران. سورة النساء هي سورة العدل والرحمة خاصة مع الضعفاء فبعد أن حدّدت سورة البقرة مسؤولية المسلمين عن الأرض وعرضت منهج الاستخلاف، جاءت سورة آل عمران لتدعو إلى الثبات على المنهج القويم وعلى المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين. ثم جاءت سورة النساء لتعلمنا أن المستأمن على الأرض لا بد أن يكون على قدر من العدل والرحمة تجاه الضعفاء الذين استؤمن عليهم وكأن الصفة الأولى التي تميّز المسؤولين عن الأرض هي العدل.. ولهذا فإن سورة النساء تتحدث عن حقوق الضعفاء في المجتمع. إنها تتحدث عن اليتامى والعبيد والخدم والورثة، كما تركز بشكل أساسي على النساء. وكذلك فإنها تتحدث عن الأقليات غير المسلمة التي تعيش في كنف الإسلام وعن حقوقها بالإضافة إلى التوجه إلى المستضعفين أنفسهم وكيف ينبغي عليهم التصرف في المواقف المختلفة. يضاف إلى كل هذا الحديث عن ابن السبيل وعن الوالدين وكيف يجب أن يُعاملوا.. فهي سورة الرحمة وسورة العدل.. يتكرر في كل آية من آياتها ذكر الضعفاء والعدل والرحمة بشكل رائع يدلنا على عظمة الإعجاز القرآني في التكرار دون أن يملّ القارئ.

سبب التسمية: بيتك أولاً

أما سبب تسمية السورة بهذا الاسم فهو أن المرء لو عدل مع زوجته في بيته ورحمها فإنه سيعرف كيف سيعدل مع بقية الضعفاء.

فهي سورة المستضعفين وقد اختار الله نوعاً من أنواع المستضعفين وهم النساء ليكونوا اسماً لهذه السورة.. وكأن الله يقول لك: قبل أن أستأمنك على الأرض، أرني عدلك في بيتك، فلو عدلت ورحمت في بيتك فستكون مستأمناً للعدل في المجتمع، إن العدل مع النساء في البيوت نموذج يقاس به عدل المسلمين في امتحان الاستخلاف على الأرض، فهل سنجد بعد هذا من يدعي بأن الإسلام يضطهد المرأة ولا يعدل معها؟

إن هذه الادعاءات لن تنطلي على قارئ القرآن بعد الآن وخاصة مع الذي يقرأ سورة النساء، فهناك سورة كاملة تتناول العدل والرحمة معهن، وقبلها سورة آل عمران التي عرضت السيدة مريم وامرأة عمران كنموذجين للثبات (كأن سورة آل عمران تمهد لتكريم المرأة).

تعالوا الآن أيها الأخوة نخوض في رحاب الآيات الكريمة وننوي أثناء قراءتها أن نعدل مع كل الناس خاصة مع الضعفاء.

دعامة الاستخلاف: العدل

تبدأ السورة بداية واضحة في توضيح هدفها: [يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...] (1) فهذه الآية تخبرنا بأن الأصل الإنساني واحد [مَنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ] فلم الظلم؟؟ وتبين الآية أن النساء قد خلقن من الرجال، وفي هذا دعوة صريحة للرفقة بمن كما في حديث النبي: "النساء شقائق الرجال". والملاحظ أن السورة بدأت بخطاب عالمي [يَأْيُهَا النَّاسُ] بينما سورة المائدة بدأت بخطاب المؤمنين [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا] وذلك لأن العدل قانون عام للأمم جميعاً.. فلا يمكن لأمة أن تسود في الأرض وهي ظالمة.. فالعدل أساس الملك وأساس الاستقرار وأساس الاستخلاف. وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

(.. وأمور الناس تستقيم مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة

العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.. (146/28 مجموع الفتاوى).

ولاحظ أن سورة النساء ابتدأت بنفس المعنى الذي ختمت به السورة التي قبلها: التقوى. فقد ختمت آل عمران بـ [وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (200) وابتدأت سورة النساء بـ [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم] (1).

لا تأكل النار

والآية الثانية تحذّر من ظلم نوع آخر من المستضعفين: [وَأَتُوا أَلْيَتَمَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا] ثم بعد ذلك يأتي قوله تعالى: [وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي أَلْيَتَمَى] كان العرب يرون اليتيمة فينفقون عليها من مالها، فإذا كبرت وأراد أن يتزوجها وليها فقد يبخسها في مهرها، ولا يعطيها مهراً مثل ما يعطي غيرها من النساء، فأنت الآية لتدافع أيضاً عن تلك الفئة المستضعفة من النساء، وفي هذه الآية نرى القاعدة المشهورة في إباحة عدد الزوجات: العدل ثم العدل ثم العدل وإلا فواحدة. [فَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...].

المهر: حق الزوجة مع طيب النفس

ثم تأتي الآية الرابعة لتقرر حق الزوجة في المهر، وأهمية أن يعطيها الرجل مهرها "نحلة" أي عن طيب نفس [وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا].

فانظر أخي المسلم إلى هذه الرحمة المتبادلة بين الزوجين يرسخها الإسلام في آية المهر. فالمطلوب من الرجل طيب النفس في العطاء، أما المرأة فهي مخيرة بين أن تحتفظ بحقوقها أو أن تطيب نفسها ببعضه إكراماً لزوجها. آية رائعة في الجمع بين المطالبة بحق الزوجة وبين العلاقة الحميمة المتبادلة في العطاء عن طيب النفس.

العدل حتى مع السفهاء

وتمضي الآيات لتحقيق العدل مع فئات المجتمع المختلفة، حتى السفهاء من الناس [وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا] (5) والسفهاء هم الذين لا يحسنون إدارة أموالهم بحيث لو أنه ترك معهم لتبدد بسرعة. فحتى هذه الفئة من الناس لا يجوز أن تظلم أو أن تستغل، كما يفعل البعض بحجة سفاهة صاحب المال.

ثم تأتي الآية السادسة أيضاً لتقرر حق اليتامى في مالهم إذا بلغوا سن الرشد [وَأَنْتَلُوا الَّتِي تَمَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا].

والآية السابعة تقرّر حق المرأة في الميراث الذي حرّمها منه بعض العرب في الجاهلية [لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا].

والآية الثامنة تجمع بين العدل والإحسان [وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَأَلْيَتَمَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا].

إحفظ أولادك من بعدك بالعدل

والآية التاسعة تصحح مفهوماً سائداً عند الناس [وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا] كثير من الناس يأكلون الحرام ويعتدون على غيرهم بحجة أنهم يخافون على أولادهم بعد وفاتهم، لكن السورة تقول لك العكس: اعدل مع غيرك وقل قولاً سديداً يحفظ لك الله أولادك.

ثم تأتي الآية العاشرة لتحذّر من الظلم تحذيراً شديداً [إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا].

الميراث بالعدل

وبعد ذلك تأتي أحكام الميراث للأولاد والبنات في الآية (11) [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ...] هذا هو العدل لأن تقسيم الإرث ليس على أساس الأفضلية، وليس بنسبة متساوية بين الذكر والأنثى بل على أساس الواجبات والمسؤوليات لكل واحد منهما. فالرجل عنده مسؤولية النفقة على بيته وزوجته. بينما المرأة ليس عليها أي واجب للنفقة وإذا تزوجت فعلى زوجها أن ينفق عليها وتبقى لها حصتها من الإرث.

ثم الآية (12) تفصل الميراث بين الزوجين أيضاً بالعدل [وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وُلْدٌ] فباختصار أخي المسلم، كلما أحسست بأن العدل قد نقص من حياتك خاصة مع زوجتك، بيتك أو الضعفاء فعليك أن تقرأ سورة النساء: سورة العدل وأن تعرض نفسك على آياتها.

تلك حدود الله

ثم تأتي آيتان (13-14) محوريتان في الترغيب بالعدل والترهيب من الظلم والتعدي على حدود الله [تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ & وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ].

فماذا لو وقع الظلم من البشر؟ تأتي الآية (17) لتجيب على السؤال مباشرة وتفتح باب التوبة [إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا].

شعار السورة: وعاشروهن بالمعروف

وتعود الآيات إلى الحديث عن العدل مع النساء [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا...] (19) فهذه الآية تحذر من إرث النساء كرهاً [وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ] (19).. فليس معنى [وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ] أن لا يظلم الرجل زوجته فحسب، بل إن العلماء قالوا بأن المعاشرة بالمعروف هي أن

يتحمّل الرجل الأذى من زوجته ويصبر عليها ويرقق قلبها حتى يذهب عنها غضبها كما كان يفعل النبي ﷺ: وَتَمْضِي الْآيَةَ لَتَقُولَ [فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا] (19).

وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً

ثم تأتي الآية (20) [وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَعَاتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا] هذه الآيات تجمع بين العدل والواقعية في التعامل مع المرأة، فأولاً: عاشروهنّ بالمعروف، ثم لو كررتها فاصبر فإذا لم تقدر وأردت استبدال زوجة مكان زوجتك فإياك أن تأخذ من مهرها شيئاً، حتى لو كان قنطاراً أي مالا كثيراً. والآية شديدة في هذا المعنى [أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا]. لماذا ذكر البهتان هنا؟ لأن العرب كانوا إذا أرادوا استبدال زوجتهم رموها بفاحشة (بهتاناً) حتى يدفعوها إلى رد كل ما يريدون من المهر، فوَجَّهْتَهُمُ الْآيَةَ (20) بقوة.

ثم تأتي آية من أروع الآيات القرآنية في ترقيق القلوب بين الزوجين من ناحية وفي تغليظ وتعظيم عقد الزواج من ناحية ثانية: [وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا] (21) وكلمة (أفضى) تدلّ على عمق العلاقة بين الزوجين فتذكر الزوج بعشرات الصور الجميلة قبل أن تسوء العلاقة مع زوجته، في الليل والنهار في غرفة النوم وفي النزعات.

وأما الميثاق الغليظ، فهو عقد النكاح أيها الرجل، عندما وضعت يدك بيد وليّ زوجتك وقلت "على كتاب الله وسنة رسوله". فهنا تحذير شديد لكل زوج من أن ينقض هذا العهد الذي يُشهد الله عليه. والملفت أن عبارة [مِيثَاقًا غَلِيظًا] لم ترد في القرآن إلا ثلاث مرات: مرة مع الأنبياء، الذين أوفوا بهذا الميثاق الغليظ (سورة الأحزاب، الآية 7)، ومرة مع بني إسرائيل، الذين نقضوا الميثاق (سورة النساء، الآية، 154) والمرة الثالثة هي معك أيها الزوج عند عقد القران.

من صور تكريم الإسلام للمرأة

لقد ظلمت المرأة كثيراً عبر التاريخ فجاء الإسلام وأنزلت سورة النساء لترد لها حقوقها. فمن مظاهر الظلم التي كانت موجودة أن يرث الرجل كل ثروة أبيه، ويرث مع المال كل زوجاته - إلا أمه - إذلاً لهن، فتأتي الآية (22) [وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا] لتنتهي عن هذه الفعلة الشنيعة.

وتتابع الآيات وتتحدث عن حق آخر هو حق الزواج من العبيد في الوقت الذي لم يكن هناك قانون يلتفت لحقوقهم فلو كان الرجل غير قادر على الزواج من المحصنات أي الحرائر وأراد الزواج بأمة فإن الآية تقول.. [فَأَنْكِحُوا بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ] ولم تقل الآية (سيدهن). فالقرآن سمى السيد بالأهل ليحث على الرحمة بهن ويراعي مشاعرهن [فَأَنْكِحُوا بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَعَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ] (25) أي ادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفس، ولا تبخسوهن حقهن لكونهن إماء مملوكات.

ولا متخذات أخدان

وبعد ذلك تخاطب الآية النساء [وَلَا تُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ] وتحذرهن من العلاقات غير الشرعية مع الرجال (تحت عنوان المصاحبة) فالسورة تتحدث عن رحمة ورافة الإسلام بالمرأة بأن لا يكون لها صديق عاشق لأنها ستشعر بالإحباط إذا تركها، وهو ما ستؤول إليه كل علاقة بدأت بمعصية.. وستتحطم سمعتها وحياتها في المستقبل. والنساء في هذه الحالة يشكلن نوعاً آخر من المستضعفين لأن قلوبهن رقيقة وعاطفتهم قوية. فيا أيتها البنات، أنتن غاليات عند الله تعالى والإسلام يحمي مشاعركن من أن يعيث بها شاب لاه غير مسؤول.

تخفيف العقوبة على الضعفاء

ما زلنا مع الآية (25) والتي تنص على مظهر رائع من مظاهر عدل الإسلام ورحمته مع الضعفاء: [فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ] وهذا عكس ما نرى في القوانين الرومانية والهندية القديمة في تشديد

العقوبة على الطبقات المتدنية وفي حين أن الإسلام يرأف بالطبقات الضعيفة ويخفف عنها العقوبة.

ثم تأتي الآيات (26 - 27 - 28) لتذكر رحمة الله ورأفته بالأمة المحمدية وبالبشرية كلها. وهذا أيضاً من باب الرحمة بالضعفاء لأن الآية تقول [وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا] اقرأ معي الآيات وتأمل كيف يبين لنا الله رأفته وعدله ويذكرنا بضعفنا في وسط الآيات الكثيرة التي تدعو للرفقة بالضعفاء [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ & وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا & يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا].

العدل في الأموال والأنفس

وبعد أن تناولت الآيات مظاهر العدل في مجالات مختلفة (المرأة ثم الأسرة ثم المجتمع) تنتقل إلى العدل في التجارة والمعاملات المالية [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ] (29) ثم إلى العدل مع الحياة البشرية وعدم سفك الدماء [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا].

لا إفراط ولا تفريط

وتأتي الآية (34) لتنظم الضوابط داخل الأسرة المسلمة لأن الرجل قد يدفعه حرصه على العدل مع الزوجة إلى التراخي وعدم الحزم، وقد يترك زوجته تفعل أشياء خاطئة، فتعطينا الآية صورة من صور التوازن في الإسلام: الحزم مع العدل [الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَفِظَتْ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ] فالمرأة مأمورة شرعاً بطاعة زوجها لتستقيم الحياة داخل البيت، فإذا أخطأت المرأة وكان الزوج يعطيها حقها، فلا ينبغي أن يتركها تفعل ما تشاء (مخافة أن يظلمها)، فلا بد من الحزم هنا، وعددت

الآية مراتب التأديب: الوعظ ثم الهجر في المضاجع ثم الضرب وينبغي التنبيه إلى أن الضرب لا يكون إلا في حالة النشوز، وهو العصيان الشديد الذي قد يؤدي إلى دمار البيت، فالضرب إذاً حالة نادرة ولا يجوز أن يلجأ إليه الرجل متى شاء تحت حجة أن القـــــرآن أمر بـــــر بـــــه دون أن ينسى أن له ضوابط عديدة والهدف منه هو إشعار المرأة بالخطأ لا إشعارها بالألم.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حيث أنه لم يضرب في حياته امرأة أو خادماً قط.

لا تظلم نفسك

ثم تعود آيات السورة للحديث عن العدل فتحدّر من الشرك بالله [وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا] (36) لأن أعظم الظلم الشرك كما ورد في سورة لقمان [إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] ثم توزّع الآية (36) العدل والإحسان على فئات المجتمع المختلفة وخاصة الضعيفة منها [وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا] أي الوالدين عند الكبر [وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّحْبِ بِالْجُنْبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا]. أرايت كيف تتوالى آيات السورة التي - وإن اختلفت في مضمونها - تصب وتخدم محوراً واحداً وهو العدل بكل أشكاله.

عوائق العدل والرحمة

وبعد ذلك تتحدث السورة عن صفات مذمومة لو وجدت بشخصٍ لأثرت سلباً في قدرته على العدل والرحمة بالضعفاء، فتبدأ الآية 37 بالحديث عن البخل [الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ] ومن ثم الرياء وحب الظهور الآية 38 [وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا].

إن الله لا يظلم مثقال ذرة

بعد كل هذه الآداب يذكّرنا تعالى بفضله وكيف أنه يعاملنا بالفضل قبل العدل فكيف يأبى الإنسان أن يتعامل مع غيره بالعدل. [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا] (40).

والآية التي بعدها تذكرنا أن النبي ﷺ سيشهد على عدلنا يوم القيامة [فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا] (41) فكأن الله يقول للظالم: إحذر فسوف يشهد النبي على ظلمك، ويقول للعدل: إفرح، فسوف يشهد حبيبك ﷺ على عدلك.

ثم تأتي آية محورية تمثل قلب السورة [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا] (58).

طاعة الله والرسول أساس العدل

وهذا المعنى واضح في الآية (59) التالية: [يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا].

فلاحتكام إلى شرع الله وردّ كل خلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله هما صمام العدل والرحمة في المجتمع وإن بدا فيهما غير ذلك، كما هو واضح في الآية (64)، فإذا عصى المؤمن أوامر الله ورسوله فيكون قد ظلم نفسه [وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا]. فكيف نحقق تمام العدل؟ تجيب الآية (65) بوضوح شديد [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] يا مسلمون، اعرضوا أنفسكم على كتاب الله وعلى سنة النبي وسلّموا بحكم النبي، وإياكم أن تترددوا أو تتحرجوا من أوامر النبي لكي يشهد النبي على عدلكم في الآخرة.

القتال للحفاظ على حقوق المستضعفين

وتتابع الآيات إلى أن تصل إلى ربيع حزب كامل يتحدث عن القتال من أول الآية (74) [فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِآلِ الْآخِرَةِ] ما علاقة هذا الربع بالعدل؟ إن استمرار العدل في المجتمع يتطلب وجود قوة للحفاظ على حقوق المستضعفين، فالقتال في الإسلام ليس للعدوان وليس هدفاً لذاته، وإنما هو وسيلة لهدف، ودليل ذلك الآية (75) [وَمَا لَكُمْ لَأَ تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنْكَ نَصِيرًا]. والملاحظ أن أكثر أحكام القتال وردت في سورة النساء، لأن النساء مصنع المجاهدين أولاً، ولأن المرأة مقاتلة في بيتها. فالمرأة التي يتبعها زوجها وتصبر على ظلمه تقاتل وتستشهد في بيتها كل يوم مئة مرة. فكان إيراد أحكام القتال في السورة رسالة للمرأة لتقول لها (والله أعلم) أنك أيضاً مقاتلة في صبرك على زوجك وحمايتك لبيتك.

أثر الإعلام على العدل

وتأتي في هذا الربع أيضاً آية مهمة، تخاطب الإعلاميين في كل زمان ومكان وتشير إلى أثر الإعلام على العدل [وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ] فالإعلام قد يكون بيئة مخيفة للقاضي وللرأي العام فتقلب المفاهيم وتؤثر على حكم العادل، لذلك لا بد من ردّ الإشاعات إلى أولي الأمر وعدم التأويل والاستنباط. إنها رسالة واضحة للمسلمين في زماننا أن يحصوا ويتثبتوا مما تبشه وسائل الإعلام.

خطر النفاق

وبعد ذلك يأتي ربيع حزب كامل يتحدث عن خطورة المنافقين

على المجتمع [فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا].

وسبب ذكر المنافقين هو التنبيه إلى أن انتشارهم في المجتمع هو أعظم سبب لتضييع العدل وتضييع حقوق الضعفاء. فهم يفسدون المجتمع ويضيعون قيمه وخاصة قيمة العدل.

وبعد ذلك تصل بنا الآيات إلى قمة العدل: العدل حتى أثناء القتال [بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا] إنها الأخلاق الحربية التي كان الإسلام رائداً في الدعوة إليها.

كن إيجابياً لتتال العدل

في كل الآيات السابقة كان القرآن يخاطب الأقوياء والمسؤولين ويأمرهم بالعدل مع الضعفاء والرحمة بهم. لكن القرآن في الآية 97 يطلب من المستضعفين الإيجابية والحركة وعدم الخضوع والهوان لكي لا يظنوا أن واجبهم في الأرض يقتصر على انتظار العدل واستجداء الرحمة من الناس [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَلَمُوا أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا].

القصر في الصلاة من رحمة الله بنا

وبعد ذلك ينبهنا الله تعالى إلى رحمته التي يعامل بها خلقه وعباده، فتأتي الآية (101) لتتحدث عن القصر في الصلاة وصلاة الخوف [وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...] فالله تعالى يلفت انتباهنا في هذه الآية إلى رحمته بنا لرحم الناس.

مع الأقليات غير المسلمة

وأخيراً نصل إلى العدل مع الأقليات غير المسلمة في المجتمع المسلم. وذلك أن أحد المسلمين في عهد النبي ﷺ سرق وأتهم يهودياً. علم مسلم آخر بالأمر وشهد

زوراً حتى لا يتعرض المسلم للحد وذلك تحت حجة الأحوه.
 فنزلت الآيات تخاطب المسلمين خطاباً شديداً [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً] (105) ثم
 تشتدّ اللهجة على الظالم [وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ
 أُحْتَمَلَ بِئْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا] (112) فشهد الله تعالى من فوق سبع سماوات ببراءة
 اليهودي مما نسب إليه ليرسخ في الإسلام هذه القواعد الحضارية في التعامل مع
 الديانات الأخرى.

عودة للنساء

في أواخر السورة نرى عودة لبعض الأحكام المتعلقة بالنساء مع التركيز على
 ضوابط العدل والرحمة [وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى
 عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ] (127) ونرى دعوة أخرى إلى العدل عند
 تعدد الزوجات [وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
 الْمِيلِ] (129) أي إلى واحدة منهم [فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ] (129) لا هي متزوجة ولا
 مطلقة فهذا ظلم لها وسوء استعمال للصلاحيه التي في يد الرجل.

كونوا قوامين بالقسط

لذلك نرى الآية (135) تذكرنا بهدف السورة بقوة قبل ختامها:
 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ
 أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ
 أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا].

وقوامين هي لفظة مبالغة تعني: شديدي القيام بالعدل. والآية تحذرننا من اتباع
 الهوى لأنه عامل خطير في التسبب بظلم الناس.

ظلم أهل الكتاب

ثم تنتقل السورة إلى انتقاد بعض أخطاء أهل الكتاب المتعلقة بموضوع السورة

وذلك لتحذير المسلمين من أفعالهم [فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ] (160) بسبب ظلمهم ضيق الله عليهم الحلال. فماذا كانت مظاهر ظلمهم [وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا & وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ] (161).

وتتناول الآيتان (171-172) [يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا & لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنِ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا] أيضاً انحراف عقيدة النصراني. وإيرادها هنا يخدم هدف السورة من ناحية أخرى: فإن سبب تحريف دينهم وكتابهم هو الاستضعاف والاضطهاد من الرومان للجيل الأول من النصراني. فكان الرسالة هنا للمؤمنين: نصرته الدين وتقويته ودعمه حتى لا يبدل ويحرف كما جرى مع أهل الكتب.

وتأتي بعدها آيتان شديدتان في التحذير من الظلم [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا & إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا...] (168-169).

هذه سورة النساء، سورة العدل والرحمة مع كل طبقات المجتمع.

ومما تميزت به هذه السورة أنها الأكثر إيراداً لأسماء الله الحسنى في أواخر آياتها (42 مرة). تشمل هذه الأسماء العلم والحكمة (عليم حكيم) أو القدرة والرحمة والمغفرة، وكلها تشير إلى عدل الله ورحمته وحكمته في القوانين التي سنّها لتحقيق العدل.

أخي المسلم، اقرأ سورة النساء بنية تطبيق العدل في حياتك، في بيتك وأهلك

أولا (وخاصة زوجتك ووالديك)، ومع جيرانك وكل مجتمعك مهما يكن دينهم أو طبقتهم الاجتماعية.

سورة المائدة

سورة المائدة (مدنية)، ومنها ما نزل في مكة (بعد حجة الوداع).
نزلت بعد سورة الفتح، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة النساء، وعدد آياتها 120 آية.
إن سورة المائدة هي السورة الوحيدة في القرآن التي ابتدأت بـ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...].

وتكرر هذا النداء في القرآن كله 88 مرة، منها 16 مرة في سورة المائدة لوحدها.
يقول عبد الله بن مسعود: "إذا سمعت [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا] فارعها سمعك فإنه أمر خير تؤمر به أو شر تنهى عنه". ومعنى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا] أي يا من آمنتم بالله حقاً، يا من رضيتم بالله رباً، يا من أقرتم بالله معبوداً، اسمعوا وأطيعوا.

هدفها نداؤها

أما هدف السورة فهو واضح من أول نداء جاء في السورة [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ] أي أوفوا بعهودكم، لا تنقضوا الميثاق، والعقود تشمل ما عقده الإنسان، من المسؤولية عن الأرض واستخلاف الله للإنسان، إلى أمور الطاعات كالصلاة والحجاب، إلى ترك المحرمات كشرب الخمر واكل الحرام.
وكما ذكرنا فلم يتكرر نداء [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا] في أي سورة كما تكرر في سورة المائدة (16 نداء) فسورة البقرة مثلاً فيها عشرة نداءات مع أن

عدد آياتها أطول. هذه النداءات تشكل محاور السورة، فكلما يأتي نداء منها ترى

بعده محوراً جديداً للسورة فيه تفاصيل الأوامر أو النواهي. 16 أمراً والسورة تنقلنا من أمر إلى آخر، لتأمرنا بالإيفاء بالعقود.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "إنَّ سورة المائدة كانت آخر ما أنزل ما القرآن فما وجدتم فيها من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيها من حرامٍ فحرّموه".
ففي السورة نرى آخر آية أحكام في القرآن: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] (3) من التي أنزلت في حجة الوداع.

أظن أن هدف السورة بدأ يظهر. الآن وقد تم الدين، فالتزموا بالعهد مع الله وحافظوا عليه، فأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه. إنها سورة الحلال والحرام في الإسلام. لذلك جاء في الحديث "علّموا رجالكم سورة المائدة، وعلّموا نساءكم سورة النور".

محاوِر السورة

كما ذكرنا فكلما يأتي نداء [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا] تنتقل بنا السورة إلى محور جديد وأحكام جديدة تفصيلية. والملفت أن كل آيات السورة تدور في فلك هذه المحاور التي تبين أحكاماً كثيرة في الحلال والحرام:

1. الطعام والشراب والصيد والذبائح.
2. الأسرة والزواج.
3. الإيمان والكفارات.
4. العبادات.
5. الحكم والقضاء والشهادات وإقامة العدل.
6. تنظيم علاقات المسلمين والأديان الأخرى، خاصة اليهود والنصارى.

هناك تركيز في السورة على الحلال والحرام في الطعام والشراب والصيد والذبائح. وهذا يتناسب تماماً مع اسم السورة "المائدة"، فالطعام من أهم ضروريات الحياة ومع ذلك فيجب مراعاة الحلال والحرام فيه، فما بالك بغيره من شؤون

الحياة؟ أيضاً خلال هذا الكم الهائل من أحكام الحلال والحرام في السورة يأتي التأكيد دائماً على أن التشريع ملك الله وحده، من أول آية [إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ] إلى أن تأتي ثلاث آيات تحذّر من الحكم بغير ما أنزل الله، كقوله تعالى [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ].

تدرّج وترابط سور القرآن

وتنبّه إلى علاقة سور القرآن السابقة مع سورة المائدة، فبعد أن أبلغت سورة البقرة مسؤولية الإنسان عن الأرض، جاءت سورة آل عمران لتبحث المرء على الثبات، ثمّ سورة النساء لتبلغنا أنه حتى نثبت لا بد من أن نحقق العدل والرحمة مع الضعفاء خاصة مع النساء، ثمّ تأتي بعد ذلك سورة المائدة لتأمّرنّا بالإيفاء بكل ما سبق...

سورة المائدة تأمرنا إذاً بالعدل مع الزوجة والضعفاء وكل الناس وتأمّرنّا بالثبات والوفاء مع المنهج الذي أراده الله لنا وبيّنه في سورة البقرة...

لذلك جاءت فيها الآية (3) التي أعلنت ختام المنهج وإتمامه.

ولاحظ أيضاً تدرّج سور القرآن الكريم في خطاب أهل الكتاب:

سورة البقرة: بيان لأخطاء أهل الكتاب فقط مع الدعوة إلى التميّز عنهم.

سورة آل عمران: مناقشة هادئة مع عقائدهم وإيجاد نقاط مشتركة.

سورة النساء: انتقاد غلو أهل الكتاب واختلافهم في عيسى عليه السلام.

سورة المائدة: مواجهة شديدة [لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ...]

(73).

مما يعلمنا أن الإسلام منهج متدرّج في خطابه مع الأديان الأخرى.

النداء الأول (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ] (1).

فما علاقة الوفاء بتحليل الله تعالى لنا بهيمة الأنعام للذبح والطعام؟ إن أول ما ذكر بعد طلب الوفاء هو ما قد أحل، فلم يبدأ ربنا بما قد حُرِّم لئلا يكون منفراً فكلمة [أَوْفُوا بِالْعُقُودِ] توحى بأن الخطاب بعدها شديد اللهجة، فتأتي مباشرة كلمة [أُحِلَّتْ لَكُمْ] وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمة، وهذه طريقة ينبغي على الدعاة اتباعها لكسب القلوب، فالداعية لا يجدر به أن يبدأ مع من يدعوهم بما قد حُرِّم عليهم، لأن الأصل في الأشياء الإباحة فيبدأ بما أبيض أولاً، ثم ينبههم إلى المحرمات بعد ذلك.

وإلى جانب الرحمة واللطف في الخطاب، هناك معنى لطيف في النداء الأول: أوفوا بالعقود حتى لا تضيق عليكم دائرة الحلال، كما كان الحال مع اليهود. والملفت أن هذا المعنى أشارت إليه السور المحيطة بسورة المائدة (النساء والأنعام).

فنرى في سورة النساء قوله تعالى [فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ] (160).

وفي سورة الأنعام [وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ...] (146). لماذا كان هذا التحريم؟ [... ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ] (146). فهم لم يوفوا بعهدهم مع الله فضيقت عليهم بعض الحلال عقاباً لهم، فحذار أيها المسلمون من أن يصيبكم ما أصابهم.

النداء الثاني (لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ...] (2).

يا مؤمنين، لا تغيروا معالم دين الله تعالى من أوامر ونواهي.

[... وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَلُّوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبُرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا

تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... [(2).

فالآية الأولى: أقرت ضروريات الحياة (الطعام)، ثم الآية الثانية: بدأت بتقرير مبادئ إنسانية عظيمة:

- العدل (تأكيداً على هدف سورة النساء بإقرار العدل) [وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ...
أَنْ تَعْتَدُوا].

- التعاون (تأكيداً على إحدى رسائل سورة آل عمران (الوحدة وعدم الاختلاف) [وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ].

وهذه الآية تشمل آلاف الصور من العلاقات الاجتماعية التي تندرج تحت البر والتقوى والتعاون.

- التقوى [وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ].

(لتذكرنا بأن هذا الكتاب [هُدًى لِلْمُتَّقِينَ] كما جاء في أول سورة البقرة).

وبعد ذلك في الآية الثالثة: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ...].

فأول عقد ينبغي الوفاء به هو طيبات الطعام فلا يجوز أن يأكل المرء أكلاً فيه خبث...

وبعدها في الآية الخامسة: [الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ].

وهنا قد أرشدت الآية إلى حلالين: الطيبات من الطعام والطيبات من النساء سواء كنّ مؤمنات أم من أهل الكتاب بشرط أن يكنّ محصنات وذوات خلق متين. وفي هذا لفتة رائعة إلى تسامح الإسلام مع أهل الكتاب، في نفس السورة ذات اللهجة الشديدة في الخطاب معهم ونقض عقائدهم. فالله تعالى أحل لنا النساء العفيفات سواء كنّ مسلمات أو من أهل الكتاب.

وفي نفس الآية يأتي قوله تعالى: **[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا]**. هذه الآية محورية كونها ختام الأحكام في القرآن وعلاقتها مع موضوع السورة أنه لا وجود للعهد إلا بعد الإتمام. فيما أن الدين اكتمل، عاهد الله تعالى أيها المؤمن على الإيفاء بعهده والالتزام بشرعه. يا ترى هل أحسنا يوماً بهذه النعمة، نعمة إتمام الدين وشكرنا الله تعالى عليها؟

جاء رجل من اليهود إلى سيدنا عمر بن الخطاب فقال: "يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آية في كتابكم لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً". فقال عمر: "وأى آية؟" فقرأ اليهودي هذه الآية، فقال عمر: "قد علمت اليوم الذي أنزلت والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله تعالى لنا عيد".

وهنا ملاحظة لطيفة أخرى:

إن أكثر آيات السورة اختتمت بشدة وخاصة آيات المقدمة **[إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ]** **[إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ]**.

إلا الآية الثالثة التي ذكرت حكم الاضطرار **[فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ...]** فقد اختتمت بسعة رحمة الله تعالى **[فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]**.

النداء الثالث (طيبات الروح)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...] (6).

قد يتساءل البعض عن سبب ورود هذه الآية في وسط الكلام عن العقود والوفاء بها. فالواقع أن الآيات بدأت بطيبات الطعام ثم طيبات الزواج وكلها ملذات الدنيا وبعدها انتقلت الآيات إلى طيبات الروح وطهارة الروح التي تبدأ بالوضوء، وبهذا تكون السورة قد اشتملت على جميع اللذات: لذة العبادة بالإضافة للذائد الطعام والزواج.

ويمكننا أن نستشعر خلال هذه الآيات شمولية الإسلام في الأحكام، فأحكام المعاملات قد أتت في السورة جنباً إلى جنب مع أحكام العبادات. ملاحظة جميلة في سورة المائدة: كل 10 آيات تقريباً تأتي آية لتذكرنا بعهد الله وميثاقه. لقد ذكر العهد والميثاق في السورة 11 مرة في آيات صريحة وواضحة كأنها تقول للمسلمين "الآن وقد تمّ المنهج ووضح الميثاق، فهل ستلتزمون به؟" فتأتي الآية السابعة لتقول [وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَّكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا...] وهنا علاقة رائعة مع سورة البقرة التي مدحت المؤمنين في ختامها [وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (البقرة 285) بينما بنو إسرائيل كان قولهم [سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا] (البقرة 93) أرأيت كيف تترابط سور القرآن الكريم وتتكامل في مواضعها وأهدافها.

النداء الرابع (العدل)

ويستمر تتابع الآيات بعد ذلك إلى أن نصل إلى النداء الرابع [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] (8).

فبعد أن تناولت الآيات إيفاء العقود في الطعام والشراب والزواج والوضوء، انتقلت إلى عقد مهم جداً (العدل) ولو مع الناس الذين نبغضهم، ولو مع الناس الذين نحاربهم. إن هذه الآية قاعدة هامة من قواعد تسامح الإسلام وعدله مع الفئات الأخرى.

النداء الخامس (أذكروا نعمة الله)

الآية (11) تذكرنا أن الله تعالى قد حفظ المؤمنين من غدر أعدائهم، فاتقوا الله يا مؤمنين وأوفوا بعهدده: [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ].

فالله تعالى يفى بعهوده معنا سبحانه، ومن هذه الوعود الربانية الرائعة ما ذكر في الآية التاسعة: [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ] (9).

فهل سنفي بعهودنا أمام الله تعالى؟

بنو إسرائيل وعهودهم

وبعد ذلك تذكر لنا السورة في ربع كامل نماذج من فئات لم تف بعهود الله تعالى وميثاقه، ولم تنفذ [سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا] كما أمرها الله تعالى وهم بنو إسرائيل، [وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ] (12).

فماذا كانت النتيجة؟ [فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً] (13) إنها آية شديدة في التحذير من أن نكون مثلهم فيحل علينا غضب الله ولعنته.

قصة موسى عليه السلام مع قومه

وتنتقل بنا الآيات إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل حين طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة (أرض فلسطين) التي كتبها الله تعالى لهم ووعدهم فيها [يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ] & قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا... [(21 - 22).

رفضوا ونقضوا عهد الله تعالى، فكان العقاب الرباني [قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ] (26) حرّم الله عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة.

وقد أشرنا أن السورة بدأت بقوله تعالى بـ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ...].

للحثّ على إيفاء العقود حتى لا يضيق الله دائرة الحلال على الأمة، وهنا في القصة نرى أن الله تعالى ضيق على بني إسرائيل لنقضهم عهودهم. فالقاعدة العامة في السورة "إذا أوفى المرء بالعهد فإن الله تعالى يوسع عليه وإن نقضها فإنه تعالى يضيق عليه".

قصة ابني آدم عليه السلام

[وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ...] (27).

فابن آدم قتل أخاه متهوراً بسبب الغضب والحسد والغل، وأما علاقة قصة ابني آدم عليه السلام بقصة بني إسرائيل ودخولهم الأرض المقدسة هو أنهما نموذجان لنقض العهود: بنو إسرائيل نقضوا عهد الله تعالى لجنبتهم، وأما ابن آدم فلقد نقض العهد لتهوُّره، فهما نموذجان معاكسان لبعضهما، وكلاهما يؤدي لنقض العهد مع الله تعالى. والإسلام يأمرنا دائماً بالوسطية في كل شؤون الحياة.

ثم تأتي الآية (32) بعد القصة مباشرة للتعقيب عليها [مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا] (32) لما صوّر لنا القرآن الكريم بشاعة جريمة القتل في قصة آدم عليه السلام، أتت الآيات التي بعدها بأحكام شديدة للقضاء على الفساد، فبيّنت حدود الحرية والسرقة والإفساد في الأرض.

والجددير بالذكر أن العالم لم يعرف إلا في عصرنا هذا موضوع الحق العام في الفقه القانوني، بينما نجد القرآن قد سبق هذه القوانين بـ 1400 عام، فالله تعالى بيّن بشكل واضح [أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا] (32) فالجريمة ليست اعتداء على فرد، وإنما هي خطر على المجتمع، وهناك حق عام لا بد أن يؤخذ.

النداء السادس (الجهاد في سبيل الله تعالى)

يقول الله تعالى [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ].

بعد أن عرضت الآيات السابقة خطر الفساد، أتت الآية (35) لتأمر المؤمنين بالجهاد ومحاربة الفساد.

لاحظ أنه في كل مرة يأتي الأمر بالجهاد في القرآن يذكر سببه (كما في سورة النساء حين ذكر الجهاد لنصرة المستضعفين):

[وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ... (النساء 75)].

النداء 7، 8، 9: (لا للتقليد الأعمى)

وتصل بنا السورة إلى ربع جديد، وثلاثة نداءات تهدف إلى أن يكون لهذه الأمة هويتها المميزة.

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا إِلَيْهِودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (51).

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ] (54).

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ... (57)].

إن هذه الآيات لا تهدف إلى تحقير وتسفيه الأديان الأخرى، إنما تهدف للحفاظ على هوية المسلم. فهي دعوة إلى تحقيق الإنتماء الكامل إلى الإسلام. فسورة المائدة لا تمنع من التعامل مع أهل الكتاب بدليل ما سبق من الآيات كالأية (5) [... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ] التي أبحاث الزواج من المحصنات من أهل الكتاب.

فالتسامح والرحمة مع أهل الكتاب أمر مطلوب، لكنه لا ينبغي أن يؤدي إلى

ضياع هوية المسلم وانتمائه. وهناك فرق بين الاحترام والتعاون الإيجابي والرحمة والتسامح وبين الذوبان في الآخر وضياع الهوية. لذلك نرى أن النداءات 7 و 9 ركزت على عدم موالاتة الكفار ومحبتهم بينما النداء 8 حذر من الارتداد عن الدين لأنه من أخطر نتائج ضياع الهوية.

والملاحظ أن الآيات في الربع السابق ركزت على التحذير من الحكم بغير ما أنزل الله:

[وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] (44).

[وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (45).

[وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (47).

[أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] (50).

وعلاقة هذه الآيات بالنداءات الثلاثة التي بين أيدينا هي أن السبب الأساسي للحكم بغير ما أنزل الله هو التقليد الأعمى للغير.

فيا أيها الشباب أوفوا بالعقود في ترك التقليد الأعمى وأوفوا بالعقود بالإنتماء الكامل لدينكم والاحتكام إلى أوامره ونواهيه.

رقة الحب

ومن لطائف القرآن في النداء الثامن:

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...] (54).

إن القرآن استعمل الرقة والحب في التحذير من أخطر ما يمكن أن يقع به المرء وهو الارتداد عن دين الله تعالى.

فالآية لم تقل "من يرتد منكم عن دينه فسوف نعدّبه وندخله النار". إن التهديد في هذه الآية كان بالحب لا بالنار. وهذا النداء الرقيق له تأثير مميز

في النفوس بعد الكلام الشديد والأوامر الشديدة التي زحرت بها السورة.

النداء العاشر (لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ] (87).

هنا يأتي النداء أن لا يحرم المؤمنون ما أحلّ الله لهم من الطيبات، فالتحريم والتحليل حق الله وحده، والله عندما حرم، لم يحرم علينا إلا الخبائث الضارة، وأحلّ لنا الطيبات المفيدة بالمقابل، فجاءت الآية التي تليها [وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي آتَىٰكُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ] (88) لتؤكد على هذا المعنى. والرباط بين هذا النداء والنداء الثاني [لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ] هو أن تحريم الحلال معصية لله تعالى وتغيير لشرعه تماماً كتحليل الحرام.

وهكذا نرى أن معالم الحلال والحرام في الإسلام تتضح شيئاً فشيئاً، وكل آية تضيف مفهوماً جديداً لتكامل الأحكام عند المسلمين قبل ختام نزول الآيات.

النداء الحادي عشر (محرمات الشراب)

بعدما تحدثت الآيات عن الطيبات تنتقل إلى الحديث عن الخبائث (بنفس الترتيب الذي بدأت فيه السورة في الآيات (1 - 2)).

[يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (90).

فالسورة بدأت بمحرمات الطعام فلا بد أن تذكر محرمات الشراب (فاسمها سورة المائدة) لتحذّر المسلم من الانغماس في ملذات الحياة المحرّمة وليفي بعهده فلا يدخل فمه قطرة خمر لتوقع العداوة والبغضاء في صفوف الأمة.

لاحظ أن الآية تعاملت مع قضية الخمر بشدة فقرنت بينه وبين الأنصاب والأزلام وهي من مخلفات الشرك بالله وذلك للتشنيع من هذه العادة المهلكة للأمم.

والملاحظة الثانية أن القرآن استعمل كلمة (اجتنبوه) والتي هي أقصى درجات النهي والتحريم.

النداء الثاني عشر - الثالث عشر (احذروا الابتلاء في الحلال والحرام)

يقول الله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ] (94) هذه الآية تحذر من البلاء (أي الامتحان) الذي قد يقع فيه المسلم ليختبر الله تعالى إيمانه وتطبيقه للحلال والحرام.

وقد نزلت عندما كان الصحابة محرمين واختبرهم الله تعالى بالأل يصطادوا مهما كانت الطرائد منتشرة من حولهم. لذلك أتت الآية التي بعدها [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ] (95) لتؤكد على نفس المعنى. وهناك علاقة واضحة بين أول السورة وآخرها حيث نرى التركيز على أحكام الصيد.

النداء الرابع عشر (لا تضيقوا على أنفسكم)

وتستمر النداءات إلى أن نصل إلى قوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ] (101).

هذه الآية ضابط من الضوابط التي وضعها الله تعالى في قضايا الحلال والحرام، يخطئ الكثير من الناس في فهمه، وهو عدم السؤال في المباحات إلى درجة تصل إلى حد التضيق على الإنسان، مما قد يؤدي إلى ترك الأمور التي ضيق بها السائل على نفسه فيقع بما قد حرم عليه.

فهذه الآية تدعو إلى التوازن فإذا كان الله تعالى قد أمرنا بالوفاء بالعقود لكن ذلك لا ينبغي أن يوصلنا للتضيق على أنفسنا.

وفي هذه الآيات ترابط عجيب مع سورة البقرة وقصة بقرة بني إسرائيل.
فلاية (102) تقول: [قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ].

في إشارة إلى كثرة سؤال الأمم السابقة لأنبيائهم فيضيق الحكم عليهم فلا يطيعون.

فهم في قصة البقرة [فَدَبَّحُوهاَ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] لأنهم أكثروا من السؤال عن طبيعة البقرة ولو أنها فيما لم يطلب منهم، فضايق الحكم الواسع المطلق عليهم. ولنا في رسول الله وأصحابه الأسوة الحسنة في هذا المعنى:

قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: "إن الله قد فرض عليكم الحج" فقال أحد الصحابة: "أفي كل عام يا رسول الله".

فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: "لو قلت نعم لَوَجِبَتْ".

ففي سورة المائدة إذاً توازن بين التزام الأوامر والنواهي والوفاء بعهد الله وبين عدم التشديد على النفس فيما لم يأمر به الله تعالى.

النداء الخامس عشر (لا تكن إمعة)

وتتوالى الآيات، وتصل بنا إلى النداء 15 والذي هو ضابط آخر من ضوابط الحلال والحرام:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...]

(105).

قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطيباً في الناس فقال: "إنكم تضعون هذه الآية في غير موضعها".

لأن الناس قد ظنوا أن معنى قوله تعالى [... عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ] أي لا تأخذوا بأيدي أحد للهداية، فمن أراد الضلال فليضل، فأدى فهمهم الخاطيء إلى ترك الدعوة إلى الله تعالى.

لكن معنى الآية: لو كل الناس من حولك غيَّرت الحلال والحرام وتركت الوفاء بالعقود، فعليكم أنفسكم يا مؤمنين، فأثبتوا على الحق ولا تغيروا أحكام الدين، وهذا مصداق لحديث النبي ﷺ "لا يكن أحدكم إمعة إن أحسن الناس أحسنت

وإن أساء الناس أسأت، ولكن إن أحسن الناس فأحسنوا وإن أسأؤوا فلا تظلموا".
 إذاً فالسورة ركزت في الندائين 14 و 15 على ضابطين للأوامر والنواهي:

- لا تضيّق على نفسك

- لا تتأثر بالناس من حولك.

النداء السادس عشر (الحلال والحرام في الشهادات والوصية)

تأتي الآية [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ] (106) لتكمل سلسلة الأحكام في السورة، ولتثبت شمولية الإسلام لكل شؤون الحياة، من أمور الطعام والشراب، إلى الزوجات والعلاقات الأسرية إلى أحكام الحدود والعلاقات الدولية إلى المعاملات والشهادات والوصية.

تأمل معي - مرة أخرى - آية تمام الدين وشموله لكل جوانب الحياة:

[أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] (3).

واحمد الله تعالى على النعمة التي أتمها عليك في هذا الدين وأحكام شريعته الغراء.

مقاصد الشريعة في السورة

ولأن سورة المائدة هي سورة الحلال والحرام في الإسلام، فهي السورة الوحيدة التي جمعت مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة:

1. حفظ الدين

2. حفظ النفس

3. حفظ العقل

4. حفظ العرض

5. حفظ المال

فهذه السورة التي احتوت قوله تعالى [أَفْحَكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] تريد أن ترشدنا إلى أن شرع الله تعالى هو أحسن شرع لضمان مصلحة البشرية في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال:

1. حفظ الدين: [يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ] (54) فأول ما تهتم به الشريعة هو حفظ الدين وترك الكفر.

2. حفظ النفس: [مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا] (32) وفيها تحريم قتل النفس.

3. حفظ العقل: [إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ...] (90) والغاية من تحريم الخمر هي حفظ العقل.

4. حفظ العرض: [مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ] (5) (في تحريم العلاقة بين الجنسين قبل الزواج).

5. حفظ المال: [وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا] (38).

فمقاصد الشريعة الخمسة قد ذكرت في سورة المائدة لتثبت لنا أن الأوامر والنواهي المطلوب إيفائها إنما هي لضمان مصلحة الناس ضمن المحاور الخمسة المذكورة.

مراجعة العقود يوم القيامة

متى تراجع العقود؟ يوم القيامة. ولذلك كان الختام الرائع للسورة.

[يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ] (109).

لاحظ ترابط آيات السورة، ففي البداية (أوفوا بالعقود) وفي وسط السورة

[يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ] (من أحكام الحلال والحرام) لتختتم السورة بـ [يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ].

وفي ختام السورة تأتي قصة سيدنا عيسى عليه السلام وتبرؤه من الذين ضلوا عن سبيله من النصارى. وهذا يفيد في التبرؤ من التقليد الأعمى للآخرين، فكيف ستتبعوهم يا مسلمين وسيدنا عيسى عليه السلام نفسه سيتبرأ منهم يوم القيامة.

ولأهمية ذكر يوم القيامة في حث الناس على الإيفاء بعهودهم تأتي هنا آية رائعة: [قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...]. (119).

والصادقون هم الذين يوفون بعهودهم مع الله ومع الناس.

لماذا سميت سورة المائدة بهذا الاسم

وأخيراً بقي أن نشير إلى سبب تسمية السورة بسورة المائدة وهل هذا بسبب ذكر قصة المائدة، فالسورة تتحدث عن الوفاء بالعهود، فما الذي يربط بينها وبين المائدة:

[إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ & قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ & قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلَانَا وَعَآخِرِنَا وَعَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ & قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَأُعَذِّبَهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ] (112 - 115).

فالآية الأخيرة هي آية محورية [قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ...]. (أي فمن ينقض العهد بعد إنزال المائدة)، فارتبطت قصة المائدة بقصة قوم طلبوا آية من الله تعالى فأعطاهم رهم ما طلبوا وأخذ عليهم عهداً شديداً، إن نقضوه فسوف يعذبون عذاباً شديداً.

أما بالنسبة لأمتنا، فقد أعطاها الله تعالى في هذه السورة الآية المحورية [الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] هذه
الآية منحة ربانية مشابحة للآية التي أعطاها الحواريون (المائدة)، وهم قد وفوا
بعهدهم فهل سيفي المسلمون بعهدهم؟

من فضلك وأنت تقرأ سورة المائدة، استشعر عظم النعمة التي أتمها
ربنا علينا بإتمام الدين، وجاهد نفسك للإيفاء بعهد الله تعالى في كل أمور حياتك.

سورة الأنعام

سورة الأنعام (مكية) وهي أول سورة مكية في ترتيب المصحف (سور البقرة إلى المائة كلها سور مدنية)، نزلت بعد سورة الحجر وعدد آياتها 165 آية.

ليل أبيض

رافق نزول هذه السورة ميزات عديدة. فهي أولاً نزلت على قلب النبي ﷺ جملة واحدة (في ليلة واحدة)، بينما نلاحظ أن كل السور الطوال في المصحف كانت تنزل آياتها متفرقة. ولعل من أجمل ما يميّز هذه السورة أنها نزلت يحفها سبعون ألف ملك لهم زجل - أي صوت رفيع عالي - من التسبيح يسد الخافقين، وكل هذا في وقت الليل.. فما أروع هذا الموكب الملائكي المهيب في جنح الليل وهو يرافق نزول هذه السورة الكريمة، مما يعطي ظلالاً رقيقة تجعلنا نترقب مضمون السورة وهدفها.

هدف السورة

تبدأ السورة بقوله تعالى: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ]، فتشعر أخي المسلم من بداية السورة بهدفها ومحورها الأساسي، ألا وهو توحيد الله عز وجل وعدم الشرك به أبداً، وأن لا يكون في قلبك غير الله تبارك وتعالى. وتتكرر مسألة توحيد الله تعالى وعدم الشرك به 49 مرة في السورة، في 49 آية أي حوالي (30%) من مجموع السورة. ولهذا نعلم سبب نزولها بهذه الهيبة ولماذا كان يحفها سبعون ألف ملك كما ويمكننا أن نستشعر الحكمة من نزولها ليلاً، فإنَّ جوَّ الليل يناسب هذه الروحانيات.

المخاطبون في السورة

في خضم الأفكار والمذاهب ومناهج الحياة المختلفة - سواء أكانت هذه الأفكار عبادة للأصنام أو لقوى الطبيعة كما في عصر النبي، أو إلحاداً وإنكاراً لوجود الله كما في عصرنا الحديث - تأتي سورة الأنعام لترد على كل هؤلاء من خلال الحديث عن قدرة الله وعظمته في الكون. ولهذا فإن السورة تخاطبك أيها المؤمن أولاً، لتزيد من إيمانك بالله وحبك له وإخلاصك في عبادته. وإلى جانب ذلك فهي تعطيك مادة للرد على الماديين ومنكري وجود الله: من خلال الحديث عن قدرة الله في الكون، ثم نقض زعم الملحدين بأن الطبيعة هي التي خلقت الكون، أو أن الكون خلق صدفة، فالإتقان والإبداع في الكون هما أكبر دليلين على عظمة الخالق جل وعلا وتوحيده.

وتخاطب هذه السورة فريقاً ثالثاً، وهم الناس الذين يؤمنون بالله لكنهم لا يريدون أن يطبقوا هذا الإيمان في سلوكهم. فتوضح لهم - كما سيتبين معنا في آخر السورة وفي سبب تسميتها - أن الإيمان لا يتجزأ، وأنه يجب أن يطبق على الاعتقاد القلبي وعلى السلوك معاً. وهنا نفهم أهمية نزولها دفعة واحدة، وذلك للتأكيد على أن التوحيد متكامل جملة واحدة في الاعتقاد والتطبيق.

ترابط سور القرآن

وقبل أن نبدأ باستعراض آيات السورة، لا بد أن نلاحظ تسلسل سور القرآن في الحوار مع غير المسلمين: فسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة خاطبت أهل الكتاب في محاور مختلفة، بينما سورة الأنعام اختصت بخطاب المشركين (وخاصة مشركي مكة، لذلك كانت السورة مكية).

وهناك ملاحظة لطيفة أخرى في العلاقة بين السورة والسورة التي قبلها. فسورة المائدة ختمت بقوله تعالى: [لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ] كأنها تمهد لبداية سورة الأنعام [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ].

كلمتان تغمران القلب حباً (قل وهو).

إنَّ لسورة الأنعام ترتيباً معيناً تسيير وفقه من أول السورة إلى آخرها، وهو أن ترد أربع أو خمس آيات تتحدث عن قدرة الله تعالى في الكون ثم تليها بعد ذلك آيات أخرى تواجهه الماديين ومن ينكر وجود الله ومن يزعم أنَّ الطبيعة هي التي خلقت الكون... وهكذا تسيير الآيات من أول السورة إلى آخرها على هذا المنوال. وأكثر آيات السورة تبدأ بإحدى الكلمتين: (قل أو هو). فما سبب تكرارهما؟! وما علاقتهما بمحور السورة؟

إنَّك عندما تقرأ كل آية تبدأ بكلمة [هو]، تجد أنها تتحدث عن قدرة الله، كقوله تعالى [وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ] [وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ] [وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ] [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]. وأما آيات مواجهة الكفار - والتي تخاطب النبي (كما تخاطب كل مؤمن) وترشده إلى كيفية مقارعتهم بالحجة - فتبدأ بكلمة [قل]: [قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ] (19).

[قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ & قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمَنْ كُلَّ كَرْبٍ & قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِّن تَحْتِ أَرْضِكُمْ] (63-65) [قُلْ أُنَدُّعُوا مِّن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا] (71). فكان الآيات تخاطب القارئ قائله: استشعر في نفسك من هو القادر حتى تملأ قلبك من حبه، ثم انطلق في مواجهة من يشكك في إيمانك بوحدايته وعظمته.

بعد أن شوَّقتنا هذه المقدمات، تعال معي أخي المسلم لنعيش مع آيات القدرة والمواجهة في السورة.

بداية السورة موجة آيات القدرة.

تبدأ السورة بثلاث آيات تظهر قدرة الله تعالى: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ & هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ] وبعدها قوله تعالى: [وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا

تَكْسِبُونَ]. وقوله تعالى: [فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ] (5).

فهذه الآيات تدعو مَنْ يقرأها إلى أن يستشعر قدرة الله تعالى.. فإذا وجد إدباراً من الكفار المنكرين، استشعر عظم جرمهم ومدى جرأتهم وضلالهم، وواجههم بآياتها.

الزمان.. والمكان

وتلاحظ في الآيات معنىً لطيفاً.. فالآية (12) تقول: [قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ]، والآية (13) تقول: [وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]. الأولى تذكر أنه ملك المكان [السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ] والثانية تذكر أنه ملك [اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ] أي الزمان، فسبحان من خلق الزمان والمكان وأخضعهما لملكه.

ما العلامة..؟!

فإذا عرفت أن الله ملك الزمان والمكان.. فاقراً بعد ذلك آية المواجهة الرائعة: [قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (14) [قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (15) [مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ] (16). فالآيات تريد منك أخي المسلم أن تتحرر من كل مظاهر العبودية لغير الله، أو الخوف من مخلوق، فتلك علامة المعرفة وثمرة التصديق. لاحظ في كل ما سبق أن كلمة (قل) تأتي دائماً بعد كلمة (هو)، وكأنّ المعنى: استشعر من (هو) الله واملاً قلبك بحبه، ثم تحرك و(قل) من هو الله وادع إليه وواجه كل من يشرك به.

حادثة عملية في المواجهة

ثم تأتي جماعة من الكفار ليقولوا للنبي ﷺ: هل معك دليل على رسالتك؟ من

يشهد لك أنك نبي؟ ومن يشهد أنّ إلهك واحد؟ فلقد سألنا اليهود عنك ليشهدوا لك فقالوا لا يوجد عندنا دليل.. فترد عليهم إحدى آيات المواجهة (الآية 19):

[قُلْ أَمَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ] فهل في الكون كله أعظم من شهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه ولنبيه.

ومع أن السورة توجهت بالخطاب أساساً للمشركين - كما أسلفنا - لكنها تلمح في الآية (20) إلى اليهود الذين أنكروا وجود الدليل على نبوة محمد ﷺ:

[الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...].

مشاهد حية من يوم القيامة

وأحياناً تشعرك الآيات أنك تشاهد مناظرها وتسمع أهلها..

فها هم يقفون أمام جهنم **[وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِبَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]** (27). ثم تنقلك الآيات إلى وقفة جليلة مهيبة، لطالما كذب بها الكفار وأنكروها، وقفة أمام جبار السماوات والأرض **[وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ]** (30). وانظر إلى هؤلاء المثقلين المتعبين من الفساق والفجار بأحمالهم الثقيلة.. أنظر إليهم **[وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ]** (31).

الصبر والتثبيت عند المواجهة

ولا تكتفي الآيات بمد النبي ﷺ (وبالتالي كل الدعوة إلى الله) بالحجج والردود اللازمة لمواجهة الكفار فحسب، بل أها تثبته وتعينه على الصبر على ما يلقاه من التكذيب: **[وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]** (10)، وتقول أيضاً: **[وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا]**

عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّىٰ أَتَهُمُ نَصْرُنَا... [(34).

ولكن قمة التشييت تأتي في قوله تعالى: [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِمَا يَتَّبِعُونَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ] (33). يا محمد، إن هؤلاء لا يكذبون شخصك، إنهم يكذبون الله وآياته، فهو وليك وناصرك من دونهم.

كلمات كالموج الهادر

وتمضي الآيات على نفس السياق: آية قدرة فأية مواجهة. فتأتي آية رائعة في بيان قدرة الله تعالى:

[وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ] (38).

فإذا جحد هؤلاء الظالمون بكتاب الله، تبدأ الآيات في الشدة بمواجهتهم.

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (40).

وتحذروهم من التمادي في المعاصي حتى لا تطبق عليهم السنة الكونية في البشر [حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ] (44).

وتأتي موجة جديدة من آيات المواجهة التي تبدأ بكلمة [قل]:

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ & قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ] (46-47).

إن سياق الآيات والكلمات يرقق المشاعر ويجعل القلب يحشع ويرغب في القرب من الله.

أسلوب جديد في المواجهة

ولأن الآيات تجهّز النبي ﷺ ليواجه قومه بالدعوة، فإنها تستخدم أسلوباً جديداً في الآية (57) ففي قوله تعالى: [قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ...] تأكيد على الثوابت العقائدية، وثقة بالنفس تهمز الطرف الآخر. وهي طريقة دعوية مفيدة نتعلمها من آيات السورة.

شمول العلم والقدرة

وتبدأ الآيات في موجة جديدة من عرضها لقدرة الخالق، في سياق يهز القلب ويحرك أوتاره: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ] (59) وكأنك ترى الورقة وهي تسقط في الصحراء أو على جبل أو في قاع بحر..

ومن الذي يتوفى الأنفس؟ إنه الله [وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ] (60) فكيف تشركون به؟

ومن الذي شمل الخلق علماً وعدداً؟ إنه الله [وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً] (61) أي ملائكة تحفظكم من الآفات وتكتب أعمالكم من الحسنات والسيئات.

ومن الذي ينجي العباد من مهالك البر والبحر؟ إنه الله [قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] (63). فكيف تشركون به؟

فإن شكك أحد في ذلك فإن الآية ترد عليه بقوة: [قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ] (65) فمن الذي يخرج عن قدرته أو يغيب عن شمول علمه سبحانه وتعالى؟!..!

فما هو شعور المؤمن الذي يقرأ سورة الأنعام؟ إنه يشعر أن مشاعره تهتز وهي تنزل على النبي ليلاً في موكب من الملائكة.. يشعر بصوت الملائكة وهم يسبحون الله لعظمة هذه السورة.. فهذه السورة تزلزل النظرة الإنسانية وتطوف بالإنسان لتأخذه إلى ملكوت السموات والأرض والنهار والليل والبر والبحر والشمس والقمر

والنجوم.. تريك الجنات المعروشات.. إنها تطلعك على ملك الله عز وجل.. حتى تصل إلى آية أخرى من آيات القدرة [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ] (73).

رحلة مؤمنة: سيدنا إبراهيم وقومه

وتبدأ السورة بعد ذلك في عرض قصة إبراهيم ونظره في مظاهر قدرة الله في الكون.. ليسير نسق الآيات بين القدرة والمواجهة. إن هذه القصة ليست منفصلة عن ترتيب السورة بل إنها وظفت لتخدم الهدف تماماً.

يقول تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ & فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ] (75-76). إنه ترتيب السورة نفسه، فإنه عليه السلام ينظر في قدرة الله تعالى: [فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ] (78). نعم لأن الإله لا شك أنه أعظم من هذا كله ولذلك قال: [إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (79). وبعد استخدامه لأسلوب عرض آيات القدرة تبدأ المواجهة [قَالَ أَتَحَايُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي...] (80) مع تركيزه على نفي الشرك وتوحيد الله [وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا] (80).

لذلك أثنى الله على هذا الأسلوب الدعوي بقوله تعالى: [وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ...] (83).

ومن جمال القرآن أنك ترى قصص الأنبياء تتكرر في القرآن الكريم، لكنها في كل مرة تخدم هدف السورة التي تذكر فيها، بإعجاز يعجز البشر عن الإتيان بمثله. فسورة الأنعام مثلاً أوردت جانباً من قصة سيدنا إبراهيم والذي يتعلق بنظره في آيات الله واستخدامه أسلوب القدرة والمواجهة في الدعوة إلى الله فلم ترد قصة

إبراهيم عليه السلام حين رماه قومه في النار مثلاً، لكنها وظفت لتخدم هدف السورة وسياقها.

التحذير الشديد من الشرك

وفي التعقيب على قصة إبراهيم تأتي آية محورية في التحذير من الشرك:

[الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ]

(82).

لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله، قالوا: وأيتنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله: ليس كما تظنون، إنما هي كما قال العبد الصالح لابنه (أي سيدنا لقمان): إن الشرك لظلم عظيم.

وحتى في الحديث عن أحب الخلق إلى الله، وهم الأنبياء، تقول الآيات بوضوح [وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (88).

قدرة ومواجهة في نفس الآية

نصل إلى الآية (91) والتي اشتملت في أولها على آية من أروع آيات القدرة: [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ...] (100).

وقف النبي ﷺ يوماً في أصحابه وتلا هذه الآية، ثم قال: يمجّد الله نفسه، يقول: أنا الملك، أنا القدوس... وأخذ بترديد أسماء الله الحسنى، فنظر الصحابة إلى المنبر، وكان يرجف برسول الله من وقع عظمة الله تعالى. إن الجماد والخشب قد اهتزوا لجلال الله تعالى، بينما هناك قلوب لم تتحرك من خشيته أو لجلاله، فتواجه الآية في نصفها الثاني هؤلاء: [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ... قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ] (91).

عودة إلى آيات القدرة: ألا تشعر بحبه؟

وتبدأ مع الآيات (95 - 103) موجة رائعة من إظهار قدرة الله في جمال

الخلق وإبداعه: [إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ] (95) [فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ] (96) يظهر الله تعالى هنا قدرته في مثالين مختلفين: مرة في أنه فالق الحب والنوى على صغرهما ومرة أخرى أنه فالق الإصباح ومظهره من ظلمة الليل على اتساعه.

إن السورة تهمز الفطرة الإنسانية التي تعرف ربما جيداً وتدين له بالوحدانية، لكن ركاب الشرك قد يغطي هذه الفطرة في بعض الأحيان، فتأتي السورة لهز هذه الفطرة وكسر مظاهر الشرك عنها لتعود إلى الله وتوحيده. لذلك فإنها تخاطب المشركين بقولها: [بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (101) هل هناك من يجادل في هذا..؟ فمن الذي خلق وأبدع؟! إنه رب القدرة وحده لا شريك له: [أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ & ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ & لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] (101-103).

كل ذلك لتأتي الآية المحورية رقم 104 [قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ]. لقد اتضحت مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته وقوته في الكون [فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا] (104) فمن آمن وصدق فهو المستفيد ومن كفر فهذا هو العمى الحقيقي: عمى القلب والذي هو أخطر من عمى البصر.

[أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ] (104)

ولتصوير الفرق بين الإيمان والكفر تستعمل السورة أكثر من مثال وأكثر من تشبيه، فهي في الآية السابقة 104 تشبه الكفر بالعمى، لكنها في الآية (122) تذهب إلى أبعد من هذا بكثير:

[أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ

فِي الظُّلْمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]. بعد أن رأينا كل هذه الآيات المعجزات على وجود الله وتوحيده، ماذا يكون حال من يكفر؟ إنه كالميت، لكن من رحمة الله تعالى أنه يهديه، فيحييه من جديد، لا بل أكثر من ذلك، يجعل له نور التوحيد والهداية ليمشي به في الناس ويدلهم على طريق الله. مثال رائع بالمقارنة مع من يقبع في الظلمات ولا يريد حتى أن يفكر بالخروج منها، بل أن كفره وظلامه مزين له بأبهي صورة...

سبب التسمية: توحيد في القصد والعمل

ويبقى سؤال أخير وهو: لماذا سميت هذه السورة بالأنعام؟

إن الأنعام هي المواشي التي يقوم الناس برعيها ويأكلون لحمها، ولكن ما العلاقة بين الأنعام وبين سورة تتحدث عن توحيد الله تعالى.

إن العلاقة بينهما وثيقة جداً، فإن السورة تناولت موضوع توحيد الله تعالى، وهي تحذر الناس من الاعتقاد بأن التوحيد يكون بأن يقول المرء في نفسه أنا أوحد الله وواقع حياته لا يشهد بذلك، بل ينبغي أن يوحد الله اعتقاداً وتطبيقاً.

فكثير من الناس يوحدون الله اعتقاداً فهو يجزم بهذا الأمر ولا مجال للنقاش أو الشك في توحيده لله عز وجل ولكن إذا تأملنا واقع حياته، وهل يطبق شرع الله تعالى في كل تصرفاته فإننا سنجد أن الأمر مختلف.

إن توحيد الله تعالى لا يكون في الاعتقاد فحسب بل لا بد من توحيده في كل تصرفاتنا وحياتنا اليومية...

وسبب تسمية السورة بالأنعام أن العرب كانوا ينظرون للأنعام على أنها ثروتهم الأساسية وعصب حياتهم، فتعاملوا معها على أنها تخصهم ولا علاقة لله تعالى بها - بزعمهم - يقول تعالى: [وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] (136).

وبعد ذلك يقول [وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ خُرِّمَتْ ظُهُورُهُمْ وَأَنْعَمٌ لَّا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ & وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ] (138 - 139).

فهذا تحذير من توحيد الله اعتقاداً فقط دون أن يكون لهذا التوحيد أثر في التطبيق.. فإياكم ثم إياكم أن توحدوا الله تعالى في الاعتقاد وتخالفوا ذلك في التطبيق. لهذا اختار ربنا نوعاً من أخطاء التطبيق وسمى به السورة حتى يخاف المرء ويسأل نفسه عن التطبيق كلما قرأ آيات التوحيد وعدم الشرك.

طريق السلامة

ولأن التوحيد يشمل الاعتقاد والتطبيق جاء ختام السورة [قُلْ إِنِّي صَلَّيْتُ وَأُنْسِكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ & لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ & قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا] (162 - 164).

فمن كانت له هذه القدرة أحق بأن يكون له التوحيد الخالص في كل مظاهر حياتنا الفكرية والروحية والعملية.

هذه المعاني كلها تلخصت في ثلاث آيات محورية في المواجهة على مدار

السورة:

[قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ] (14).

[أَفَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ

مُفَصَّلًا...] (114).

[قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْعَى رَبًّا...] (164).

فهذه الآيات الثلاث ركزت على محاور التوحيد الثلاثة وهي التوحيد في الربوبية

وفي المحبة وفي الاحتكام لشرع الله تعالى.

ختم السورة: الاستخلاف

بعدما أكد الله تعالى من خلال آيات السورة ملكه للأرض وإبداعه لها وتصرفه فيها، أعطانا الأرض واستخلفنا عليها: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ] (165).

وهنا لفظة لطيفة في الربط بين هدف سورة الأنعام وهدف سورة البقرة (المسؤولية عن الأرض). كما أنّ الختام هنا يمهد لسورة الأعراف التي تناولت موضوع الصراع في الأرض بين الحق والباطل: [... وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْأَلُوكُم فِي مَا آتَاكُم] (165).

وانظر هنا لعلاقة السور الرائعة مع بعضها:

وكأنّ السور الثلاث توجه رسالة موحدة: يا مسلمون، بعد أن فهِمْتُمْ أهمية توحيد الله في التطبيق كما في الاعتقاد (سورة الأنعام)، فإن الله قد أعطاكم هذه الأرض لتطبّقوا شرعه عملياً، فأنتم يا أمة محمد مسؤولون عنها (سورة البقرة) فأين أنتم في الصراع على الاستخلاف بين الحق والباطل (سورة الأعراف)؟

سورة الأعراف

سورة الأعراف (مكية) نزلت بعد سورة (ص) وهي في المصحف بعد سورة الأنعام وعدد آياتها 206.

قذائف الحق على الباطل

نزلت السورة في وقت كان الصراع فيه على أشده بين المسلمين والكفار. وبالتحديد في الوقت الذي أمر به النبي (ﷺ) بالجهر بالدعوة. إنها مرحلة جديدة، مرحلة فيها الإعلان والمواجهة، وقد يخجل البعض أو يخاف الأذية.. أنزلت السورة في هذا الظرف وهذا الجو، لتتحدث عن الصراع بين الحق والباطل وأن هذا الصراع سنّة كونية دائمة ومستمرة منذ خلق الله الخلق إلى نهاية يوم القيامة.

فبدأت السورة بالصراع بين آدم وإبليس مع بدء الخليقة وأتبعته بالحوار بين أهل الجنة وأهل النار، وكأن المعنى: هذه هي نتيجة الصراع: فريق في الجنة وفريق في النار. وبعد ذلك رسمت خطأً بيانياً يظهر الصراع في تاريخ البشرية بين كل نبي وقومه، ويظهر أن نهاية الصراع دائماً هي هلاك الظالمين بسبب فسادهم. وبين كل مقطع من هذه المقاطع تسألك السورة: أين أنت من هذا الصراع؟ حدّد موقفك.

وهذا المحور لمناسب جداً لجو الصحابة في المرحلة المكية كما أنه ينعكس على الناس جميعاً في كل زمان ومكان. ففي كل عصر سيعيش الناس مواقف صراع بين الحق والباطل على مستوى الدول والأمم وعلى مستوى الحياة الشخصية أي بين الإنسان ونفسه.

والهدف الذي تدور حوله أحداث السورة ومعانيها هو ضرورة تحديد الموقف وسط الصراع.. حدد موقفك يا مسلم.. في أي الفريقين أنت؟ لا تكن من المتفرجين.

وهذا المعنى يبدو واضحاً في قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة، والتي ركزت على الفصل بين المؤمنين الذين أبحاهم الله تعالى وبين الكفار، مع عدم ذكر أي فئة سلبية أو متفرجة، لأن الأصل أن يكون للإنسان موقف محدد في حياته. ففي قصة نوح مثلاً نرى أن ختام القصة كان: **[فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ]** (64) وفي قصة هود:

[فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ] (72). وفي قصة لوط: **[وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مَن قَرَّبْتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ]** (82) **[فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ]** . وفي قصة شعيب: **[قَالَ أَلْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا... فِي مِلَّتِنَا]** (88). وفي قصة صالح: **[قَالَ أَلْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا... لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ]** (75).

وكأن المعنى في هذا كله إما أن تكون مع (الذين آمنوا معه) وإما أن تكون مع (الذين كذبوا بآياتنا) فلا وجود للفئة المتفرجة في هذه القصص.

(فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ)

بداية السورة تعلن هذا المعنى بوضوح **[كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ]** (2) مطلوب منك الجهر بتعاليم الإسلام، لا تستح من نظر أحد أو انتقاده. فأحياناً من قوة الباطل أو انتشاره قد يججل البعض من إظهار الحق. لا تحجلي من حجابك ولا يخف مسلم من إيذاء أحد له.. المسلم الحق يجزم أمره ويحسم قضاياها لأن الله قال له في افتتاح السورة **[فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ]**. هذه الآيات كما أشرنا سابقاً كانت عنواناً لبداية مرحلة الدعوة

الجهرية.

الآية الثالثة تلح على نفس المعنى: **[تَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ]** فهنا طلب حازم باتباع الحق فوراً بلا تردد أو سلبية أو تطلع للطرق الأخرى.

آدم وإبليس: فدلاهما بغرور

ومنذ بداية البشرية يبدأ الصراع بين آدم وإبليس الآيات (20 - 22)، فكيف كان إغواء إبليس لأبويننا؟ **[فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ]** (22) أي أن طريقة الإغواء كانت بتركهما في حيرة وعدم استقرار، فكان استعمال كلمة (فدلاهما) لتشبيهها بمن يدلوه في البئر ثم يتركه معلقاً وسطه دون أن يحسم مكانه. ولذلك فإن الإيجابية وحسم الأمر من أقوى جند الحق والسلبية والتردد طريق المعصية وإن كان صاحبهما مؤمناً.

العري: سلاح إبليس

لاحظ تركيز إبليس على نوع من أنواع الإفساد: العري، وهذا واضح في الآيات:

[فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَتِهِمَا] (20) فماذا كانت النتيجة **[فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتُ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا...]** (22).

لذلك كان الأمر الإلهي بالستر والتحذير من كل مظاهر كشف العورات: **[يَبْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُورِي سَوْءَتِكُمْ وَرِيشًا]** (26). **[يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَتِهِمَا...]** (27).

[يَبْنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ] (31).

تعلموا يا شباب من هذه السورة، رأيتم كثرة الآيات المحذرة؟ تعلموا ستر

العورات و غرض الأبصار، تعلّموا يا فتيات العفة والحشمة، واحسموا موقفكن من الحجاب بدون تردد، لأن العري سلاح إبليس منذ بدء الخليقة، وانتشاره يساعد على نشر الرذيلة وسهولة المعصية، لذلك كان التعقيب على قصة آدم قوله تعالى: **[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ...]** (33).

لا ثالث بينهما

وبعد ذلك تقسم السورة الناس إلى صنفين: أهل الجنة وأهل النار، وتأخذك السورة بعيداً إلى يوم القيامة، حتى كأننا نسمع النداءات بين الطرفين: **[وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ]** (44). فهما داران لا ثالث لهما، لذلك تأتي كلمة حاسمة في الآية 46 **[وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ]** لتفصل بين الفريقين بشكل نهائي. أما زلت متردداً؟ ألم تحسم موقفك بعد؟ اسمع إذاً نداء الاستغاثة: **[وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ]** (50) واختر لنفسك أي المصيرين، وأي الدارين؟!

سبب تسمية السورة بالأعراف

فلماذا سميت السورة بهذا الاسم (الأعراف)؟ يقول تبارك وتعالى:

[وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ] (46) أي بين الجنة والنار يعرفون أهل كل منهما فينادون أصحاب الجنة: **[وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ]** (46) ويخافون من النار **[وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ & وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ]** (47-48).

فمن هم أصحاب الأعراف؟ إنهم أناس تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهم لم يحسموا مواقفهم وأعمالهم في الحياة. ولأن الجزء من جنس العمل، فهم يوم القيامة

يجبسون في مكان عالٍ (يسمى الأعراف) بين الجنة والنار، ليشرفوا على المكانين. والمترددون يشملون أصنافاً كثيرة من الناس (لذلك هناك أعراف كثر وليسوا عرفاً واحداً)، فإياك أن تكون أحدهم.. أخي المسلم بادر إلى اتباع طريق الحق ولا تكن اعرفياً، بل احسم موقفك لأنك قد تحرم حتى من أن تكون مع أصحاب الأعراف في حال سوء الخاتمة والعياذ بالله.

قصص الأنبياء: رسم بياني للصراع عبر التاريخ

وللتأكيد على الرسائل التي تحملها السورة:

1. أن الصراع بين الحق والباطل دائم ولن يتوقف.
- 2 أن الباطل منهزم لا محالة.
- 3 أن السبب الأساسي لهزيمة الباطل هو البعد عن الله والفساد بأشكاله المختلفة (الأخلاقي أو الاقتصادي أو الاجتماعي).

تذكر لنا السورة قصصاً لخمسة أنبياء من أنبياء الله ومواجهتهم لأقوامهم. والملاحظ أن هذه القصص قد ذكرت مرات عدة في القرآن، فما الذي يميّزها هنا؟ إنها تخدم هدف السورة في حسم الموقف من الصراع، من خلال:

- إظهار أن عناصر المواجهة بين كل الأنبياء وأقوامهم هي تقريباً نفسها (مع نفس الكلمات أحياناً)، وكل هذا لإثبات قدم الصراع وتكراره مع تغيّر الأشخاص والأمم.

فكانت دعوة الأنبياء كلها واحدة [يَقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] (59).

[أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي...] (68) وحتى الحجج [أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ...] (69).

- انتهاء إلى تكذيب الكفار [إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ] (60)، [إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ] (66).

- التركيز على نهاية الباطل، تحت قاعدة "الجزء من جنس العمل".
 فقوم ثمود، مثلاً، كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمين، فدعاهم أمنهم إلى الاستكبار على دين الله، فكان عقابهم الرجفة (والتي يرافقها الخوف، لأن الخوف ضد الأمن). هذه القاعدة تنطبق أيضاً على قوم لوط الذين أسرفوا في الشهوة الجنسية مما أدى بهم إلى مخالفة الفطرة الإنسانية والشذوذ، وسبب ذلك الإسراف، كما بينت الآية [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ] (81)، لذلك كان جزاؤهم مطراً من الحجارة.

- التنبيه إلى أن سبب هزيمة الباطل إنما هو الفساد:

ففي ثمود - قوم صالح - كان فساد الترف الزائد هو الذي أهلكهم
 (الآية 74)

أما قوم لوط، فكان فسادهم الأخلاقي وشذوذهم الجنسي سبباً لإهلاكهم
 الآيات (80 - 81).

وأما مدين - قوم شعيب - فكان الفساد الاقتصادي هو المستشري فيهم:

[فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...] (85).

- التحذير من الاستكبار، لأنه من أخطر أسباب الهلاك:

فعبارة [قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ...] (74) نراها تتكرر مع ثمود ومدين، كما نرى في أوائل السورة التركيز على عبارات [إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا...] الآيات (36 و40). ولا يمكن أن تتكرر عبارة بحذافيرها في القرآن من دون أن يكون هناك معنى مهم جداً ينبهنا إليه ربنا سبحانه.

- التركيز على نجاة النبي والذين آمنوا معه وهلاك الكافرين، بدون أي ذكر لأي فئة متفرجة أو محايدة. [فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ...] [فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ] [لِنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ] الآيات (64 - 72 - 83 - 88).

بعد كل هذا: ألا زلت متردداً

ولاحظ أخي المسلم تعقيب القرآن على هذه القصص:
**[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ] (96)** فهو يضع كل هذه النماذج ضمن قاعدة كونية: إما إيمان وحسم
 للموقف واتباع للأنبياء، وإما بأس شديد وعذاب أليم من الله.
 وأنت أخي المسلم تندرج تحت هذه القاعدة، فهل ما زلت متردداً؟
 إن لم تكن مع الحق فأنت مع الباطل ولو كانت نيتك غير ذلك، لأنك
 أضعفت أهل الحق.

وإياك أن تقول "أنا فرد ولن أغير شيئاً في معادلة الصراع". فلو كان الحق
 ينتصر بوجود 100 صادق ناجح، وهم الآن 99 وقد تكون أنت المتمم للمائة،
 وتفاعست، فأنت إذاً لم تكمل المؤمنين وأنت سبب في تراجعهم.

قصة موسى عليه السلام

وتصل الآيات إلى قصة سيدنا موسى مع فرعون، سحرة فرعون، وبني
 إسرائيل. قصة من أروع القصص في عرض نماذج الحسم والتردد.

والجدير بالذكر هنا أن قصة سيدنا موسى هي أكثر قصة مذكورة في القرآن
 على الإطلاق (ذكرت في 29 جزءاً) (يقول النبي: رحم الله أخي موسى، لقد كاد
 أن يذهب بثالث القرآن). لكن سورة الأعراف هي أكثر السور تفصيلاً لعلاقة
 موسى بقومه خاصة بعد خروجهم من مصر (فلم تذكر مثلاً حادثة ولادته أو
 نشأته في قصر فرعون كما في سورة القصص)، ولذلك بدأت بالصراع مباشرة من
 أول آية [... فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ] (103) [وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرَعُونَ
 إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ] (104)، كل هذا لنستفيد من مواقف الحسم والتردد
 في القصة.

حزم بدأ بسجدة

فعندما أتى السحرة لطلب القرب من فرعون ومواجهة موسى عليه السلام، رأوا الآية الدالة على رسالته، فحسموا موقفهم خلال دقائق وكان حسمهم شديداً وفي منتهى القوة: [فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ & فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ & أَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ] (118-120) بدأ إيمانهم بهذه السجدة المؤمنة وتمسكوا بهذا الإيمان رغم التهديد بالهلاك والتعذيب: [قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ & رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ & قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ...]. (121-123).

وبعد ذلك يقول لهم فرعون [لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ] (124) فماذا كان أثر ذلك على موقفهم؟ [قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ & وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِبَيِّتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا] (125-126) هكذا في إصرار وعدم تردد رغم تهديد فرعون ووعيدته، بل أنهم استمدوا الصبر والتمسوا حسن الخاتمة من صاحب الحق: [رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ...]. (126).

فساد فرعون

بعد أن رأينا في قصص الأنبياء السابقة أنواعاً مختلفة من الفساد، تأتي قصة موسى وفرعون لترينا قمة في الفساد:

[... قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ] (127).

فكان العقاب الرباني متدرجاً لذلك الظالم وقومه:

[فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مَّفَصَّلَاتٍ...]. (133).

فخفف الله عنهم، لكن [إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ] (135) فماذا كان العقاب؟

[فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِبَيِّنَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ] (136).

بنو إسرائيل: سلبية وتردد

وبالمقابل، ترينا الآيات نموذجاً آخر للتردد وهم بنو إسرائيل، فعندما قال لهم نبيهم [أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] (128) فماذا كان جوابهم؟

[قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا] (129).

فردّ عليهم موسى ليعلمهم حسن الظن بالله والذي هو أمر أساسي من متطلبات الحسم:

[قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ] (129).

فالآيتان (128 - 129) تؤكدان على أن الحزم وعدم التردد أمران أساسيان في امتحان الاستخلاف على الأرض، وهذا ما لم يفهمه بنو إسرائيل.

حتى في العقيدة

ويظهر بنو إسرائيل في مواقف أخرى توحى أنهم يعيشون بلا غاية ولا هدى حتى في أمور العقيدة. ففي الآية 138 نرى قوله تعالى [وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ] لقد كانوا منذ قليل يعبرون البحر، وقد رأوا فرعون وجنده وغرقهم، فماذا كان موقفهم التالي: [قَالُوا يَمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ]. هذا السؤال الذي ينم عن قمة في الجهل أتى في نفس الآية التي تحكي قصة نجاتهم ليرينا الله تعالى حالة التردد وعدم الثبات عندهم.

[فَخَذُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا]

كانت أغلب أوامر الله لبني إسرائيل تحث على تطبيق أمر الله ودينه بقوة.

ففي الآية (145): [فَخَذُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا].

وفي الآية (171): [خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ...].

فكيف كان أخذهم لأوامر الله؟

تركهم موسى وذهب للقاء ربه، فماذا فعلوا؟

[وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ] (148).

فتنكر عليهم الآيات بشدة:

[أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ & وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (148-149).

فهم يشكون من عدم الوضوح والحزم في تديتهم وعلاقتهم مع الله.

وبذلك يظهر الفارق واضحاً بين السحرة وبين بني إسرائيل، بين تحدي السحرة لفرعون [فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ] (72) وبين [قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا] (129).

بين [قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (121) التي أتت دون تردد من السحرة، وبين [أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ] (138) التي صدرت من بني إسرائيل رغم المعجزات الكبيرة التي رأوها.

الفرق الثالث

وتأتي مباشرة بعد قصة موسى مع بني إسرائيل قصة أصحاب السبت الآيات (163 - 167): وملخصها أن بعض بني إسرائيل احتالوا على شرع الله فارتكبوا جرماً شديداً وهو الصيد في اليوم الذي حرّم الله عليهم العمل فيه (يوم السبت) فاخترهم الله بإرسال السمك يوم السبت أمام أعينهم بكثرة.. فتحايلوا على الأمر وأخذوا يضعون الشباك في الجمعة ليلاً ويجمعون ما فيها صباح الأحد. فبدأ بعض المؤمنين الإيجابيين في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، حتى يكون لهم حجة عند

لقاء الله بأنهم حاولوا الإصلاح، والهداية تأتي من الله.

أما بعض المؤمنين فقد وقفوا موقفاً سلبياً بل أخذوا يعتبون على الذين كانوا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر. [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَفْهِنُونَ] (164).

أصبح هناك فرقة عاصية وفرقة إيجابية قامت بواجب الإصلاح وفرقة سلبية لم تتحرك ولم تصلح، فماذا كان مصير كل واحدة من هؤلاء؟

نِجَاةٌ.. وَعَذَابٌ.. وَإِهْمَالٌ

لم يستجب أصحاب السبب لنصح المؤمنين فأنزل الله بهم العقوبة: [فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ] (165).

الفرقة الإيجابية أنجاها الله تعالى من العذاب، والفرقة العاصية أخذها الله تعالى بعذاب بئيس أما الفرقة السلبية التي آثرت موقف المشاهد المتفرج، فقد أهمل القرآن ذكرها واختلف العلماء في ذلك.

- فمنهم من قال أنهم لم يستحقوا أن يذكروا لأنهم كانوا سلبيين فلم يذكر الله لهم مصيراً وسيماهم يوم القيامة كيف يشاء...

- والرأي الثاني يرى أنهم قد دخلوا مع الظالمين وهم معنيون بقوله تعالى [وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا] فهم والذين اقترفوا المعاصي سواء في هذا الحكم، لأنهم بقوا حياديين حيال المعصية وسكتوا عنها فأصبحوا بذلك عصاة...

منهم الصالحون ومنهم دون ذلك

ومن روعة القرآن أنه لا يحكي قصة مجرد القصص، بل يختتمها بعبرة وعظة حتى يرسخ في ذهن القارئ المعنى المراد من القصة. لذلك كان التعقيب على قصة موسى وأصحاب السبب واضحاً في بيان عبرة القصة:

[وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ...]
(168).

هذا كان حال الجيل الأول من بني إسرائيل الذي تاه وتفرق في الأرض: منهم صالحون ومنهم دون ذلك، لكن الجيل الثاني كان فيه أناس سلبيون مترددون [فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ...] (169).

وبالمقابل، تختم الآيات بمثال رائع لنقتدي به في أخذ أوامر الدين بقوة:

[وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ]
(170).

لاحظ كلمة (يُمَسِّكُونَ) كيف أنها تدل على تمسك شديد بأوامر الله وخاصة الصلاة، هؤلاء ينالون شرفاً من الله أنهم مصلحون وليسوا مجرد صالحين لأنفسهم، إنهم إيجابيون مصلحون لجمعهم وبلدهم وأمتهم.

كيف لا تحسم وفطرتك شهدت؟

ترجع بنا الآيات بعد ذلك إلى زمن بعيد، في عالم الذر، عندما أشهدنا الله على أنفسنا بربوبيته وعظمته.

[وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ]
(172).

فكيف لا نتحرك في نصره ديننا والله قد أخذ علينا العهد من بداية الخلق، وقبل أن نأتي إلى هذه الدنيا، أن نكون مع الحق وأهله. إن حب الدين والإيمان له فطرة ربانية من عند الله، فلماذا ينسى بعض الناس هذا العهد وهذه الفطرة الربانية؟

مرض الغفلة

الآية السابقة تجيب بوضوح [أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ]

(172)، إنها الغفلة، أخطر مرض قد يؤدي إلى برود الحماسة للحق والتردد في نصرته الدين. فما هي عوارض هذا المرض؟ إسمع الآية 179:

[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ]... فالغفلة هي السبب الأساسي وراء كل تردد وعدم حسم، لذلك كانت آخر وصية لنبي الله قبل ختام السورة (ومع أنه الرسول المعصوم ρ):

[وَأذْكَرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِّنَ الْغَافِلِينَ] (205).

فحري بنا، أتباع النبي ρ، أن نتدارك هذا المرض ونداويه، بالذكر والتضرع إلى الله، وبقراءة سورة الأعراف وفهم معانيها.

فمثله كمثل الكلب

وتقوم السورة قبل ختامها بحشد عدد كبير من الأمثال والآيات لتخدم نفس المعنى وتحذّر المؤمنين من الغفلة وعدم الحسم مع شرع الله ودينه، فيأتي مثال رهيب:

[وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ & وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ...]

(175-176).

مثال رهيب عن من آتاه الله آياته وهداياته، فانسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها. ولو أنه بقي على تدينه لأعزّه الله ورفعته، لكنه آثر الدناءة. فهو كالكلب يتعب ويلهث سواء أكان حاله الغفلة أم المعرفة. مثال رهيب لا بد أن يوظف كل نائم وكل غافل.

اسجدها... بهذا المعنى

وأجمل ختام للسورة آية فيها سجدة. وهي أول سجدة في المصحف، حتى نذكر الحزم والحسم والعزيمة.. نذكر سجدة السحرة الذين تحدوا فرعون بجزوته وظلمه. كما أن الآية تدعونا إلى إظهار الخضوع لله تعالى بشكل عملي لأن حركة السجود تنبه النفس للتطبيق فتزداد استعداداً لحسم موقفها في الحياة.

بهذا المعنى نسجدها: [إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ] (206)..

سورة الأنفال

سورة الأنفال (مدنيّة)، نزلت بعد سورة البقرة، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الأعراف، وعدد آياتها خمس وسبعون آية.

يوم الفرقان

وقد أنزلت هذه السورة بعد غزوة بدر للتعقيب عليها (لذلك سماها بعض العلماء سورة بدر). وغزوة بدر هي أول معركة في الإسلام، وسماها الله تعالى في هذه السورة بيوم الفرقان، لأنه اليوم الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، يوم يمثل فرقا بين عهدين في تاريخ البشرية: عهد كان الإسلام فيه مستضعفاً وعهد سيكون فيه الإسلام قوياً وله أمة قوية تدافع عنه إلى يومنا هذا. لقد كان يوماً عظيماً في تاريخ البشرية، لذلك نزلت السورة كلها للتعقيب على ذلك اليوم.

ولو كان النصر يقاس بالمقاييس المادية، فإن المسلمين لم يكونوا لينتصروا في ذلك اليوم، لأن عدد المسلمين كان ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ولم يكونوا مهيبين نفسياً أو مجهزين عتاداً للقتال، في حين كان عدد الكفار ما يقرب من ألف مقاتل كامل الجهوزية للحرب.

والجددير بالذكر أنه كان مع المسلمين في هذه المعركة فرسٌ واحد، في حين كان مع المشركين ثلاثمائة فرس. فبالمقاييس المادية كان من المستحيل أن ينتصر المسلمين في هذه المعركة.

سينات الأبرار

الأنفال معناها الغنائم، وقد سميت السورة باسم هذه الغنائم - الأنفال -.

وللصحابة تعليق لطيف على سورة الأنفال، فإنهم يقولون: فينا نحن معشر أصحاب رسول الله نزلت سورة الأنفال، حين اختلفنا على النفل وساءت فيه أخلاقنا. وليس سوء الخلق الذي يتحدثون عنه هو الذي نعرفه اليوم، ولكن عبروا عن اختلافهم بذلك لعظيم أذبحهم وتواضعهم.

قوانين النصر مادية وربانية

إن السورة تتحدث عن القوانين التي يعتمد عليها النصر، وهذا مناسب لجو السورة وسبب نزولها. فبعد أن انتصر المسلمون في بدر نزلت السورة لترسخ للمسلمين الأسباب الكونية للنصر، فهو لا يأتي من قبيل الصدفة ولا العبث، وإنما للنصر قوانين مادية وقوانين ربانية.

وهذا يعني أن للنصر سببين هاميين:

1. اليقين بأن النصر من عند الله عز وجل [وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ] (101).

2. الأخذ بالأسباب والسعي الجدي لتقريب موازين القوى مع الأعداء، بل والتفوق عليها إن كان ذلك ممكناً، ووضع الخطط والدراسات وكل ما له تأثير مادي على النصر.

فهذه السورة تحقق مفهوم التوكل على الله، بأن نوقن بأن الله هو الناصر، وأن نبذل كل جهد ممكن لتحقيق هذا النصر من طاقة مادية. ولذلك فإن السورة قد تضمنت قول الله تعالى: [ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ] (53). فالآية تشير إلى أن الفعل في التأثير ليس إلا الله الواحد، ولكن بشرط أن تأخذ بالأسباب ما أمكن. فيجب أن ندرك أن النصر بين أمرين: جهد البشر وعمل القدر - تدبير الله تعالى -.

بعض الناس يظنون أن النصر معجزة ربانية فقط، فتراهم يدعون الله لينصرهم وبعد ذلك يتساءلون عن سبب تأخير النصر. فهم حقيقة لم يفهموا أن هناك

أسباباً مادية ينبغي الأخذ بها من تخطيط وجهه وبذل. فلا يكفي الدعاء واللجوء إلى الله مع ترك الأخذ بالأسباب، لأننا بذلك نكون مقصرين في فهمنا لطبيعة ديننا ولسنن الله في هذه الأرض.

وبالمقابل، هناك نوع آخر من الناس يأخذون بالأسباب كلها من وضع الخطط والدراسات وجهد بالليل والنهار وبعد ذلك حين يريدون المقابلة والمقارنة مع قوة الكفار يجدون أنفسهم ضعفاء للغاية، فيظنون أنهم عاجزون عن فعل أي شيء والسبب في ذلك أنهم اعتمدوا على الأسباب المادية فقط ونسوا أن النصر من عند الله.

فالسورة ترشدنا إلى التوازن بين هذين النقيضين: أن نؤمن بتدبير الله أولاً، وأن نبحت عن الشروط المادية لتحقيق النصر.

النصر من عند الله

تبدأ السورة بسؤال: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ] (1)، أي يسألون عن كيفية تقسيم الغنائم.

[يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (1).

وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى سرد صفات المؤمنين: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...] (2). واللطيف أن الجواب على سؤالهم عن تقسيم الغنائم لم يأت بعد السؤال مباشرة، إنما جاء الجواب في الآية الواحدة والأربعين أي بعد أربعين آية من السؤال: [وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ...].

وسبب تأخير الإجابة أنهم حين سألوا السؤال كانوا يريدون المكافأة الدنيوية على النصر، والله علمهم أن النصر أولاً وأخيراً هو بتقديره ومن عنده سبحانه وتعالى.

فكان الجواب المبدئي على سؤالهم: [قُلِ الْإِنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ] (1)، وليس لكم منها شيء، وذلك من لطف القرآن في التربية في صرف أنظارهم عن الأنفال لترسيخ قوانين النصر أولاً، ثم بعد ذلك تم شرح كيفية توزيع الغنائم إلى أن قال لهم في آخر السورة [فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً] (69). فالله تعالى رسّخ ما هو أهم وبيّن أن مسألة تقسيم الأنفال هي مسألة فرعية لأنها من المسائل الدنيوية.

إن السورة تنقسم إلى نصفين: النصف الأول يركّز بشدة على أن منزل النصر هو الله تعالى. والنصف الثاني يتحدث عن الأسباب المادية التي ينبغي الأخذ بها حتى ينزل النصر علينا.

القسم الأول (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

وهو يظهر منة الله تعالى وفضله على المؤمنين بالنصر، وذلك من خلال:

1. ترتيب المعركة

قال تعالى: [كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ] (5).

فالكثير من المؤمنين لم يكونوا يريدون القتال، لكن الله تعالى دبر ذلك ليحقّ الحق:

[وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ & لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ] (7-8).

إن هذه الآيات هي غاية في الوضوح، فترتيب المعركة ابتداءً كان بتقدير الله عز وجل.

2. الإعداد النفسي للمعركة

يقول الله تعالى: [إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ

الْأَقْدَامِ] (11).

فأنامهم قبل المعركة وبعد أن استيقظوا من نومهم أنزل عليهم من السماء رذاذاً من المطر لكي يغتسلوا ويتوضأوا ويتنشطوا للقتال. فحتى الإعداد النفسي كان بتقدير من الله عز وجل.

أحد الصحابة يصف هذا الموقف فيقول بأنه حين كان يحرس المسلمين غلب عليه النعاس فنظر فإذا جميع الصحابة يغطون في النوم على الرغم من الخوف الشديد والرغبة التي كانت تحف الموقف، وذلك كله بتقدير من الله تعالى.

3. التجهيز المعنوي للجيش

وليس الإعداد النفسي وترتيب المعركة كانا من الله وحسب، بل إن الحالة النفسية - والتي ينفق الجيوش عليها مبالغ طائلة - كانت أيضاً بتدييره سبحانه.

إن التجهيز المعنوي الرباني للمسلمين في غزوة بدر يتجلى في قوله تعالى: [إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكنَّ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] (43) [وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ...] (44).

فكان المسلمون يرون الكفار قليلاً فلا يخافون وكان المشركون يرون المسلمون قليلاً فيستهترون. نفس الرؤية ونفس المنظر كانا لهما في وقع كل طرف أثر مختلف. فسبحان من يخرج النصر ويهيء له ويعين عليه.

4. نزول الملائكة

وهذا واضح في قوله تعالى: [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ] (9).

وكذلك قوله: [إِذْ يُوحَى رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ أَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] (12).

فمن الذي فعل كل هذا، من هو المالك للأرض الذي يفعل ما يشاء؟ وكيف لا يثق الإنسان بربه وأن النصر من عنده تعالى؟ وكيف يثق المرء بغير الله؟ وكيف يعتمد على غيره؟

5. مكان المعركة وزمانها

تنتقل الآيات إلى ما هو أبعد من العوامل النفسية، فحتى مكان المعركة كان بترتيب من الله فالآية 42 تقول: **[إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ] (42).**

فالعُدوة الدنيا - حيث كان المسلمون - تتمتع بنوعية خاصة من التراب حيث أن المطر كان عند نزوله يثبت الرمال تحت أقدام المسلمين مما يسهل حركتهم، وأما في العُدوة القصوى فكان المطر يسبب سيولاً عند نزوله مما يعيق حركة جنود الكفار وفرسانهم. إنها قدرة الله تعالى مقدر النصر وناصر المؤمنين.

6. (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

وتتابع الآيات ونصل إلى قوله تعالى: **[فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى] (17).** هذه الآية توضح نتيجة المعركة وخط سيرها حتى عند رمي النبي للتراب في وجوههم وقوله "شاهت الوجوه".

لذلك تؤكد الآيات على ضرورة طلب النصر من الله **[وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ] (10)**، ولهذا كان النبي ρ يوم غزوة بدر يدعو ويدعو حتى ظهر بياض إبطيه ووقع الرداء عن ظهره ρ ، فكان أبو بكر رضي الله عنه يقول له هوّن عليك يا رسول الله.

لأن النصر من عند الله فلا بد أن نستجيب لنداء الله تعالى:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ] (24).

القسم الثاني (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

1. أهمية الأخذ بالأسباب وأثر ذلك على النصر:

يقول الله تعالى: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ] (60). إن هذه الآية واضحة جداً في بيان هذا المعنى، فنفس السورة التي تؤكد أن النصر هو من عند الله تعالى وحده، تؤكد أيضاً ضرورة الأخذ بالأسباب. فالتخطيط إلى جانب اللجوء إلى الله هما السببان الرئيسيان في النصر، وهذه السورة تتحدث عن موازين القوى، وتشير إلى أن المعارك لا يجدي بها أن يقوم فرد ليقاتل منفرداً وينتصر على الجيوش الجارية بحجة أن الله تعالى يقول: [وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ] (10). إن هذا فهم خاطئ وناقص لدين الله تعالى وسننه التي يدير بها الكون.

والملاحظ أن الإرهاب الذي ذكر في الآية يهدف إلى منع القتال لا إلى سفك الدماء. فالمطلوب هو أن تكون للمسلمين قوة رادعة ترهب أعداءهم فتكون النتيجة وقف القتال. حتى في الحرب نرى الإسلام يدعو إلى السلم (عكس ما يعتقد الكثيرون عن هذا الدين). فالآية تقول بعد ذلك: [وَأَخْرِبَنَّ مِنْ دُونِهِمْ لَأَتَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ] (60)، فهي تشمل إظهار قوة المسلمين أمام كل أعدائهم لردعهم عن القتال. لذلك تأتي الآية التي بعدها مباشرة لتقول:

[وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...] (61).

2. موازين القوى المادية:

صحيح أن الله يؤيد بنصره من يشاء لكن لا بد من مراعاة موازين القوة والأخذ بالأسباب المادية حتى لا يقول بعض الناس: هناك تأييد رباني بالملائكة فلم الإعداد؟ يقول تعالى: [يَأْيُهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ] (65) [الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] (66).

فقوله: [بِإِذْنِ اللَّهِ] فيه إشارة إلى أن الله تعالى هو الناصر وهو الذي يؤيد بنصره من يشاء، وقوله تعالى: [وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] إشارة إلى أنه لا بد من الصبر لتحقيق النصر. فسبحان من جمع بين السببين في سورة واحدة.

3. فقه قوانين الحرب:

وتشير الآيات بعد ذلك إلى سبب من أسباب هزيمة المشركين في المعركة، فإضافة إلى كونهم كفار فهم لم يأخذوا بالأسباب المادية التي تجعل النصر حليفهم، وقد أشارت إلى ذلك الآية (65): [وَأَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ] أي لا يفقهون الأسباب التي تجعل النصر حليفهم ولا يملكون الحنكة والتخطيط الحربي. يا مسلمون، تعلموا من سورة الأنفال سنن الله تعالى وقوانينه وافقهوا الأسباب المادية للنصر.

4. طاعة الله والأخوة في الله:

وتبين الآيات بعد ذلك أن هناك سبباً دينياً ينبغي تحقيقه ليتحقق النصر، وتوضح ذلك الآية (46): [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ].

فالتكاتف وترك التنازع من أهم قوانين وأسباب النصر.

ويقول تعالى: [وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ & وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ] (62-63). فالأخوة هي من الأسباب الرئيسية حتى يحصل هذا النصر للمؤمنين.

5. ترك الرياء والعجب

وذلك واضح في قوله تعالى: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...] (47) فهذا عامل مادي آخر إضافي أدى لهزيمة المشركين عندما نحرروا الإبل وسكروا وأقاموا الاحتفالات قبل موعد المعركة زهواً ليخيفوا كل العرب،

فكان عجبهم بنفسهم سبباً في استخفافهم بعدوهم.

6. صفات المؤمنين إيجابية وعملية:

ونجد آيات كثيرة في هذه السورة توفّق بين مفهوم التوكّل ومفهوم الأخذ بالأسباب، ولذلك نلاحظ معلومة هامة للغاية، فبداية السورة تذكر صفات المؤمنين وبعد ذكر هذه الصفات يقول تعالى: **[أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]** وفي آخر السورة أيضاً يذكر تعالى صفات المؤمنين في الآية (74) ويعقب عليها بقوله سبحانه وتعالى: **[أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]**. نفس الكلمات جاءت في أول السورة وفي آخرها مع أنه يوجد فارق في تصنيف هذه الصفات وحقيقتها.

فالصفات التي ذكرت في أول السورة كلها صفات إيمانية، وهي تناسب قوله تعالى: **[وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]**. فيقول تعالى: **[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]** (2). فهي صفات إيمانية رقيقة، لأن هذا الجزء من السورة يختص بالجانب الإيماني من أسباب النصر.

وفي آخر السورة - وهو الجزء الثاني والمادي من أسباب النصر والمختص بالأخذ بالأسباب - جاءت صفات المؤمنين بأنهم: **[... الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]** (74) فالمؤمنون حقاً هم الذين يجمعون بين الصفات الواردة في أول السورة وآخرها، فهم خاشعون لله عبادة له ومجاهدون في سبيله وناصرون لدينه يعيشون لأجل الإسلام ويأخذون بالأسباب المادية. ولذلك كانت الآية المحورية في السورة هي قوله تعالى: **[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]** (45) فأسباب النصر جاءت مجموعة في هذه الآية، فالأمر بالثبات في قوله: **[فَاثْبُتُوا]** هو من الأخذ بالأسباب، والأمر بالذكر في قوله: **[وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا]** هو من اللجوء إلى الله صانع النصر، وختام الآية: **[لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]** فالفلاح يكون نزول النصر. وهذه القوانين ثابتة على مر العصور، وهذا واضح في تكرار

قوله تعالى: **[كَدَّابِ ءِالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ]** (52) مرتين للتأكيد على هذا المعنى. فالآية توضّح أن سبب الهلاك كان كفرهم بالله (السبب الرباني) بينما الآية (54) توضّح السبب المادي لهلاكهم: **[وَكُلٌّ كَانُوا ظَلَمِينَ]**.

لماذا سميت السورة بالأنفال

إن الأنفال وهي الغنائم هي إشارة للدنيا، والواقع أن المسلمين بعد غزوة بدر اختلفوا ودبت بينهم الشحناء وكادت الأخوة أن تضيع بسبب الدنيا. فالله تعالى من خلال هذه السورة يحذّر المؤمنين من التنافس على الدنيا فتكون بذلك سبباً للفرقة وضياع الأخوة بين المؤمنين، مما يضيع اكتمال الأسباب المادية والربانية ويسبب الهزيمة. لذلك الآيات أمرتهم بإهمال الأنفال تماماً **[قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ]** حتى ترسخ أسباب النصر عندهم. فلما رسخ المعنى قسمها في الآية (41) إلى أن نصل إلى الآية (69) لتوضح أن مسألة الأنفال فرعية وتحل لهم ما أخذوا: **[فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا...]**.

وأسباب النصر كما ذكرنا هي لجوء إلى الله واخذ بالأسباب، ومن الأخذ بالأسباب الأخوة الشديدة ووحدة الصف، فلو ضاعت الأخوة وحلت الفرقة فإن الهزيمة قادمة لا محالة. فسميت السورة بالأنفال حتى تذكركم بما يسبب الهزيمة.

نسخ أحكام الميراث

وأخيراً ختمت السورة بنسخ حكم الميراث الذي كان متعاملاً به بين الصحابة وهو أن الأخ يرث أخاه في الله. فجاءت الآية في ختام السورة لتقول: **[وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ]** (75) فالتوارث بين المتأخين كان مرحلة مؤقتة قبل غزوة بدر لتعميق معاني الأخوة بين المؤمنين، فلما جاء النصر وكانت الأخوة من أسبابه تحقق انصهار المجتمع لأن النصر يصلح مشاكل نفسية كثيرة في المجتمعات.

هذه سورة الأنفال. فلنحرص جميعاً على فهم قوانين النصر حتى يؤيد الله تعالى هذه الأمة. فلنلجأ إلى الله ولنثق بأنه صانع النصر: **[وَمَا أَلْنَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ**

الله]، ولنأخذ بالأسباب المادية من طلبٍ للعلم وتفوق في حياتنا الاجتماعية والعملية مع الحذر من التعلق بالدنيا وزينتها "الأنفال" حتى يستجيب الله دعاءنا ويعيد العز لهذه الأمة.

ختام معالم المنهج

بعد أن انتهت أول 10 سور من القرآن، نرى أن معالم المنهج اللازمة للاستخلاف على الأرض قد صارت واضحة، وأن أهداف السور ورسائلها تتكامل أمام ناظري قارئ القرآن:

- أنتم مسؤولون عن هذه الأرض أيها المسلمون، وهذا هو منهجكم (سورة البقرة).
 - أهمية الثبات على هذا المنهج (سورة آل عمران).
 - العدل شرط أساسي لضمان الاستخلاف (سورة النساء).
 - أهمية الوفاء بالمنهج والعقود التي قطعتموها لتطبيقه (سورة المائدة).
 - توحيد الله تعالى في الاعتقاد والتطبيق أمران لازمان في هذا المنهج.
 - احسم موقفك أيها المسلم تجاه هذا المنهج.
 - قوانين ربنا في النصر مادية وربانية، وهذا من شمول المنهج وواقعيته.
- أرأيت كيف تتكامل هذه السور في رسائلها لتكون سلسلة واحدة متماسكة في موضوعاتها؟

لذلك بعد أن وضحت معالم المنهج، تأتي الأجزاء العشرة التالية لتقدم لنا عوامل مساعدة على تحقيق المنهج، ومنها:

- التوبة.
- استشعار نعم الله تعالى (سورة النحل)، والتي من أهمها نعمة الإيمان (سورة إبراهيم).
- الاعتدال والوسطية في الدعوة إلى المنهج (سورة هود).

- الصبر والأمل بنصر الله (سورة يوسف).
بعد أن فهمنا أين نحن من تدبّر آيات ربنا، تعالوا إلى الأجزاء العشرة التالية
من القرآن، وإلى المزيد من روائع القرآن وإعجازه.

سورة التوبة

سورة التوبة (مدنية) نزلت بعد المائدة، وهي في ترتيب المصحف بعد الأنفال. عدد آياتها 129 آية، وهي آخر سورة كاملة أنزلت على النبي ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى...

لقد أنزلت هذه السورة في وقت كان المجتمع الإسلامي يستعد للخروج برسالة الإسلام من الجزيرة العربية إلى شعوب الأرض كلها.

أنزلت هذه السورة بعد آخر غزوة للنبي، غزوة تبوك، وكان عدد المسلمين فيها ثلاثين ألفاً. واللطيف أنها جاءت في ترتيب المصحف مباشرة بعد الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر (أولى غزوات النبي) حيث عدد المسلمين فيها 313 شخصاً فقط. ولعل الحكمة هي أن يلاحظ قارئ القرآن الفرق بين ظروف الغزوتين وأحكامهما وطريقة القرآن في التعقيب عليهما. غزوة تبوك كانت من أكثر الغزوات التي ظهر فيها أثر النفاق إذ كان مع الجيش منافقون كثير، وتخلف عنها منافقون كثير كما تخلف عنها بعض المؤمنين بسبب الكسل. كانت نتيجة الغزوة انتصاراً للمسلمين، وأنزلت هذه السورة للتعليق على كل هذه المواقف...

علامة التمييز

إن سورة التوبة هي السورة الوحيدة التي لم تبدأ بالبسملة كما هو الحال في كل سور القرآن. والمسلم عندما يقرأ القرآن ويتدبّر (بسم الله الرحمن الرحيم) يشعر من بداية حرف الباء أنه يعبر خطأً فاصلاً بين وضع سابق ووضع جديد، يشعر أنه داخل على عالم جديد ليترك الدنيا وما فيها ويتوجّه بقلبه

لسماع كلام ربه والعيش مع أسماء ربه الحسنى (الرحمن الرحيم).
 وسبب غياب البسملة عن أول سورة التوبة - على قول أغلب العلماء - هو
 أنها أكثر سورة تكلمت عن الكفار والمنافقين، فحرموا من البسملة ومن معاني
 الرحمة الموجودة فيها، من أولى كلماتها [بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ
 مِّنَ الْمُشْرِكِينَ] (1).

ولسورة التوبة أسماء أخرى، فقد سميت بالفاضحة لأنها فضحت المشركين، ففيها
 خمس وخمسين صفة من صفات المنافقين التي كانوا يمارسونها مع النبي ﷺ. وسميت
 بالكاشفة لأنها كشفت عيوب الكفار والمتخاذلين عن نصرته الإسلام، وسميت بسورة
 السيف لكونها أكثر سور القرآن دعوة للجهاد وتحريضاً على القتال وتحذيراً من القعود
 والتخاذل. فهي سورة شديدة إداً، وهنا قد يقول قائل: لماذا سميت بسورة التوبة؟

سبب تسمية السورة

إن التوبة بالنسبة لنا هي غاية في رقة العلاقة مع الله، فهي تعني العودة إلى الله
 تعالى واللجوء إليه والإقلاع عن الذنوب والمعاصي. فما علاقة التوبة بصفات
 المنافقين والمشركين والحث على الجهاد؟

إن هذه السورة هي البلاغ الأخير للبشرية، وقد أنزلت قبل ختام القرآن ووداع
 النبي ﷺ، وبالرغم من أن السورة قد تضمنت التهديد الشديد للكفار والمنافقين
 والدعوة الشديدة للمؤمنين إلى الدفاع عن دينهم، لكنها حرصت على إبقاء باب
 التوبة مفتوحاً لجميع الناس قبل الوداع. فرغم كون السورة تتكلم عن المنافقين
 والكفار إلا أنها تدعوهم إلى التوبة في مرات عديدة، فنلاحظ تكرار قوله تعالى
 [فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ].

وإذا بحثنا ورود لفظة (التوبة) ومشتقاتها في هذه السورة وفي القرآن كله، نجد
 أنها تكررت في هذه السورة سبع عشرة مرة وهي أكثر سور القرآن إيراداً لكلمة
 (التوبة).

بينما ذكرت في سورة البقرة مثلاً 13 مرة مع أنها أطول سورة في القرآن. وذكرت في سورة آل عمران 3 مرات وفي سورة النساء 12 مرة وفي المائدة 5 مرات وفي هود ستة مرات وفي الأنعام مرة واحدة.

دعوة الجميع إلى التوبة

إذاً أكثر سورة وردت فيها كلمة التوبة هي السورة التي بين أيدينا. والملفت أنها لم تذكر نوعاً من طوائف المجتمع إلا وذكرته بالتوبة: الكفار والمشركين والمرتدين والمتردددين والمنافقين والعصاة والمؤمنين الصالحين، حتى النبي ﷺ والصحابة. فكلما تحدثت السورة عن فئة منهم نراها تذكرهم بالتوبة أو تخبرهم بأن الله تعالى قد تاب عليهم [لَقَدْ تَابَ اللَّهُ... فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ...] (117-118).

فبالرغم من أن السورة قد فضحت المنافقين إلا أنها توصل لهم رسالة وهي أن كل حيلهم قد كشفت وأصبح المؤمنون يعرفونها فلا سبيل لهم للنجاة إلا بالتوبة. لقد فضحتهم لتلجأهم إلى التوبة.. كمن يتتليه الله ببلاء ليكون سبباً في عودته. فسورة التوبة تشعر المنافقين بأنهم محاصرون ولم يعد لهم من حجة بعد بيان الدين وتوضيحه، فلا منفذ لهم إلا بالتوبة. حتى دعوة المؤمنين إلى القتال، تهدف إلى تسلي اليأس إلى الكفار من القتال والحرب ويتوبوا إلى الله...

علاقتها بالسور التي قبلها

عند تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام نجد أن القسم الأول يشتمل على السور السبع الطوال ويختتم بسورة التوبة. وكأنها جاءت بعد بيان المنهج ووسائل القيام بالمهمة لتفتح باب التوبة والرحمة لمن بدّل أو غير أو قصّر في حق الله. ومن اللطيف أنها من أواخر ما أنزل على النبي ﷺ قبل وفاته، حتى يكون ختام الوحي وختام نزول القرآن بفتح باب التوبة.. هل استشعرت هذا المعنى؟

بعض الناس حين يقرأ هذه السورة يشعر بشدتها على الكفار والمنافقين، والبعض الآخر يقرأها فيشعر برحمة الله الواسعة والتي تتجلى في قبوله التوبة من جميع البشر، وهؤلاء أقرب إلى فهم معاني السورة لأن ما فيها من شدة وتهديد ووعيد إنما

هو حمل الكفار والمنافقين على التوبة.. فحتى فضح المنافقين كان حملهم على التوبة، وحتى دعوة المؤمنين للقتال جاء لحمل الكفار على التوبة بعد أن يئسوا من القتال..

نداءات أخيرة للتوبة

إن السورة تبدأ بداية شديدة وملفتة، إضافة إلى كونها لا تبدأ بالبسملة كبقية السور، فإنها تبدأ بكلمة "براءة" .. [بِرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ & فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ] (1-2) بداية شديدة ومهلة محددة. ثم أذان من الله ورسوله يقرع الأذان: [وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ] (3).

لماذا كل هذه الشدة؟ [فَإِنْ تُبْتِغُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ] (3)، فالتهديد إذاً كان من أجل التوبة لا من أجل الانتقام والوعيد، كأن "براءة" و"أذان" هما النداء الأخير للتوبة.

توبة المشركين المحاربين

وتصل بنا الآيات إلى الآية الخامسة [فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... كُلَّ مَرْصِدٍ] ومع ذلك [فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ] فبعد كل هذا الأمر بالقتال جاء التذكير بالتوبة لحث الكفار عليها.. فبقدر ما السورة حادة في مواجهتهم بقدر ما هي حريصة على توبتهم وإنابتهم إلى الله..

وبعد ذلك تخبرنا بأنه لا بد أن تقام الحجة على الكفار وذلك بدعوتهم وبيان الدين لهم قبل قتالهم [وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ...] (6).

وتتابع الآيات على نفس الوتيرة: تهديد، وفي نهاية كل تهديد ووعيد وتذكير بالتوبة. فمثلاً في الآية العاشرة يقول تعالى [لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ] ثم تقول الآية التي بعدها [فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ]. فلم تعف عنهم الآيات فحسب بل أوجبت على المؤمنين محبتهم بعد توبتهم لأنهم قد أصبحوا إخواناً لنا.

ثم عودة للتهديد في حال إصرار المشركين على القتال في الآيات (12) و(14): [وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَنِمْةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ] و[قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ...]. ثم عودة للتوبة مباشرة في الآية (15): [... وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ...]. إنها قمة في توازن ووسطية الإسلام بين الرحمة والرفق من جهة، وبين الواقعية والشدة من جهة أخرى.

فإن كان الأمر كذلك بالنسبة للكفار والمنافقين، فما الحكم في المؤمنين الذين قد عصوا ربهم... أتوب تعالى عليهم أم لا... فإن كان تعالى يقول عن الكفار [فَإِن تَابُوا... فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ] (11) فما بالك بمن ارتكب بعض المعاصي من المؤمنين؟

إن سورة التوبة هي من أكثر السور التي تزيد أمل المؤمن ورجاءه برحمة الله تعالى... فإن كان رب العزة بلطفه وإحسانه تعالى قد حث الكفار والمنافقين على التوبة وكرّر ذكر كلمة التوبة (17) مرة في السورة، فكيف لا يغفر لمن تاب من المؤمنين العصاة!؟

توبة المؤمنين المتخاذلين عن نصره الدين

نصل إلى الآية (24) التي تحاطب المؤمنين وتحثهم على نصره دين الله تعالى، فالآية لا تتحدث عن الجهاد بمعنى الحرب فقط بل أن تنصر الدين ويكون أعلى من كل أمور حياتك الدنيوية.

يقول تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ... الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (24).

لقد ذكرت الآية ثمانية أمور وكلها مباحة، لكنها حذرت من أن تكون سبباً

في البعد عن الله تعالى وترك الجهاد، وهذا يعني أن يكون أمر الله تعالى أولوية في حياتك وفوق كل رغباتك، وإلا فانتظر عقاب الله والعياذ بالله.

وتنتقل السورة للحديث عن نوع جديد من التوبة، غير التوبة من الذنوب والمعاصي التي نعرفها والتي يقع فيها الناس دائماً (كالنظر إلى الحرام أو تأخير الصلاة). إن السورة تدعو للتوبة من التخاذل عن نصرته الإسلام، وكأنها تشير بأن هذا الفعل الشنيع يحتاج إلى توبة شديدة. فتأتي الآية (38): **[يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ... قَلِيلًا]** عتاب رقيق تعقبه لهجة قوية في الآية التي بعدها: **[إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...]** (39) فحذار حذار من الاستبدال، لأن الله تعالى ينصر دينه وليس بحاجة إلى أحد **[إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...]** (40) إلى أن تأتي الآية بالأمر الشامل الكامل الذي لا يستثنى أحداً: **[أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]** (41) فلكي يرتدع الكفار ويلجأوا إلى التوبة لا بد من جهادهم، فكأن جهادك أيها المسلم عون لهم على الرجوع والتوبة، وكأن تخاذل المسلم سبب لتمادي أهل الكفر في غيهم وضلالتهم. فهي تعمل لديننا ونطرق أبواب الخير لنساعد أنفسنا فننجو ونساعد غيرنا فيتوب.

التوبة من عدم التوكل على الله

وخلال الآيات السابقة تتحدث الآيات عن غزوة حنين وكيف أعجب المؤمنون بكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، فوقع المسلمون في خطأ الاعتماد على العدد وحده ونسيان أن النصر من عند الله وحده.

[لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ... وَلَيُتِمُّ مَدْبِرِينَ...] (25).

وهذا الخطأ لا بد له أيضاً من توبة، فتأتي الآية (27) لتشير إلى ذلك: **[ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]**.

التخاذل عن نصرته الدين

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى المتخاذلين عن نصرته الإسلام من المنافقين. فتقول الآية (46): **[وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ]** لو كانت عندهم نية صادقة لتحركوا وأعدوا لهذا الخروج، ولكن لعدم صدق نيتهم كره الله خروجهم فثبط همهم **[فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ]**. ألا تؤملك هذه الكلمة أخي المسلم؟ إذا حرمت من عمل الخير والدعوة فتذكر أن الله تعالى قد يكون غاضباً منك وكارهاً لعملك... فمن منا يحب أن يكره الله عمله؟ من منا يرضى بأن يكون عبثاً على الدين؟ **[لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا]** (47).

والآيات تتوالى في التوبيخ والتفريع:

[وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ] (49).

[وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُمُ...] (56).

[لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مُدْخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ] (57).

والآيات (81 - 87) شديدة اللهجة في التهديد، فمثلاً نرى الآية (86).

[وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولَئِكَ أَلْطُولُ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ].

فكلمة القاعدين مؤثرة للغاية، فمن يرضى لنفسه أن يبقى قاعداً يشاهد التلفاز ولا يكلف نفسه عناء أي عمل لنصرة دينه، وقد يكون من المصلين ومن المثابرين على صلاة الجماعة لكنه سلمي لا يحرك ساكناً لخدمة الإسلام، فهذا النوع من الناس عليه أن يحذر من الآية (87): **[رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ]**.

فكيف يستقيم لهم رأي أو عمل وهم على هذه الحال؟ وانظر إلى الإيجابيين

المتحركين.

[لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ
الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (88).

أفراح في جهنم

في الآية (81): [فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ...] توبيخ
شديد. فهي توضح أن موازين الفرح والحزن غير سوية عندهم. فمن يفرح
بالخذلان؟ إنه كمن يفرح بنار جهنم عقوبة له:

[...] وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا
فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ & فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا
كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] (81 - 82).

دعوة الجميع للتوبة

كما ذكرنا فان كل توبيخ في السورة يختتم بدعوة المخاطبين للتوبة، فمرى
مثلاً:

1 - توبة المنافقين والمرتدين:

[فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ] (74).

2 - توبة المترددين:

[وَأَخْرَجُوا عَتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (102).

3 - ثم حث الجميع على التوبة:

[أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (104).

إن شروط التوبة ثلاثة:

- ندم على الذنب

- إقلاع عن الذنب

- عزم على عدم العودة

فبادر إليها أخي المسلم، وإياك وتأخيرها لأن تأخير التوبة وتأجيلها هو بحد نفسه معصية لله تعالى.

صفات المؤمنين المستحقين للشهادة

وفي مقابل الحديث عن المنافقين تنتقل السورة للكلام على صفات المؤمنين الذين عقدوا عقد بيع مع الله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (111).

إن السياق القرآني يجعلنا نشوق لمعرفة صفاتهم، فنقلب الصفحة لنقرأ قوله تعالى: [التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَنُوا فِي الْقُرْآنِ وَمَنْ يَلْمِزْهُمْ مِنْهُمْ لَعْنُهُمْ] (112).

توبة لصفوة الأمة

ومن جمال التوبة وحب الله لها، ذكر الله بها نبيه ﷺ وصحابته الكرام:

[لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ] (117).

فالتوبة - كما يقول العلماء - أول منازل العبودية وآخرها. فبداية الإيمان تكون بالتوبة كما أن التوبة مطلوبة في نهاية الحياة. من هنا نفهم حديث النبي ﷺ: "إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة".

توبة أخيرة للثلاثة المتباطئين

وأخيراً توبة خاصة بالثلاثة المؤمنين الذين تخلفوا عن توبة تبوك، فالتقاعس عن

نصرة الإسلام - كما أسلفنا - بحاجة إلى توبة.

[وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (118).

لاحظ معي روعة الآية: [تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا]. فلا بد أن يتوب الله عليك ويهيء لك طريق التوبة، فالهداية من عند الله، وهو وحده المعين عليها. أحيي المسلم، الزم دائماً هذا الدعاء: "اللهم تب عليّ لأتوب".

خير ختام لخير حياة

إن القارئ لسورة التوبة يحس أن فيها براءة وتهديد ووعيد، لكنها تفعل كل ذلك وهي فاتحة ذراعيها للتوبة. ومن لطف القرآن أن الله تعالى لم يغلب اسم الفاضحة على سورة التوبة لأنه يجب الستر. ومن اللطائف الأخرى أنه بالرغم من أن السورة قد حرمت المنافقين من الرحمة في أول السورة (من خلال عدم البدء بالبسملة والبراءة منهم) لكنها أعطت جميع الناس في آخر السورة رحمة مهداة، والمتمثلة في النبي ρ الذي بعث رحمة للعالمين:

[لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ] (128).

وهذه الآية خير ختام للسبع الطوال، وهي أيضاً خير ختام لحياة النبي ρ . فهي آخر سورة أنزلت كاملة على رسول الله. إنها سورة الوداع، وخير وداع في ديننا هو التوبة على كل الناس. فإن أبوا التوبة فإن الآية الأخيرة تقول:

[فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ] (129).

أخي الكريم. إسأل نفسك: هل ستتوب أم لا؟ فإذا كان باب التوبة مفتوحاً لكل فئات الناس ولكل فئات المجتمع مهما تفاوتت درجة قربهم أو بعدهم عن

الدين، فكيف يكون حالك وأنت مؤمن ومحِب لكتاب الله؟ لذلك فلنعمل للإسلام ولنعش للإسلام ولنحذر التخاذل والقعود عن نصره الدين، ولنتيقن أن الله تبارك وتعالى يتوب على من يشاء..

من لطائف القرآن

وفي النهاية نشير إلى أن سورتي التوبة والأنفال جاءتا متتاليتين بالإضافة إلى أنهما توافقان الترتيب الزمني لغزوتي بدر وتبوك. فسورة الأنفال تتحدث عن أول غزوة غزاها النبي بينما سورة التوبة تعقب على آخر غزوة لرسول الله. وقد جاءت السورتان متتاليتين حتى نلاحظ الفرق في المجتمع الإسلامي بين بداية نصرته المسلمين لدينهم ونهاية الانتصار العظيم. فالسورتان تفتحان المجال أمام علماء الاجتماع والباحثين كي يلاحظوا الفروقات بين المجتمعين ويحللوا سُنن تطور المجتمعات، وهذا أمر يحتاج من علماء الاجتماع والمحللين والدارسين إلى النظر والتفكير.

سورة يونس

سورة يونس (مكية) نزلت بعد الإسراء، وهي في المصحف بعد التوبة، وعدد آياتها 109 آيات.

هدف السورة

إنَّ هدف سورة يونس هو الإيمان بالقضاء والقدر...
ففي الحديث أن جبريل U جاء إلى النبي P فقال يا محمد أخبرني عن الإيمان، فقال له رسول الله P: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره... فالسورة تعالج هذا الركن الأخير من أركان الإيمان.

تساؤلات وتشكيك

إن هذه السورة تعالج مشكلة عند أشخاص كثيرين، والتي تتجلى في تساؤلات مثل:

- هل الإنسان مسير أم مخير؟!
- لماذا هدى الله هذا الشخص إلى الإيمان ولم يهد ذلك؟
- لماذا أنجى الله فلاناً ولم ينج فلان؟!
- ربنا خلقنا ويعلم كيف نتصرف، وفرض علينا ظروفاً هو الذي صنعها، فكيف يحاسبنا يوم القيامة؟
- الله كتب على البعض عدم الهداية، فلماذا السعي إلى العبادة؟ وبعض الناس نسألهم لماذا لا تصلون؟ فيجيبون: حتى يريد الله تعالى.

- طالما أن الله تعالى قد كتب عنده إن كنا من أهل الجنة أو من أهل النار، فلم العمل؟ فمهما فعلنا لن يغيّر هذا من الأمر شيئاً!

هذه السورة تعلّم قارئ القرآن كيف يرد على هؤلاء الناس المترددين (أو المشككين)، ويطمئن نفسه بالدرجة الأولى. فالبعض قد تصل به الوسوس إلى أن يتخيل أن الله ظلم فلاناً بكتبه من أهل النار (والعياذ بالله).

ولكي نردّ عليهم لا بد من طرح سؤال: ماذا يكون من يجبر شخصاً على فعل أمر ما ثم يعاقبه عليه؟

إنه يكون ظالماً وعابثاً بالتأكيد، والله تعالى منزه عن الظلم والعبث.. لذلك فهذه السورة ترد على هذه الافتراءات بطريقة لم يعهداها الناس من قبل...

الحكيم لا يعبث

تعالوا إذاً نعرف صفات ربنا سبحانه وتعالى، فإذا فهمنا أنه حكيم غير ظالم، يريد الحق وليس العبث، فهمنا أنه لا محل للسؤال أصلاً.

إن أفعال الله تعالى في الكون أفعال حكيم مدبّر، يرحم الناس، وليست أفعال ظالم يجبر الناس على أشياء ليس لهم يد فيها... فلا يصدر عنه سبحانه إلا الحكمة والتدبير والعظمة.

والسورة تؤكد هذا المعنى بطريقة رائعة، عن طريق التدبر في هذا الكون والتفكر في حكمة الله فيه، حتى نعرف هل يصدر عن الله العبث أم لا؟ إن السورة ستظهر لك أن كل ما في الكون إنما هو من حكمة الله وتدييره، فمحال أن يصدر عنه العبث سبحانه، فثق بحكمته وتوكل عليه.

الكتاب الحكيم

فمن أول آيات السورة نلاحظ وضوح المعاني السابقة: [تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ].

وللقرآن أوصاف كثيرة فما سر اختيار الحكيم هنا؟ حتى تعلم أن قضاء الله وكلامه لا يصدران إلا عن حكمة بالغة وتدبير محكم.

وفي الآية الثانية: [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسٰحِرٌ مُّبِينٌ].

أي هل تتعجبون من كون الرسالة قد أنزلت على محمد p... فالله تعالى ينزل رسالته على من يشاء وهناك حكمة وتدبير لاختيار الله I للرسول الذي يحمل الرسالة، ولذلك جاء في آية أخرى [اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ] (الأنعام، 124).

يدبر الأمر

وبعد ذلك تنتقل الآيات للحديث عن ملك الله I للكون وتدبيره في ملكه حتى تشعر بصفاته وتوقن بها وتدفع الظنون والأوهام. [إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَدْكُرُونَ].

وقوله تعالى: [يُدَبِّرُ الْأَمْرَ] يتكرر كثيراً خلال هذه السورة، حتى نعلم أنه حكيم ومدبر، فكيف نظن العيث يصدر عن حكمته سبحانه؟ كيف نظن الظلم في أفعاله وأنه جعل الإنسان مجبراً على المعصية لأنه كتبه من أهل النار؟

الحق عنوانها

ثم تأتي الآية التي بعدها [إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا...]. والحق هو نقيض العيث والصدفة، لذلك تكررت كلمة الحق في هذه السورة - التي تتحدث عن التسليم لقضاء الله وقدره - ثلاثاً وعشرين مرة، وهي أعلى نسبة لورود كلمة الحق في القرآن، 23 مرة في سورة عدد آياتها 109، بينما أكثر سورة ذكراً للحق بعد سورة يونس هي سورة آل عمران، 13 مرة في 200 آية، وبهذا يتضح الفرق

الواضح في النسبة، لأن سورة يونس تؤكد على ضرورة التسليم لله الحق في قضائه وتدييره.

ونتابع مع الآية (4):

[إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ].

فلينظر كل حائر وكل مشكك إلى ملك الله ولينفكر في تدييره وإدارته لملكه. فالآية حددت أن سبب تعذيبه لبعض البشر هو كفرهم به تعالى [... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ].

والآية التي بعدها تلفت نظرك إلى خلقه وتدييره:

ما خلق الله ذلك إلا بالحق

[هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ سَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ & إِنَّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ] (6).

إنها دعوة للتفكير في خلق الله I وتدييره في الليل والنهار... فهل يصدر مثل هذا التدبير إلا عن الحق تبارك وتعالى!... فالذي يدبر ذلك يستحيل عليه العبث، ويستحيل عليه إدخال الناس النار مجبرين.

عن تصدر هذه التساؤلات؟

توضح الآية السابعة من السورة نوع الناس الذين يعتقدون مثل هذه المعتقدات الباطلة في حق الله: [إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ & أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ].

وهذه ملحوظة مهمة أتت بها السورة: فمن الذي يطرح هذه الأسئلة ويشكك في حكمة الله؟ إنهم غير المتدينين والبعيدين عن طاعة الله، وهم يطرحون أسئلة كهذه ليرجحوا أنفسهم. ولم نسمع يوماً بشخص متدين ينقذ الطاعات ويشكك بأن الله تعالى أجبره على الطاعة، لذلك فالمتدينون لا يطرحون أبداً مثل هذه الأسئلة.. والآية السابقة تبين لنا أن أصل المرض الذي أصاب هؤلاء هو الغفلة عن آيات الله وعدم استشعار حكمته في أوضح صورها.

حكمة الله في أفعاله

وتستمر الآيات لتؤكد على نفس المعنى: الله تعالى لا يصدر عنه العبث، فكل أفعاله حكمة..

[قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ] (31) فلماذا الشك والريبة ما دمتم تقولون بأن الله يدبر الأمر؟

[فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ] اتقوا الله فيما تقولون... ونعود لنسمع كلمات [الْحَقُّ] و[حَقَّتْ] لتزيد من طمأنة قلوبنا: [فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ & كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] (32-33).

وبعد ذلك يقول I: [قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ] (34).

فيا من تتهمون الله بتدبيره... أين التسليم لله، كيف تحكمون! بأي طريقة تفكرون وأنتم تعيشون في هذا الكون... اسمع هذا القسم الرائع من جبار السماوات والأرض:

[وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ] (53).

وبعد ذلك يقول I: [أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (55).

حشد هائل من الآيات يصب في نفس المعنى ويركز على نفس المحور ليزيل من القلب أي شبهة وتساؤل.

أفعالكم هي السبب

إن تركيز الآيات على الحق والحكمة والتدبير يظهر أن ما يحدث للعباد إنما هو بسبب عملهم وسعيهم.

فلا يقع الهلاك من الله إلا بعد الظلم من البشر.. يقول تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] (13).

فالناس هم الذين يظلمون أنفسهم، ولا يجوز أن يتهموا الله بالظلم لما يصيبهم من عذاب ومصائب، بل يجب أن ينظروا ماذا فعلوا هم حتى أصابهم الله I بهذا العذاب.

ويظهر هذا المعنى جلياً في قوله: [وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...] (13).

متى وقع الهلاك؟ عندما ظهر ظلمهم وفسادهم. فأفعال البشر هي السبب الأول لما يحل بهم من العقوبات.

وتأتي آيات كثيرة لتخدم نفس المعنى: [وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ...] (27).

[هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ...] (30).

[كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] (33).

وبالمقابل، ترينا الآيات أن المثوبة الربانية لا تكون عن عبث، بل إنها رهن بمن استحقها: [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ...] (26).

الله أعلم بعباده

وإذا تابعنا قراءة الآيات، وجدنا أن السورة تنتقل إلى مفهوم جديد وسؤال مباغت:

كيف تتعجبون من قضاء الله وأفعالكم أنتم تجاه قضاء الله وقدره أشد غرابة؟
اسمع معي الآيات:

[وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ...] (12) هذه الآية تصور لنا مشهدين بشكل رائع: مشهد الإنسان المهموم الذي يدعو الله تعالى بأي طريقة (لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وفي هذه الصورة تتناقل وبطء، حتى إذا انتهت الأزمة كان تصرفه وغفلته سريعين (مر)... كأنه مر بدون أن يتوقف ليشكر أو يلتفت ليتدبر.

وفي آية أخرى: [وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرِّائِهِمْ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا] (21).

فهذه الآية تشرح كيف يقع القضاء والقدر، فإن كان بعض البشر مستغرباً من قضاء الله، فإنه تعالى يعلم من منكم سيشكر ومن منكم سيكفر، وتأني الآية التي بعدها لتوضح المعنى أكثر [هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا...] (22).

ولا يصفو القلب لخالقه إلا عند الشدة، ولا يرق إلا في الكوارث، فإذا مرت بسلام نسي اللجوء إلى خالقه من قبل... أنظر بالله عليك، ماذا بعد الريح الطيبة التي فرحت بها القلوب وذهلت عن صاحب النعمة: [... جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ] (22).

وما يحدث في أمواج البحر يحدث أيضاً بين أمواج الحياة وتقلباتها. فماذا يكون حال ركاب السفينة عند النجاة؟

[فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ] وتلك قمة

التناقض، وغاية الانحراف عن الحق، لأن الله غني عن البشر [يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ] (23).

فما علاقة هذا المثل بهدف السورة؟ كأن المعنى: لا تعجبوا من قضاء الله
فيكم لأنه يعلم من منكم سيشكر بعد رفع البلاء ويتوب، ومن سيعود إلى جرمه
ثانية!..

رسائل القدر

أحيانا يقع قضاء الله وقدره لأنه I أعلم كيف سيتصرف كل إنسان بعد رفع
البلاء، لأنه لا يوجد إنسان إلا وقد تعرّض لمواقف قبل أن يأتيه البلاء، ويظهر من
خلال المواقف كيف سيكون تصرفه بعد رفعه. فالإنسان يختبر بابتلاءات صغيرة
فيدعو الله Y، وقد يهلكه الله لأنه تعالى يعلم كيف سيتصرف العبد إذا ما رفع
عنه البلاء، كما تصرف في السابق مرات عديدة...

فالقضاء والقدر إنما هو بحكمة من الله I وليس عبثاً، وقد ندرك هذه الحكمة
وقد لا ندركها، وحتى لو لم ندرك الحكمة بعقولنا البسيطة فلا يجوز لنا أن نتهم الله
Y في حكمته، ولكن ينبغي التسليم والثقة المطلقة بالله والتوكل عليه، واليقين بأنه
هو الحكيم العليم الذي لا يظلم أبداً...

أنبياء الله والتوكل

لذلك جاءت قصص الأنبياء في هذه السورة لتؤكد على معنى التوكل على الله
عند دعوة الأنبياء لأقوامهم:

نوح: [... يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ ...] (71).

موسى: [وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن
كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ & فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ] (84-85).

فرعون وقوم يونس

ونصل إلى ختام السورة حيث تذكر لنا السورة قصتين لتوضيح ما سبق: فرعون، وقوم يونس.

فبعد أن أوضحت السورة في كثير من الآيات حكمة الله Y وتديبره، وتصرفات البشر حيالها.. ضربت السورة مثالين: الأول لفرعون الذي كذب بآيات الله، والثاني قوم يونس الذين كذبوا بالله أول الأمر.

وفي المثالين تجد أن النبيين ذهبا إلى البحر: موسى ويونس. وظل القومان على تكذيبهما حتى نزل بهم العذاب جميعاً، لكن الذي جرى هو هلاك فرعون وآله ونجاة قوم يونس...

يقول I: [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ] (90) فيظهر هنا إدعاء الإيمان، فيأتي الرد: [ءالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ] (91).

أما قوم يونس، فقصتهم شبيهة بقصة فرعون، وقد نجوا فيما أهلك فرعون. اسمع الآيات:

[فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنْتُ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ] (98).

فالعذاب كان قد نزل، ولكن الله كشفه عنهم بإيمانهم، فما الفرق بين فرعون وقوم يونس؟ فكلاهما قال آمنا! وكلاهما تركهم رسلهم لأنهم كذبوا؟ فلماذا أهلك فرعون فيما نجا قوم يونس؟ هل ظلم فرعون وحلبي قوم يونس؟ إنها مسألة رائعة في القضاء والقدر...

ألا يعلم من خلق...!؟

فإن الله I أعلم بما في الصدور، ففرعون لو رد لعاد لما كان عليه، فيما نجى الله Y قوم يونس U لأنهم لو ردوا لعادوا إلى الصلاح فاهلك فرعون ونجى قوم يونس، ودليل ذلك قوله تعالى مخاطباً فرعون:

[... ءالئنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ...] فهذا يعني أنه قد جاءت فرص كثيرة لفرعون من قبل هذا، لكنه كان يعود إلى إفساده في كل مرة. بل إنه رأى آية البحر وهو ينشق للمؤمنين فتبعهم بدلاً من أن يتفكر في تلك الآية، وظل يتبعهم حتى الغرق.

أما قوم يونس، فإن الله تعالى علم منهم صدق العودة، ولأنه رحيم، أعطاهم الفرصة. والدليل على ذلك أن بقائهم على الإيمان هو ما حصل فعلاً حين نجاهم الله Y [... كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ...] (98) فلقد بقوا طائعين لله I مؤمنين به، فاستمتعوا بنعم الله طيلة حياتهم في الدنيا، ففازوا وسميت السورة باسم نبيهم.

لماذا سورة يونس...!؟

ذكر اسم سيدنا يونس في هذه السورة في آية واحدة فقط، وهناك سور كثيرة جاء فيها ذكر هذا النبي الكريم أكثر من هنا. ولم يذكر سيدنا يونس في السورة بل ذكر قومه فقط (لأنه تركهم أصلاً وكان في بطن الحوت عند إيمانهم)، فما الحكمة؟ لقد سميت هذه السورة بسورة يونس حتى يبقى مثل قوم يونس شاهداً على حكمة الله، وأن الإنسان له دور فيما يحدث له ويقع عليه، لأنهم بعد التوبة استمروا على طريق الهداية رغم غياب نبيهم، كأن القصة شاهد ودليل أن حكمة الله كانت في محلها [وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا].

وقد تقول في نفسك: ولم لم يعط فرعون الفرصة، فقد يتوب هذه المرة... راجع الآيات (22 و23). وكأنها تقول لك: ألم تقرأ السورة؟ ولم توقن بحكمة الله؟ إن الله هو أعلم بفرعون منك، والقضاء والقدر لا يكونان إلا بحكمة من الله تعالى، وليس عبثاً، وقد تدرك الحكمة وقد لا تدركها، فثق بأن الله حكيم عليم لا

يظلم أحداً، وتوكل عليه.

كيف تتعامل مع قضاء الله؟

ثلاثة أوامر تختتم بها السورة لتكون درساً عملياً في الإيمان بالقضاء

والقدر:

سلم له - لا تلجأ إلى غيره - توكل عليه.

[وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ & وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ] (105)-
(106).

ولا يضعف إيمانك بالقضاء والقدر مهما كان لأن كل ما يقدره الله هو لخير

العباد ورحمتهم:

[وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]... (107) فسلم
لقضاء الله وقدره، تسلم في الدنيا والآخرة.

سورة هود

سورة هود (مكية)، نزلت بعد سورة يونس، وهي بعدها في ترتيب المصحف. وعدد آياتها 123 آية.

ثلاث سور متتالية بأسماء الأنبياء

هناك سور عديدة في القرآن سميت بأسماء أنبياء، ومنها ثلاث سور متتالية: يونس، هود، ويوسف. هذه السور تجمعها روابط عديدة، فهي أول سور في القرآن سميت بأسماء أنبياء، كما أنها نزلت بنفس الترتيب الموجود في المصحف، وفي نفس الفترة من المرحلة المكية، وهي فترة اشتداد المحنة على المسلمين وعلى النبي ﷺ. وهنا لا بد من أن نذكر قاعدة من قواعد القرآن في قصص الأنبياء: فعندما يكون اسم النبي هو عنوان السورة، فإن هدف السورة مرتبط لا محالة بقصة هذا النبي (كما رأينا في سورة يونس عليه السلام التي كان محورها التسليم لقضاء الله وقدره، وكانت قصة قوم يونس مثلاً رائعاً لفهم حكمة الله وتديبه). وهناك قاعدة قرآنية أخرى تشعرك بعظمة هذا الكتاب وروعته، وهي أن كل قصة نبي من أنبياء الله تختتم بآية أو مجموعة آيات تبين لك العبرة من القصة. فإذا أردت أن تعرف الرسالة الربانية التي تحملها السورة، فاقراً آخر سطر من قصة النبي الذي سميت السورة باسمه، قاعدة رائعة تتكرر بشكل معجزة في القرآن.

زلازل البلاء

نزلت السورة على النبي ﷺ في أحلك الأوقات وأصعبها، بعد عشر سنوات من البعثة. الاضطهاد في مكة شديد، والنبي ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة

إلى الحبشة، وأما من بقي من الصحابة في مكة فقد ظل يتعرّض لشتى أنواع العذاب. أما رسول الله فلم تكن الظروف التي يمر بها أفضل حالاً من الصحابة، فلقد مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه، وماتت زوجته خديجة بنت خويلد التي كانت تواسيه، وليس هذا وحسب بل إن النبي توجه إلى الطائف لدعوة أهلها فردوه ورموه بالحجارة ولم يعد أحد من أهل مكة يدخل في الإسلام ورفضت كل القبائل أن تنصر النبي ﷺ وأن تقبل هذا الدين.

ما أشبه الليلة بالبارحة

فالظروف التي مر بها النبي ﷺ والصحابة رضوان الله تعالى عليهم شديدة للغاية، وهي مشابهة كثيراً لما نمر به نحن من شدة على الإسلام والمسلمين. فجو السورة هذا مفيد جداً للشباب المتدين، فافتح معي عقلك وقلبك لفهم مراد ربنا من هذه السورة.

فعندما يعيش البشر في الضغوطات التي مر بها الصحابة، أو التي نمر بها اليوم، يصيبهم أحد هذه الأمور الثلاثة:

1. فقدان الأمل وتضييع المهمم وتوقف السير للإصلاح وترك العمل للإسلام.
2. التهور واللجوء إلى العنف والتصرفات غير المحسوبة من أجل التغيير بالقوة.
3. الركون للأعداء والارتقاء في أحضانهم والاستسلام الكامل لهم مع العيش في ظلهم.

ألا ترى مثل هذه الأنواع في مجتمعاتنا؟ فما الحل؟ وماذا تقول السورة لهؤلاء؟

هدف سورة هود: التوازن

السورة تعالج هذه الظواهر الخطيرة في آية محورية، تخاطب مشاعر المتدينين الذين يتألمون لما يحدث للإسلام من ظلم، وتخاطب الشباب المحبّ لدينه والمتحمّس لفعل أي شيء لنصرة الإسلام، لتقول لهم:

[فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ &

وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ] (112 - 113) لقد وردت هذه الآية في آخر السورة بعد أن ذكرت كل قصص الأنبياء قبلها لتأمرنا بثلاثة أوامر:

أ. الاستقامة: [فَأَسْتَقِم]، هي الاستمرار في الدعوة والصبر. فلا ينبغي على الداعية أن يتوقف عن الدعوة أو أن يفقد الأمل إذا واجهته المصاعب. والدعوة إلى الاستقامة تعالج المشكلة الأولى من المشاكل التي ذكرناها، وهي فقدان الأمل وضياع الهمم والتوقف عن الإصلاح.

ب. عدم الطغيان: [وَلَا تَطْغَوْا]، وهذا هو التعبير القرآني عن التهور واللجوء إلى العنف.

ج. عدم الركون: [وَلَا تَرْكُنُوا]، وهذا هو التعبير الشرعي القرآني عن الركون إلى الأعداء والارتقاء في أحضانهم، والاستسلام للحضارات الأخرى، والتقليد الأعمى، وأن يشعر المرء بفقدان الهوية وعدم الإنتماء لحضارته ودينه وإسلامه.

"شيبتي هود"

فهذه الأوامر الثلاثة هي العلاج للمشكلات الثلاث التي تصيب البشر حين يواجهون الأزمات والهزائم والأوضاع الحالكة المظلمة. فالتوازن مطلوب من المؤمن حين تواجهه الأزمات، دون طغيان وتهور، ودون الركون للأعداء. ويتحقق التوازن بالاستقامة على الحق كما أمر والاستمرار في طريق الدعوة والإصلاح رغم كل الظروف، وذلك من خلال تنمية مجتمعه وتقديم الخير للفقراء والمساكين، والنجاح في الحياة العملية.

ولأن الأمر بالتوازن صعب على النفس البشرية، لا بد للناس عموماً وللدعاة خصوصاً أن يتقنوا بالصحة الصالحة المعتدلة التي تعين على التوازن، لذلك نرى في الآية المحورية قوله تعالى: [وَمَن تَابَ مَعَكَ].

قف بينهما

وللحسن البصري كلام رائع في هذه الآية، حيث يقول: (سبحان الذي جعل اعتدال هذا الدين بين لاءين) وهي [لَا تَطْغَوْا] و[لَا تَرْكُنُوا]، وهي من اعتدال الإسلام وتوازنه في التعاطي مع مشاكل الحياة.

إن هذه السورة تعالج الوضع الذي نعيشه نحن اليوم تماماً، وهذا دليل على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان. فكأنها تخاطبنا نحن لتقول: [لَا تَطْغَوْا]... [لَا تَرْكُنُوا]... [فَأَسْتَقِم]... فرسالة السورة إلى المسلمين في كل زمان ومكان هي: اصبروا، واستمروا في الإصلاح، بتوازن واعتدال، دون أي تهور أو ركون.

بداية السورة: كتاب أحكمت آياته

بدأت السورة بقوله تعالى: [الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] (1).

ومن لطائف ترابط سور القرآن، أن السورة السابقة (سورة يونس) افتتحت أيضاً بالحكمة: [الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ] (يونس: 1). فالسورتان بدأتا بالحكمة، لكن ما الفرق بينهما؟

سورة يونس ركزت على حكمة الله في قضائه وقدره كما رأينا، أما سورة هود، فتحدثت عن حكمة الله في كتابه وآياته لترتكز على حكمة المؤمن في التعامل مع الواقع الشديد، من خلال الاستعانة بآيات الله الحكيم.

الإصرار على الدعوة بتوازن

والآية الثانية تظهر بوضوح معنى الإصرار على الدعوة بتوازن [أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ]. ثم تنتقل الآيات إلى إظهار تكذيب الأعداء للنبي ﷺ حتى يعيش قارئ القرآن مع الجو المحيط لنزول السورة [أَلَّا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ...].

وفي خضم هذه الآيات، تأتي الآية السابعة بمعنى لطيف: [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...]. فما علاقة خلق السماوات والأرض بجو السورة؟ إن التدرج سنة كونية في ملك الله تعالى، ولذلك خلق السماوات والأرض

في ستة أيام مع أنه كان يقدر تعالى أن يفعل ذلك في لمح البصر، وذلك لكي يعلمنا التدرج في الأمور والصبر وعدم الاستعجال.

والآية 11 تشير إلى نفس المعنى أيضاً: [إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...] مع أن أكثر آيات القرآن تأتي بقوله تعالى: [ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]. رأيت كيف أن وراء كل كلمة بل كل حرف من القرآن حكمة وكيف تتكامل آيات السورة الواحدة حول موضوع واحد. كيف لا والله تعالى يقول في أول السورة [كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ...].

ومن شدة التكذيب، تأتي الآية (12) لتقول للنبي ρ: [فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ...]. فهل تخلى الرسول عن بعض وحي الله، أو ضاق صدره عن تبليغ الدعوة؟! لا! وحاشا لله أن يحدث هذا... ولكن هذه الآية تهدف إلى تثبيته ρ، وتثبيت المؤمنين من بعده في كل زمان ومكان. فالمعاندون المكذبون يجادلون الدعاة جدلاً بلا جدوى، ولكن أيها المحب لدين الله [إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ] (12) فأنت تعمل أجيراً عند الله، وعليك أن تبلغ ما أمرت به دون أن تنظر إلى النتائج، فالله وحده هو الذي بيده تحقيق النتائج [وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ].

وتمضي أول 24 آية من هذه السورة لتكون رسالة واضحة للدعاة: التكذيب شديد، وله تأثير عليكم، فاثبتوا على دعوتكم، وابدلوا جهدكم، ثم دعوا الأمر لله وتوكلوا عليه!!

نماذج للاستقامة

وبعد هذه الآيات تسير السورة كلها بنفس الطريقة: ذكر قصص مختلفة لأنبياء الله تعالى، (نوح وهود وصالح وشعيب وموسى عليهم السلام)، والتركيز في كل قصة على تطبيق النبي للأوامر الثلاثة (الاستمرار [فَأَسْتَقِم] - عدم التهور [لَا تَطْغَوْا] - عدم الركون [لَا تَرَكَنُوا]).

نوح عليه السلام: 950 سنة

وأول قصة تأتي لتخدم معنى الاستقامة والثبات هي قصة نوح عليه السلام. وتجدر الإشارة أن سورة هود تحتوي على أطول قصة لسيدنا نوح في القرآن (حتى أنها أطول من سورة نوح نفسها)، فلماذا؟ لأن سيدنا نوح بقي 950 سنة في دعوة قومه دون أن يستجيبوا له، فيكون بذلك مثلاً وقوة في الاستقامة وعدم اليأس. **[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ & أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ]** (25 - 26) فالكلمات التي وجهها نوح إلى قومه هي نفسها التي افتتحت بها السورة: **[أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ]** (2) وكأنها تقول للدعاة: الرسالة واحدة والدعوة واحدة، والظروف التي واجهت كل الأنبياء هي نفسها، فاستقيموا واثبتوا كما ثبت نوح عليه السلام.

استقامة سيدنا نوح

ونرى ثبات سيدنا نوح واستمراره على دعوته في قوله تعالى: **[قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ]** (32). فقد ظلّ نوح يدعو قومه مئات السنين، فإذا كانت ظروفك أيها الداعية صعبة، فقارن نفسك بنوح عليه السلام، الذي ظل مستقيماً على طريق الدعوة، يدعو قومه بكل الطرق دون ملل أو كلل، حتى ملأوا هم منه وقالوا له: إئتنا بهذا العذاب الذي تتحدث عنه إن كنت صادقاً. وقبل ذلك ترينا الآيات مواقف مختلفة من جداله لهم والحجج والأساليب المستخدمة الآيات (28 - 31). وهكذا يظهر تطبيق سيدنا نوح للبند الأول من السورة **[فَاسْتَقِمْ]**.

البعد عن التهور في قصة نوح

إذا وضعت بنفس الظروف التي ووجه بها سيدنا نوح، وقيل لك: **[فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا]** (32)، ماذا ستفعل؟ هل ستتهور؟ هل ستضربهم؟ ماذا سيكون جوابك؟ أنظر كيف كان خطاب نوح مع قومه بعيداً عن التهور والعنف: **[قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ & وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]** (33 -

(34).

إنها لهجة رقيقة لا تهوّر فيها ولا عنف، فليس بيني وبينكم مشكلة، لكن الله تعالى هو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء.

واصنع الفلك

وتستمر الآيات حتى نصل إلى قوله تعالى: [وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ] (36). فماذا نفعل يا رب؟ نتركهم؟ فليغرقوا... لا، ما زال هناك أوامر ربانية وما زال الطريق طويلاً.

[وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ] (37).

إن صناعة الفلك تحتاج لسنين طويلة، فسيدنا نوح عاش في الصحراء، ولكي يصنع سفينة كبيرة في وسط الصحراء، فهو بحاجة لزراعة الشجر أولاً، وبعد ذلك يأخذ الخشب من الشجر، ثم يبني بالخشب سفينة ضخمة لتستوعب المؤمنين وتحمل من كل نوع من الحيوانات زوجين اثنين. أمر صعب وطويل الأمد، (بعض العلماء قالوا إنه استغرق مئة عام، والبعض قالوا مئتي عام، وآخرون قالوا ثلاثمائة عام) فلماذا لم تهلكهم يا رب كما أهلكت غيرهم من المكذابين؟ ولماذا لم ينبت الشجر بمعجزة بين ليلة وضحاها؟ الجواب: تعلموا أيها الدعاة الصبر والاستقامة على طاعة الله حتى ولو لم تروا النتائج وحتى لو كانت النتائج غير متوقعة أصلاً [وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ].

فسيدنا نوح علم أن لا أحد سوف يؤمن من القوم، لكنه أطاع الله تعالى وصبر. والداعية إلى الله يعمل أجيراً عنده، يأمره بزراعة هذا الحقل مثلاً، فيزرعه، حتى لو كان يرى أن هذا الحقل لن ينتج محصولاً... فالمهم أن ينفذ الأوامر، ويبدل جهده، ثم يترك النتائج لله سبحانه وتعالى... والمهم في الأمر أيضاً أنه سيأخذ أجره من الله تعالى في النهاية سواء أثمر الحقل أم لم يُثمر!!!

لا ركون حتى للولد

لعلك الآن تسأل نفسك: أين عدم الركون في قصة نوح؟ وأين تطبيق قوله تعالى [وَلَا تَرْكُنُوا]؟ والجواب على ذلك في قصة ابن نوح، والتي لم ترد في القرآن كله إلا في هذه السورة، فلماذا؟

لأن نوحاً قال: [رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ] (45).

فماذا كان الجواب الرباني؟

[قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ & قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (46)، (47).

إن السورة تحذّر من الركون لغير الحق، ولذلك تذكر لنا تبرؤ نوح من ابنه الذي مات على الكفر. فعاطفة الأبوة قد تدفع بالبعض إلى الركون لأبنائهم [فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...]. على الرغم من الأخطاء التي يقع فيها الأبناء، فأنت السورة لتعلمنا أنه لا ركون للباطل، ولو كان هذا الباطل معنا في عقر دارنا وبين أبنائنا الذين هم من صلبنا، وكان سيدنا نوح مثلاً وقدوة في التبرؤ من الباطل وعدم الركون إليه.

التعقيب: فاصبر

وكما ذكرنا سابقاً، فإننا سنقرأ في آخر كل قصص الأنبياء تعليقاً على القصة وتعقيباً عليها في آخر آية منها. وفي قصة نوح نقرأ قوله تعالى: [تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ] (49).

فالرسالة التي تحملها القصة هي قوله تعالى: [فَاصْبِرْ...]. صبراً إيجابياً فيه عمل وإنتاج دون تهور أو ركون.

أنبياء الله تعالى والتوازن

وكل قصص الأنبياء المذكورة في السورة (شعيب وصالح ولوط وهود) تخدم نفس المعنى، وتشكل تطبيقاً عملياً للآية المحورية في السورة (الآية 112)، بمحاورها الثلاثة:

1. [فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...] (112).

2 [وَلَا تَطْغَوْا] (112).

3 [وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا...] (113).

فإذا أخذنا مثلاً قصة شعيب - مع العلم أنك تستطيع أن تطبق هذه القواعد على كل القصص - فإننا سنرى فيها ما يلي:

الاستقامة على الثبات والإصلاح بتوازن [إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ] (88).

وحدة المنهج الذي دعا إليها كل أنبياء الله (وحتى استعمال نفس الكلمات)، [وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ] (90).

شدة الوضع والتكذيب [قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ...] (91).

عدم التهور في الرد [قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ] (92)، والملاحظ أنه استخدم نفس أسلوب سيدنا نوح في رد الأمر إلى الله، فهو الذي سيحاسبهم [إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ] (92).

وبالمقابل، عدم الركون أو المداهنة يتجلى واضحاً في قوله [وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ] (93).

إلى أن جاءت الآية (94) بنصر للنبي والمؤمنين معه [وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...].

فيا شباب، يا من تحبون الإسلام وترغبون بخدمته ونصرته، تعلموا من هذه

السورة الكريمة ومن قصصها العديدة كيفية التوازن في الدعوة عند اشتداد المحن والابتلاءات.

لماذا سميت السورة بسورة هود؟

ويبقى سؤال أخير: لماذا سميت السورة بسورة هود، مع أن قصة نوح أطول من قصة هود (عليهما السلام) في هذه السورة.

الجواب: إن المحاور الثلاثة في السورة (الاستقامة وعدم الطغيان والتهور وعدم الركون) قد ظهرت في قصة هود بشكل قوي وواضح أدى إلى تسمية سورة التوازن وعدم الركون باسمه.

فقد قال لقومه بعد أن اشتدّ التكذيب: [... قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ & مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ] (54 - 55). أرايت كلمة في التحدي أقوى من هذه الكلمة؟

وإلى جانب ذلك تتجلى استقامة سيدنا هود وثباته على الطريق المستقيم في قوله:

[إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (56).

ثم [فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ] وهنا يظهر عدم التهور والعنف.

فقد جمعت هذه الكلمات بقوة محاور السورة كلها: لا تهوّر أو لا طغيان، لا ركون واستقامة، ووضعت المسؤولية على كل من سيأتي بعد سيدنا هود في الإصرار على الدعوة ورفع الظلم وعدم الركون، ولذلك يقول النبي ﷺ: "شيبتي هود"، وذلك لقوة الكلام فيها في الحث على الاستقامة على طريق الله ومنهجه، ولقوة سيدنا هود في كونه مثلاً على التوازن في الاستقامة دون تهور ولا ركون.

تذكّر الآخرة طريق التوازن

وقبل ختام السورة، تأتي الآيات (103 - 108) لتذكّر بالآخرة، لتطمئن المؤمنين بأن الحياة - ولو كانت تنطوي على واقع مظلم وغير عادل - ليست هي الأصل، وأن الآخرة هي التي ستحقق العدل الإلهي، فاصبروا على الواقع الأليم في الدنيا.

يقول الله تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ & وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ & يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ & فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ & خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ & وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ].

أمور تعين على الاستقامة

ويأتي ختام السورة، وفيه الآيتين المحوريتين اللتين ذكرناهما:

[فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ & وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ] (112-113).

فما الذي يعين على الاستقامة وعلى تنفيذ هذه الأوامر الثلاثة؟ كيف يبقى المرء ثابتاً وصابراً ويأخذ بيد الناس من غير تهور ولا ركون؟

الجواب: [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّهُ أَحْسَنَتْ يَدَهِنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ & وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ] (115).

يعينك أيها الشاب على [فَأَسْتَقِمْ]:

العبادة [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ].

الصبر [وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ] (115).

العمل والإصلاح والدعوة إلى الله [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ] (117).

والملاحظة أن سورة يونس وسورة هود وسورة يوسف نزلت سوياً في فترة واحدة، وترتيبها في المصحف هو نفس ترتيب نزولها. نزلت في محنة رسول الله ﷺ والصحابة بمكة بعد وفاة خديجة وأبو طالب وكلها تعالج مشاكل متقاربة. وسبب اختيار اسم نبي لعنوان كل سورة من السور الثلاث هو أن قصته فيها العبرة وهي تصب في محور السورة وهدفها. وهذه السور الثلاث تكلمنا الآن لأننا في نفس المرحلة ونفس الشدة والظلمة فلنستقم على طاعة الله، ولنحذر التهور واللجوء إلى العنف، ولنحذر كذلك الركون إلى حضارات أخرى والارتقاء بأحضانها ونستسلم ونعيش في ظلها وننسى انتماءنا لإسلامنا ونفقد هويتنا، هذا هو محور سورة هود.

سورة يوسف

سورة يوسف (مكية)، نزلت في توقيت مقارب لنزول السورتين اللتين قبلها، يونس وهود، وفي نفس الظروف. وهي أطول سورة تحتوي على قصة في القرآن، فقد احتوت على قصة سيدنا يوسف عليه السلام من بدايتها لنهايتها. عدد آياتها 111 آية.

أحسن القصص

قال عنها علماء القصص أنها احتوت على جميع فنون القصة وعناصرها، من التشويق، وتصوير الأحداث، والترابط المنطقي، واستخدام الرمز.

فعلى سبيل المثال، نجد أن هذه القصة قد بدأت بحلم رآه سيدنا يوسف عليه السلام وانتهت بتفسير ذلك الحلم. ونرى أن قميص يوسف الذي استُخدم كأداة براءة لإخوته، كان هو نفسه الدليل على خيانتهم... هذا القميص استُخدم بعد ذلك كأداة براءة ليوسف نفسه، فبرأه من تهمته التعدي على امرأة العزيز!!

ومن روعة هذه القصة أن معانيها وأحداثها متجسدة أمام قارئها وكأنه يراها بالصوت والصورة، وهي من أجمل القصص التي يمكن أن تقرأها ومن أبدع ما تتأثر به. نحن لا نحتاج لشهادة علماء القصة فيها، لأن الله نفسه هو الذي يشهد على جودتها وروعيتها:

[نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ] (3).

لكن هذه السورة لم تأت في القرآن لمجرد رواية القصص، لأن هدفها يتلخص في آخر سطر من القصة وهو قوله تعالى: **[إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ]** (90).

فالخوار الأساسي للقصة هو:

يعلم ولا نعلم

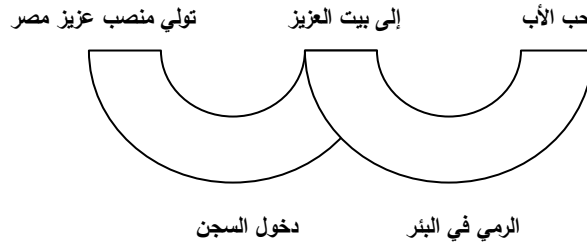
إن هدف سورة يوسف هو إعلامنا أن تدبير الله تعالى للأمر يختلف عن النظرة البشرية القاصرة، وكأنها تقول لنا: (ثق في تدبير الله، واصبر ولا تيأس).

إن الأحداث في سورة يوسف غريبة، وهي تسير بعكس الظاهر، فيوسف ولد محبوباً من والده، وهذا الأمر بظاهره جيد ولكن نتيجة هذه المحبة كانت أن ألقاه إخوته في البئر. ومع أن إلقاء يوسف في البئر هو في ظاهره أمر سيئ، لكن نتيجة هذا الإلقاء كانت أن أصبح في بيت العزيز. ووجود يوسف في بيت العزيز هو أمر ظاهره جيد، لكنه بعد هذا البيت ألقى في السجن. وكذلك سجن سيدنا يوسف أمر في غاية السوء، لكن نتيجة هذا السجن كانت تعيينه في منصب عزيز مصر...

فالله سبحانه وتعالى يخبرنا من خلال قصة يوسف عليه السلام بأنه هو الذي يدبر الأمور، وقد تكون نظرة المرء للأحداث التي تصير معه على أنها سيئة، لكن هذه النظرة قاصرة عن إدراك تقدير الله تعالى وحكمته في قضائه.

طريق المنحنيات

وإذا راقبنا حياة يوسف عليه السلام من خلال قصته نجد أن فيها ثلاث نقاط قمة ونقطتين في القعر، وباختصار يمكننا أن نختصر هذه النقاط كما يلي:



فكانت المراحل الصعبة في حياة سيدنا يوسف تتفاوت في شدتها، فأيهما أصعب؟ البئر أم السجن؟ إن السجن دام تسع سنوات، بينما المكوث في البئر دام لثلاثة أيام فقط. لكن هذه الأيام الثلاثة كانت أصعب من سنوات السجن لأنه كان غلاماً صغيراً. ورغم كل هذه الصعوبات، نرى سيدنا يوسف - وسط هذا كله - ثابت الأخلاق لا ينحني مع منحنيات الحياة.

أنت عبد فيهما

فإذا مرّت عليك، أخي المسلم، فترات ضيق أو بلاء، فتعلّم من سيدنا يوسف عليه السلام، الذي كان متحلياً بالصبر والأمل وعدم اليأس رغم كل الظروف. وبالمقابل، تعلّم منه كيف تواجه فترات الراحة والاطمئنان، وذلك بالتواضع والإخلاص لله عز وجل...

فالسورة ترشدنا أن حياة الإنسان هي عبارة عن فترات رخاء وفترات شدة. فلا يوجد إنسان قط كانت حياته كلها فترات رخاء أو كلها فترات شدة، وهو في الحالتين، الرخاء والشدة، يُختبر.

وقصة يوسف عليه السلام هي قصة ثبات الأخلاق في الحالتين، فنراه في الشدة صابراً لا يفقد الأمل ولا ييأس، ونراه في فترات الرخاء متواضعاً مخلصاً لله عز وجل.

بين السورة والسيرة

وكما ذكرنا سابقاً، فقد أنزلت سورة يوسف في نفس الظروف التي أنزلت فيها سور يونس وهود، أي عند اشتداد البلاء على النبي ﷺ وصحابته. هذه الظروف كانت مشابهة لتلك التي واجهها يوسف عليه السلام.

فسيدنا يوسف ابتعد عن أبيه، والنبي ﷺ حين نزلت هذه السورة في السنة العاشرة من بعثته كان قد فقد عمه أبو طالب وزوجته خديجة. سيدنا يوسف ترك فلسطين بلد أبيه وذهب إلى مصر وتغرّب عن أهله، والنبي ﷺ بعد

ستين من نزول السورة ترك مكة وهاجر إلى المدينة. فسورة يوسف كانت تؤهل النبي لما هو مقدمٌ عليه من محن وابتلاءات، وتهيء المؤمنين جميعاً لأوقات الشدة التي سيواجهونها خلال حياتهم، لذلك يقول عنها العلماء: "ما قرأها محزونٌ إلا سُرِّي عنه!!!".

يوسف الإنسان

ومن الملاحظات المهمة أن السورة ركزت على حياة يوسف البشرية، أي على يوسف الإنسان لا على يوسف النبي. وتسلط الضوء على يوسف عليه السلام كنبى كان في سورة غافر حين قال موسى لقومه: [وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ...] (34). فتجربة يوسف في هذه السورة هي تجربة إنسانية بحتة، وكانت نهايتها نجاحاً كاملاً في الدنيا والآخرة: فلقد نجح في الدنيا وتفوق في حياته عندما أصبح عزيز مصر، ونجح في الآخرة حين قاوم امرأة العزيز وقاوم مغريات نساء المدينة. فالسورة هي باختصار قصة نجاح إنسانية. إنها قصة نجاح إنسان صبر ولم ييأس بالرغم من كل الظروف التي واجهها، والتي لم يكن لإنسان أن يتوقع نجاحه، فمن السجن والعبودية وكرهية إخوته له إلى الغربة، إلى مراودة امرأة العزيز له عن نفسه، إلى تحمّل الافتراء والاتهامات الباطلة...

أين المعجزات في القصة؟

وإلى جانب ذلك، نلاحظ أن السورة لم تشر إلى تأييده بمعجزة خلال هذه الظروف التي واجهته، (قد يرد البعض بأن الرؤيا هي معجزة) لكننا نقول إن أي إنسان قد يرى رؤيا، ولكن الذي حصل وركزت عليه السورة أن الله سبحانه وتعالى قد هياً له الظروف وهياً له فرصة النجاح كما يهياً لكل شخص منا (كتعليمه تفسير الرؤى كما قال تعالى: [وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ] (6))، لكن نجاح سيدنا يوسف كان في الاستفادة من المؤهلات التي أعطاه الله إياها لينجح في حياته.

(لَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ)

إن قصة يوسف قصة نجاح إنسان مرّت عليه ظروف صعبة، لم يملك فيها أي مقوم من مقومات النجاح، لكنه لم يترك الأمل وبقي صابراً ولم ييأس. وآيات السورة مليئة بالأمل، ومن ذلك أن يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه الثاني، أي عندما صارت المصيبة مصيبتين، قال: [وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] (87).

هذه الآية لا تعني أن اليأس كافر، بل إن معناها أن الذي ييأس فيه صفة من صفات الكفار، لأنه لا يدرك أن تدبير الله سبحانه وتعالى في الكون لا يعرفه أحد، وأن الله كريمٌ ورحيمٌ وحكيم في أفعاله.

النجاح من الله

ومن عظمة هذا النبي الكريم، أنه حين نجح في حياته ووصل إلى أعلى المناصب، لم تنسه نشوة النصر التواضع لله ونسبة الفضل إليه سبحانه. فقال في نهاية القصة: [رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ] ... (101).

وانظر إلى تواضعه في قوله [وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ]، وكأن الصالحين سبقوه وهو يريد اللحاق بهم. وهكذا نرى أن سيدنا يوسف نجح في امتحان السراء بشكر الله تعالى والتواضع له، كما نجح في امتحان الضراء بالصبر والأمل...

أنت لها

وكان التعقيب على تجربة يوسف عليه السلام، آية رائعة، ليطمئن قلب النبي ρ إلى نصر الله ووعدده، ولتسمعها أمته من بعده وتوقن بها. إسمعها معي بقلبك وروحك:

[حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ] (110).

خلاصة التجربة

ونصل في نهاية السورة إلى قاعدة محورية، قالها سيدنا يوسف عليه السلام بعد أن انتصر وبعد أن تحققت جميع أمنياته: **[إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ]** (90).

إن قصة يوسف تعلّمنا أن من أراد النجاح ووضع هدفاً نصب عينيه يريد تحقيقه فإنه سيحققه لا محالة، إذا استعان بالصبر والأمل، فلم ييأس، ولجأ إلى الله **[إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ]** (90). إن سيدنا يوسف - في هذه الكلمات - يلخص لنا تجربته في الحياة، والتي هي كما قلنا، تجربة إنسانية بشرية.

فمن أراد النجاح في الحياة فعليه بتقوى الله أولاً، واللجوء إليه، والصبر على مصائب الدنيا لا بل وتحدي المعوقات من حوله والتغلب عليها. إن الصبر المطلوب هنا هو صبر إيجابي ومثابر، لا يضيع صاحبه أي فرصة لتعلم مهارة ما، لا بل ينتظر كل فرصة تسنح له كما فعل سيدنا يوسف عليه السلام، (فهو استفاد من وجوده في بيت العزيز مثلاً في تعلم كيفية إدارة الأموال، وهذا سبب قوله بعد ذلك: **[قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ]** (55)).

يا شباب، تعلّموا من سيدنا يوسف النجاح في حياتكم العملية، والتفوق في الدنيا والآخرة، بالعلم والعمل من جهة، وبمقاومة الشهوات والصبر عنها، لتفوزوا بإذن الله بجنة النعيم.

سورة الرعد

سورة الرعد (مدنية)، نزلت بعد سورة محمد، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة يوسف، وعدد آياتها 43 آية.

قوة الحق

سورة الرعد من أروع سور القرآن، ورسالتها تقول: الحق قوي راسخ، وان لم يظهر أمام الأعين، والباطل مهزوم ضعيف، فهو - وان كان ظاهراً متفشيّاً - لكنه هش لا قيمة له

هذه الحقيقة البسيطة يغفل عنها الكثير من الناس، فينخدعون ببريق الباطل الزائف. هذا الباطل قد يأخذ أشكالاً متعددة، من مشاهد إباحية متفشية، أو معاص منتشرة، إلى موظف أو تاجر يكذب ويخدع في عمله، إلى أمة ظالمة تعتدي على أمة الإسلام وتأخذ حقوقها، كلها أشكال مختلفة لقوة الباطل الهشة.

أثر الباطل في الناس

هذه الحقائق إذا غابت عن أعين الناس، وانخدعوا بالباطل، يخافون منه، فيستخفون بالحق الذي معهم، أو يحاولون أن يقلدوا هذا الباطل. فنرى كثيراً من الناس يقولون أن فلاناً ناجح في تجارته عن طريق السرقة والغش والخداع في عمله، وبما أن الكل يفعل هذا فلا ضرر من تقليدهم.

لهذه النوعية من الأشخاص، تأتي السورة لتقول: أن قوة الباطل مهما ظهرت وانتفشت، فهي هشة، ليس لها أي جذور في الأرض. ومهما توارى الحق أو اختفى من أعين الناس، فهو راسخ متين في الأرض.

الكتاب المقروء والحق

ومن أول آية تبدأ السورة بالتأكيد على أن الله تبارك وتعالى هو الحق، وأن كتابه المنزل من عنده هو الحق:

[المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ].

وبعد أن ذكرت أول آية كتاب الله تعالى، تنتقل الآيات 2 و3 إلى ذكر قدرة الله عز وجل في الكون، وكأنها تقول للناس جميعاً: إن كنتم تكذبون بالكتاب المقروء (القرآن)، فتعالوا ننظر إلى كتاب الله تعالى المنظور (والذي هو عبارة عن الكون كله):

[اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ] (2).

[وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ] (3).

فله تعالى كتابان في الكون، كلاهما يدل عليه وكلاهما يقوي الآخر ويدل عليه: فالكتاب المقروء (القرآن) يطالب المسلم بالنظر في الكتاب المنظور (الكون)، من خلال آيات كثيرة كهذه الآيات.

وبالمقابل، فإن الكتاب المنظور يزيدك إيماناً بالقرآن.

الكتاب المنظور والحق

فمن هو المدبّر؟ ومن هو القادر؟ من الذي يملك الكون؟ أتبعونه أم تتبعون الباطل؟

ولذلك تتابع السورة حديثها عن كتاب الله المنظور (الكون) وكيف يدل على عظمة الخالق جل وعلا:

[وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفْضَلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] (4).

رحلة في ملك الله

ومن روعة السورة أنها تهبط بك في ملك الله تعالى درجة درجة، لتأمل الكون وآياته من أعلى إلى أسفل. فلو تأملنا في الآيات من 2 إلى 4، لوجدنا أن الآيات بدأت بالسموات، ثم انتقلت إلى الشمس والقمر، فالأرض والجبال والأنهار، إلى تقسيم الأراضي الزراعية (قطع متجاورات) وتنوع ثمارها. كأنك تنزل بالطائرة من فوق لتحت، وكتاب الله معك كدليل يدللك على هذه الآيات ويقول لك: أنظر إلى ملك الله تعالى من فوق إلى تحت، من رفع السماوات بلا عمد لغاية تقسيم الأراضي، وكيف أن الماء الذي يسقي كل أنواع الزروع هو ماء واحد يأتي من عند الله.

فعبج قولهم

وبعد كل هذه الآيات والدلائل، يأتي التعقيب من الله تعالى: [وَأِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَأْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ..] (5).

فهل تستغربون، بعدما رأيتم كل هذا الملك في الكون، كيف أن الله تعالى قادر على أن يحيي الناس بعد موتهم؟

كيف يمكن لأي صاحب عقل سليم أن يشك في قدرة الله تعالى؟ لذلك تنتقل الآيات التي بعدها إلى التركيز على نوع آخر من قدرته تعالى، وهي القدرة على جمع المتناقضات في الكون.

لا يجمعها إلا الله

تبدأ السورة باستعراض المتناقضات في هذا الكون العجيب، 32 ظاهرة متناقضة في طبيعتها، يستحيل على أحد أن يجمع بينها، إلا الله جل وعلا. أنظر

إلى أسرار عظمته من خلال هذه المتناقضات: [تَغِيضُ الْأَرْحَامُ... تَزْدَادُ] (8).
[أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ]
(10).

[خَوْفًا وَطَمَعًا] (12) - [طَوْعًا وَكَرْهًا] (15) - [نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...
الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ... الظُّلْمَتُ وَالنُّورُ] (16).
[الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ] (17) - [يَبْسُطُ... وَيَقْدِرُ... الدُّنْيَا... الأَخِرَةَ] (26)
[يَمْحُو... وَيُثَبِّتُ] (39).

وكأن هذه الآيات الرائعة تقول لنا: كيف لا تسلمون لله، وهو الحق الكامل الذي يملك الكون بكل متناقضاته ويجمع بينها، لتؤكد على المحور الأصلي للسورة، وهو أن الحق قوي راسخ، وأن الباطل ضعيف إلى زوال.

السعادة الوهمية

وتمر الآيات، إلى أن تصل بنا إلى ثلاثة أمثلة تخدم هدف السورة بشكل رائع ومعجز:

وأولها كان هو المفتاح لفهم السورة واستنتاج المحور الذي قلناه في أول السورة.
اقرأ معي الآية 14:

[لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ] يا شباب، امشوا في طريق الله. لأن الحق الكامل هو طريق الله [لَهُ دَعْوَةُ الْبَاطِلِ]. فماذا عن الباطل؟ ما هو شكله؟ [وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ].

والله الذي لا إله إلا هو، لن تجد تصويراً للحق والباطل أكثر جمالاً من هذا التصوير الفني القرآني.

فالناس التي تجري وراء الباطل يصورها لنا ربنا تبارك وتعالى بشخص ينظر في المياه ويحاول أن يلتقط فمه، وما هو ببالغه. وبالتالي فإن كل من يمشي وراء الباطل

سيظل قلبه يجري وراء السعادة، هذه السعادة الواهمة التي يعتقد أنها كأس خمر يشربها، أو أغنية ماجنة يجري وراءها ويردها، أو في مال حرام يأخذه... لكنه لن يبلغ السعادة تماماً كالرجل الذي يحاول أن يلتقط فمه من انعكاس صورته في الماء [وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ] (14).

يا شباب لا تنخدعوا بالباطل، ولو كان براقاً وزاهياً، ولو أخذ شكل حفلات يجتمع بها الشباب والبنات، ليسودها الرقص والمجون، ولو أعطاه البعض اسم الشجاعة والتقدم وكسر التقاليد... الباطل زاهق لا محالة، والحق هو الأصل.

الباطل... زيد يطفو على صفحة الماء

ويضرب لنا ربنا مثلاً رائعاً آخر، ليؤكد على أن الحق راسخ قوي وإن كان خفياً، وأن الباطل هش لا قيمة له، وإن كان على السطح وانتفش، اسمع معي الآية 17: [أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا]: الماء النازلة من السماء تمثل الحق والخير الذي ينزل مع الوحي من السماء. فماذا كان أثر هذا الماء؟ [فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا].

أنظر لقوته وعظمته، وكيف دخل في الوادي ليحمل الخير للناس، فماذا حدث؟ [فَأَحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا] (17).

أي أشياء لا قيمة لها من قش وفضلات، تجمعت على سطح المياه، فغطت الماء، بحيث أنها غطت المادة القيمة.

فصار الخير مغموراً تحت، والماء الذي سيزرع به تحت. أما الظاهر، فهو القش والفضلات التي لا قيمة لها (الزيد).

ويأتي مثل رائع آخر: [وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلَهُ] (17).

فإذا وضعت قطعة ذهب في النار، لتختبر صفاءها ونقاوتها، فإن الشوائب في داخلها ستصعد إلى السطح، ويبقى المعدن النفيس تحت، نفس مبدأ المياه. كأن ربنا يقول لنا: هذا ماء وهذا نار، لكن المبدأ يبقى نفسه، والحق والباطل تبقى

أشكالهم واحدة وحقيقتهم واحدة. فدائماً سيظهر الباطل على السطح وسيبقى الخير تحت، لكن الخير راسخ وإن لم تره، والباطل زائل وإن علا وطفا فوق السطح.

كذلك يضرب الله الحق والباطل

لذلك يأتي تعقيب واضح على هذين المثليين ليؤكد انسجامهما مع هدف السورة: [كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ] (17). فماذا يكون مصير الإثنين؟ [فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ] (17).

فهي نعيش للحق، ومع أهله وأصحابه، الذين تحدثت عنهم الآية 14: [لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْأَحْسَنَى...].

لماذا "الرعد"؟

ويبقى سبب تسمية السورة، فلماذا اختار ربنا الرعد ليسي السورة باسمه؟ لأن الرعد نموذج للتناقض، فهو من ناحية علمية، يحمل في طياته شحنات متناقضة، سالبة وموجبة. ومن ناحية إيمانية، فهو يظهر الرعب والخوف، لكنه يحمل الخير والمطر للناس. صوته رهيب من الخارج، لكن باطنه يسبح الله، اسمع قوله تعالى

[وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ] (13).

وكأن آيات الله الكونية في السورة (وعلى رأسها الرعد) توجه لنا نفس الرسالة، وهي أن لا ننخدع بظاهر الأشياء، بل ننظر إلى باطنها.

عظمة القرآن

وبعد أن عدت الآيات أثر كتاب الله المنظور (الكون) في إيضاح الحق والباطل، يأتي مثال أروع: كتاب الله المقروء.

[وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى
بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا...] (31).

ومعنى هذه الآية أنه لو كان هناك شيء يمكن أن يحرك الجبال أو يسير الأرض أو يحيي الموتى، لكان هذا القرآن. وكأن المعنى: أن هذا الكون الرائع لا يحركه إلا هذا القرآن. لماذا؟ لأنه الحق الكامل في الأرض، مصداقاً لقوله تعالى [لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ] (14).

من فضلك، اقرأ سورة الرعد، وعش مع الحق الذي ينزل من عند ربنا، فالحق هو كلام الله، هو القرآن، وهو طريق الخير والصلاح. وإياك بعد أن قرأت هذه السورة الكريمة أن تنخدع بالباطل مهما انتفش وعلا على ظهر الحق، لأنه أولاً وآخرأ هس ليس له أي جذور.

سورة إبراهيم

هدف السورة: نعمة الإيمان ونقمة الكفر

كثير من الناس إذا سئل: ما هي أعظم نعم الله عليك؟ سيجيب بالأمور المادية (الزوجة أو الأولاد أو البيت أو المال)، وإذا سئل بالمقابل عن أعظم مصيبة، سيذكر المشاكل الدنيوية وخسارة المال وضياع التجارة... فتأتي سورة إبراهيم لتصحح هذا المفهوم وتوضح أن أعظم نعمة في الوجود هي نعمة الإيمان وأن أسوأ نعمة هي نعمة الكفر والبعد عن الله تعالى...

هل تستوي الظلمات والنور...

لذلك فإن السورة هي عبارة عن مقابلة مستمرة بين الحق والباطل، بين أهل الإيمان وأهل الكفر، بين النور والظلمات.. وبدايتها واضحة في هذا المعنى: [الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ] (1) وكأن المعنى: أيها الإنسان أنظر إلى الظلمات والنور، وتأمل نعمة الله تعالى واختر بينهما..

وجهان ليوم واحد

وتؤكد الآية الخامسة على نفس المعنى في قصة موسى عليه السلام: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ] (5) فما علاقة أيام الله بالصبر والشكر؟ إن أيام الله هي الأيام التي أهلك الله فيها الظالمين في كل قوم من الأقوام ونجى فيها الصالحين، فكانت نعمة على المؤمنين ونقمة على

الكافرين. والمؤمن يتخذ من تلك الأيام عبرة تعينه على الصبر وتحمل الأذى كما تحته على الشكر على نعمة الإيمان [إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ].
فمضى سيدنا موسى ليبلغ رسالة ربه كما أمر وليذكرهم بأعظم نعم الله عليهم:

[وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ أَيْدِي فَِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ] (6).

طريق الله نعمة وعزة، والبديل لا يكون إلا صغاراً وذللاً في الدنيا، كما بينت الآية على لسان سيدنا موسى.

(لئن شكرتم لازيدنكم)

ثم تأتي قاعدة عامة ووعد رباني لكل من يشكر نعم الله [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] (7).

ومع أن الآية تنطبق على كل نعم الله، لكن ورودها في وسط الآيات التي تتحدث عن نعمة الإيمان، يشير إلى أهمية شكر نعمة الإيمان بشكل خاص، حتى يزيدنا الله من هذه النعمة، وإلا فإن الله غني عن العالمين: [وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ] (8).

رسالة الأنبياء

وتبدأ الآيات بعد ذلك في الكلام على المواجهة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ولأن موضوع السورة هو نعمة الإيمان ونقمة الكفر، فإنها لا تتكلم عن كل نبي لوحده، وهذا يخالف منهج السور السابقة التي كانت تتحدث عن كل نبي مع قومه، أما هذه السورة فإنها تصوّر كل الأنبياء مع كل الكفار، كما في قوله تعالى: [قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ]، [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ]، [قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَا اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ] (10).

هل تفكرت يوماً في أهمية هذه النعمة؟ ان الله تعالى بعزته وجبروته يناديك ويدعوك ليغفر لك ذنوبك وهو الغني عنك؟

واسمع إلى تأكيد الرسل مرة ثانية على أن ما هم فيه من إيمان ومعرفة بالله تعالى هو أعظم النعم [... وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...] (11).

نعم... ونقم

وتتوالى أنواع النعم والنقم في السورة:

فيأتي قوله تعالى: [وَلَنُصَلِّنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ] (14).

وتأتي مقابلها آيات شديدة في التحذير من نقمة الله:

[مَنْ وَرَّأَيْهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ & يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَّأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ & مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...] (16-18).

آيات كثيرة تتواصل، إلى أن تصل بنا إلى خطبة إبليس في جهنم، والتي هي بمثابة قمة نقمة الكفر على أصحابه.

خطبة إبليس

[وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي] (22).

تخيّل حسرة من سيسمع هذا الكلام! كيف تستجيب له وهو سيتبرأ منك بهذه الكلمات...

[فَلَا تُلْهُمُونِي وَأَلْهَمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (22)... فهل

هنالك نعمة أشد من ذلك؟!..

الكلمة الطيبة..

وتصل الآيات إلى آية محورية تشير إلى أن أعظم نعمة هي نعمة الإيمان، يضرب الله لنا فيها مثلاً: [مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ] ولقد ضرب الله هذا المثال لأن الناس يظنون أن نعم الله إنما هي مادية، فيعلمنا الله تعالى بأن كلمة واحدة، نعمة واحدة، هي أعظم من كل النعم المادية التي يراها الإنسان... [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ & تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] (24 - 25) فكما أن الشجر يشمر ثماراً طيبة، فكذلك شجرة لا إله إلا الله، الراسخة الجذور، العالية الفروع، تثمر أشخاصاً مؤمنين (كأهل القرآن والدعاة إلى الله والإيجابيين وغيرهم من أهل الخير المؤمنين..). وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، حسنات وأعمالاً صالحة، تبقى لصاحبها صدقة جارية بعد موته.

وبالمقابل فإن كلمة الكفر هشة، خبيثة، لا جذع لها ولا أصل: [وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ] (26).

لا تبدل نعمة الله

وتمضي آيات السورة لتصب في نفس المحور: نعمة الإيمان ونعمة الكفر. فتأتي آية واضحة:

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ] (28).

فماذا يكون جزاؤهم؟ [جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ] (29).

فإياك أخي المسلم أن تفرط في نعمة الإيمان التي أعطاك الله إياها، وتحدد بها... إياك أن تكون من الذين [وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ...] (30).

فكيف نشكر نعمة الله علينا بالإيمان؟

[قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...] (31).

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

وتعدد السورة نماذج أخرى من نعم الله:

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...] و[وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ] (32).

[وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ & وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...] (33).

كل هذه النعم مستخرة تحت أيدينا، لماذا؟ حتى نعرف الله تعالى ونستشعر فضله ونسلك منهجه.

واللطيف أن الآية (34) تقول: [وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا]. فلم تقل الآية وإن تعدوا نعم الله، بل أننا لو حاولنا أن نعدّد خصائص نعمة واحدة فقط (كنعمة الشمس مثلاً) لما قدرنا على إحصائها، فما بالك بأعظم نعمة؟ نعمة الإيمان بالله ومعرفة منهجه؟...

نموذج إبراهيم

ويأتي ختام السورة، وهو مقارنة بين نموذجين، نموذج لإنسان عاش في نعمة الله (سيدنا إبراهيم عليه السلام) واستشعر نعمة الإيمان، وبالمقابل نموذج لأشخاص عاشوا بعيدين عن الله وهم ظالمين لأنفسهم ومجتمعاتهم التي حولهم...

فسيدنا إبراهيم كان شكره واضحاً على النعمة: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ] (39).

فكان دعاؤه الرائع ورجاؤه إلى الله أن يتم عليه نعمة الولد بنعمة أعظم منها وأجل: أن يحفظ الله دينه ودين ذريته بالصلاة:

[رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَنَا & رَبَّنَا اغْفِرْ لِي]

وَلِوَالِدَيَّْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ] (40 - 41).

وانظر لهذا الحنان من أبينا إبراهيم، وهو يدعو لنا ولأولادنا أن يشبثوا على الصلاة.

(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ)

وبعد ذلك تحتتم السورة بأشد آيات القرآن على الظالمين والبعيدين عن الله [وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ & مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً & وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَفْسَاسًا مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ] (42-44).

هل بعد هذا من نقمة ومهانة وذل؟

إن أعظم نعمة في الوجود هي أن تنجو من هذا الموقف، وأسوأ نقمة في الوجود أن تكون مع من قال الله فيهم: [وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ & سَرَابِلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ] (49 - 50)...

هذه سورة إبراهيم، سورة نعمة الإيمان ونقمة الكفر، سميت باسم سيدنا إبراهيم كنموذج لمن استشعر نعمة الله الكاملة وأدى حق شكرها. من فضلك اقرأ هذه السورة واشكر ربنا على هذه النعمة العظيمة، لأن شكرك له سيرقيك في مراتب الإيمان [لِيَن شُكْرُكُمْ لَا زَيْدَنُكُمْ] (7).

الحجر

سورة الحجر (مكية)، نزلت بعد يوسف. وهي في المصحف بعد سورة إبراهيم. عدد آياتها 99 آية.

للدعاة فقط

نزلت هذه السورة في وقت اشتدت فيه كل أنواع الإيذاء للنبي ρ والمسلمين. أنزلت في ظرف شبيه بظروفنا المعاصرة، حيث كان جميع الناس ينظرون إلى الإسلام نظرة اتهام وتشكيك واستهزاء.

والاستهزاء قد يكون في بعض الأحيان أصعب على النفس من الإيذاء البدني. أن تجد من حولك متفوقاً في القوة والعدد، يستهزئ بك مع يقينك أنك على حق. إنه أمر قاس على النفس البشرية. فأنزلت سورة الحجر لتطمئن النبي وكل أتباعه في كل العصور، وتقول لهم: لا تخافوا، فأنتم محفوظون، والله سبحانه وتعالى سيحفظ دينه فتوكلوا عليه ولا تنبهروا بقوة أعدائكم واستمروا في الدعوة إلى الله...

إنها سورة للدعاة، سورة للذين يحبون الإسلام وينتمون إليه... إنها سورة الحفظ والعناية الربانية للدعاة الذين يسخر الناس منهم لتمسكهم بتعاليم دينهم، وسورة الحفظ للفتاة التي يسخر البعض من حجابها. فتقول لهم: توكلوا على الله ولا تنبهروا بقوة أعدائكم، واستمروا في الدعوة إلى الله والأخذ بيد الناس إلى الإسلام.

هدف السورة

إذاً فهدف السورة صار واضحاً: إن الله حافظ دينه وناصره، فلا تنبهر أيها

المسلم من أي حضارة أخرى، ولا تلتفت إلى استهزاء الآخرين وتشكيكهم بل ركز جهودك على الدعوة إلى الله وعبادته. إنها رسالة طمأنة وتثبيت لكل من يخاف على الإسلام في الوضع الحالي الذي نمر به نحن اليوم..

وهذه المعاني واضحة في آيات السورة منذ بدايتها حتى نهايتها:

ففي بداية السورة: [ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ]

(3).

وفي ختامها: [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ & فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ] (98).

فلايات تؤكد عليك أيها المؤمن ألا تنبهر بقوة الغير، وأن تركز على دينك وعبادتك من تسبيح وسجود وعبادة وتثبت عليها حتى آخر حياتك [وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (99).

آيات الحفظ في السورة

والسورة تشير إلى حفظ الله لأمر عديدة، ومنها:

1. حفظ القرآن: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (9) هل نسيت أن الكتاب الذي هو دستور حياتك محفوظ؟ فالذي حفظ هذا الكتاب هو القادر على حفظ دينه ودعائه.

2. حفظ السماوات، فقد حفظها الله من الشياطين وجعلها متعة للناظرين: [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ & وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ & إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ] (16-18)...

3. حفظ الأرض: [وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ] (19). فإذا كانت السماوات والأرض محفوظة لهذه الدرجة، فما ظنك أخي المسلم في حفظ الله لكتابه ودينه؟

4. حفظ الأرزاق: [وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ مَّوْزُونٍ & وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ & وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ] (19-21).. فالقرآن محفوظ والسماء محفوظة والمؤمنون محفوظون...

5. حفظ المؤمنين من كيد الشيطان [إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ] (42).

6. واللطف أن الآيات التي بشرت المؤمنين بالجنة ذكرت أيضاً معنى الحفظ: [أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ] (46)... [لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ] (48).

فأنت أيها المؤمن محفوظ مع كتاب الله والسماوات والأرزاق.. بل إن الله حفظ هذا كله لنفعك وصلاح أمرك وقلبك.

إبليس وادم

كما ذكرنا في سور سابقة، فإن كل سورة في القرآن تأتي قصصها لتخدم هدف السورة. وقصة آدم وإبليس تنطبق عليها نفس القاعدة. ففي القرآن عموماً تركّز هذه القصة على سيدنا آدم عليه السلام. لكن سورة الحجر لم تأت على ذكر آدم، بل ركّزت على إبليس نفسه فهو يقول كما ذكر تعالى: [قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ & قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ & إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ & قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِينَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ & إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ] (36-40)...

لاحظ الطريقة الأساسية التي سيتبعها إبليس في الإغواء: تزيين الباطل في الأرض عن طريق إبهام الناس. فالإبهام يغيّر الحق ويقلب المفاهيم ويشوّش على الكثير من ضعاف القلوب. لكن عباد الله المخلصين محفوظون بإذن الله، فيأتي الرد على عدو الله:

[قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ & إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ] (41 - 42).

إن هذه السورة هي سورة الحفظ، فأنت محفوظ أيها الإنسان، والقرآن محفوظ كما حفظت السماوات من قبل، والأرزاق محفوظة فلم الخوف..؟ إن هذه السورة قد أنزلت في ذروة إيذاء المشركين للمسلمين في مكة، لتطمئن النبي وأصحابه أنهم محفوظون، والآن تطمئن كل الدعوة إلى الله أنهم أيضاً محفوظون... أنتم محفوظون طالما كنتم على صلة بربكم **[إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ]**... الله تعالى هو الذي يقول هذا... وانظر إلى لطف الآية وهو يدافع عنك أمام عدوك، واستشعر بالفخر كونك تندرج تحت كلمة "عبادي" **[.. إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ آلِفَاوِينَ]** أما الغاوين، فهم الذين اختاروا طريق الشيطان، وهم محرومون من هذا الحفظ الرباني. هذه الحقائق كلها يعلمها إبليس، فهو أمام رب العزة يقول: **[إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ]**.

فطالما أننا محفوظون، والحفظ مضمون من الله تعالى، فلم الخوف؟؟...

أصحاب الحجر

وهنا يأتي سؤال: ما سبب تسمية السورة بـ (الحجر)؟

إن الحجر هو المكان الذي سكنت فيه قبيلة ثمود (قوم صالح عليه السلام)، فما علاقة ذلك بالحفظ؟

إن أصحاب الحجر كذبوا بآيات الله ورفضوا طريق الإيمان، فشعروا بأن الله تعالى قد ينزل عليهم عقاباً أو عذاباً، فبحثوا عن مكان يشعرون به بالأمان فلم يجدوا إلا الحجر. ولقد توصلوا إلى مدينة رائعة وحضارة راقية جعلتهم ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين... تقول الآيات **[وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ & وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ & وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ]** (80 - 82) لقد ظنوا أنهم إن سكنوا داخل الجبال سينجون من العذاب، فصاروا ينحتون في الجبال بيوتاً ليضمّنوا النجاة بعيداً عن الفيضانات وتقلبات الطبيعة، فما الذي حصل لهم؟

[فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ] (83) فالصيحة لا يجمي منها جدار ولا

جبل ولا غير ذلك، ولقد جاءتهم مصبحين أي في الصباح (لأنه رمز الأمان فالليل يوحى دائماً بالخوف)، وكأن المعنى بأنه لا حفظ لك أيها الإنسان إلا من عند الله تعالى...

فلا تنبهر بهم (ولذلك ذكر الله قدرته في الكون في أول السورة) وكانت طريقة عذابهم متفردة بين الأمم: صيحة (أي صوتاً رهيباً) لا يحول دونها حافظ من حائط أو ريح أو ماء أو حجارة.

لذلك سميت السورة بالحجر كرمز لقوة الحضارات الأخرى، لنحذر من الانبهار بالآخرين ولتؤكد أنه لا حافظ إلا الله.

قصة لوط عليه السلام

وتأكيداً لهذه المعاني تأتي قصة لوط بإشارات واضحة: فإن قوم لوط جاءهم العذاب وهم في أعلى درجات الشهوة [لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ] (72)، كما أن العذاب أتاهم صباحاً [وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ] (66)... [فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ مُّسْرِقِينَ] (73).

توجيهات للدعاة في كل زمان

بعد أن استشعر قارئ السورة مدى الحفظ الرباني وأهميته وعدم نفع كل ما سواه، تأتي نصائح مهمة للدعاة إلى الله للتعبير على قصص السورة ولتحقيق هدفها:

1. [وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ] (87) في مقابل كل ما أوتي الآخرون من قوة ومظاهر مادية، آتاك الله سورة الفاتحة والقرآن العظيم (هل تذكر سورة الفاتحة وعظمتها ومعانيها الرائعة؟)، فتمسك بما آتاك الله واعتز به ولا تمد عينيك إلى ما سواه، لذلك تأتي الآية التالية:
2. [لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ] (88).

فلا تنبهر أخي المسلم بمتاع الدنيا الذي تراه عند الحضارات الأخرى، واعتزّ بإسلامك وتواضع لإخوانك. لا تغرنك تكنولوجيا الغرب ولا تطوّر عمرانه، فإن القاعدة الربانية التي طبقت على أصحاب الحجر تنطبق عليهم أيضاً، وهي أنه لا حافظ إلا الله.

3. [فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ] (94). اجهر بالدعوة رغم كل ما قد تعرّض له لأن الله تعالى هو الحافظ. هذه الآية كانت مرحلة الانتقال بين الدعوة السرية والجهر بالدعوة في حياة النبي ﷺ. وكان الصحابة يشعرون بصعوبة الأمر، فجاءت الآية ليطمئنوا بأنهم محفوظون رغم الاستهزاء... [فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ & إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ] (94 - 95)..

4. [وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ & فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ & وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (97 - 99). فالاستهزاء مزعج، ورغم أن المسلم مقتنع بحفظ الله، لكنه قد يمل ويتشتت من أقوال الآخرين، فتقدّم الآية علاجاً للمشكلة، يشكل ختاماً رائعاً لسورة الحفظ (كأنه تطبيق عملي لتستشعر بالحفظ الرباني): تسبيح الله تعالى وعبادته حتى الممات (واليقين هو الموت) لأنك محفوظ، ودع المستهزئين يقولون ما يشاءون، فإن مصيرهم لن يختلف عن مصير أصحاب الحجر.

اهتم بدينك أيها المسلم، وأصلح نفسك وادع غيرك إلى الله، تنعم بحفظ الله ورعايته في الدنيا وتفز بالجنة في الآخرة.

النحل

سورة النحل (مكية) نزلت بعد الكهف، وهي في المصحف بعد سورة الحجر. عدد آياتها 128 آية، وهي باتفاق الكثير من العلماء: سورة النعم.

أذكرها... واشكرها..

لو أحضر أحدنا ورقة وقلماً وظل يكتب نعم الله عليه، ثم قرأ سورة النحل، فسيجد كل ما كتبه من نعم... وإذا قرأ السورة ودوّن في الورقة كل ما يصادفه في آياتها من نعم، سيرى أن هذه النعم تشمل كل ما قد يخطر على باله...

فهي سورة النعم. تخاطب قارئها قائلة: أنظر لنعم الله تعالى في الكون! من النعم الأساسية (ضروريات الحياة)، إلى النعم الخفية التي يغفل عنها المرء وينساها وحتى التي يجهلها.. كل أنواع النعم، وبعد عرض كل مجموعة من النعم تأتي آية فاصلة، تذكيراً بأن المنعم هو الله [وَمَا بِكُمْ مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ] (53)، أو [وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا] (18)، وهناك آيات عديدة في السورة تفصل بين مقاطع النعم المختلفة لتحذّر من سوء استخدام النعمة بأن تستعمل في معصية الله تعالى، وبالمقابل تحثّ المرء على شكر نعم الله تعالى عليه وتوظيفها فيما خلقت له..

سورة إبراهيم وسورة النحل

وقد يقول قائل: إن سورة إبراهيم تحدثت عن نعم الله، فما علاقتها بسورة النحل؟

سورة إبراهيم ركّزت على نعمة واحدة فقط: الإيمان (وكان محورها أن

نعمة الإيمان أهم نعمة من نعم الله). أما سورة النحل، فقد اشتملت على نعم الله كلها، من أبسط أمور الحياة إلى أهم نعمة والتي هي الإيمان والوحي، لذلك بدأت السورة بنفس النعمة التي بدأت فيها سورة إبراهيم: الوحي. [الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ...] (1) وهنا [يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ] (2).

عرض مستمر

تبدأ السورة بعرض نعم الله تعالى:

- نعمة الوحي وهي أول النعم في السورة [يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ] (2).
- نعمة إيجاد السماوات والأرض [خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (3) ..
- نعمة خلق الإنسان [خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ] (4) .. فالروح التي بداخلك هي نعمة من الله، بعد أن خلقتك وأوجدك من العدم...
- نعمة الأنعام للغذاء والملبس والتنقلات [وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ] (5) ... ثم [وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] (8) ... فهذه الآية تشمل وسائل النقل في عهد النبي ﷺ، وتشير إلى كل وسائل النقل الحديثة في عالمنا في قوله [وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] فهي تشمل الطائرات والسيارات و... وكلها من أجل نعم الله علينا.
- نعمة الماء المنزل من السماء [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ] (10).
- نعمة الزرع [يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (11).
- نعمة تسخير الكون للإنسان [وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَأَلْتَجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [(12).

إن كل هذا الكون بعظمته مسخر لحضرتك حتى تعيش وتحقق أمانة الاستخلاف... فتخيّله بدون نعمة التسخير لحياة الناس. تخيّل الأرض بدون أوكسجين، أو من غير شمس تعطينا الضوء والدفء...

نعمة تجميل الأرض [وَمَا ذَرَأًا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ] (13).. إنها نعمة يراها الناس كل يوم ولكن للأسف يغفلون عنها. لقد اعتدنا على النعم وألفناها، فتأتي السورة لتتهز النفوس من جديد وتلفت نظرنا إلى آيات الله في الكون.

ساعد قلبك

ان تذكر النعمة أمر هام لصلاح القلب، فإذا أصبت بمرض عدم التدبر في النعم فعليك أن تتبع الوصفة التالية:

- أكتب النعم التي تعرفها بالورقة والقلم، وتدبرها واستشعرها بقلبك.
 - اجعل لسانك رطباً بقولك: الحمد لله، ولو في طريقك
 - تفكّر في نعم ربنا عليك وأنت تفتتح صلاتك بسورة الفاتحة، واجعل لكل ركعة نعمة معيّنة تتفكر بها وتشكر ربنا عليها.
- إنّ تذكر النعمة يساعد القلب على شكر المنعم، ... فالإنسان يشكر أقرانه من بني البشر ليل نهار، فكم مرة يشكر واهب النعم؟ وكم مرّة يقول الحمد لله في نفس اليوم!..

مزيد من النعم

وبعد ذلك تحدثنا الآيات عن نعم جديدة، يخرجها رب العالمين من حيث لا نتصور، ومنها:

- نعمة تسخير البحر [وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا..] (14).. فهل يتصور أحد أن البحر

الهادر المخيف يخرج اللحم الشهي؟ إن مشكلة الإنسان تكمن في أنه قد اعتاد النعمة وألفها... فتأتي سورة النحل لتقول للناس تفكروا في نعم الله تعالى عليكم وجددوا إحساسكم بها وشكركم لله عليها...

- نعمة خلق الجبال.. [وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ..] (15) فقد جعل الله الجبال أوتاداً لتثبيت الأرض من الزلازل كما أثبت العلم الحديث.
- نعمة خلق النجوم [وَعَلَّامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ] (16)... فهذه النجوم تدلنا على الاتجاهات أثناء السفر بالإضافة إلى اتجاه القبلة.
- نعمة ألبان الأنعام [وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ] (66).. فهل تصوّر أحدنا المكان الذي يخرج منه اللبن نقياً طيب الطعم والرائحة، من بين الدم والروث...؟ ومع ذلك فإنه يخرج خالصاً نقياً لا يوجد فيه قطرة دم واحدة ولا قطرة أذى! [لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ].
- نعمة العلم والسمع والأبصار [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا] (78) ثم أعطانا أدوات العلم [وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (78)..
- نعمة الطير [أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (79)

فمن منا يعتبر ويشكر؟ ومن منا يوظف هذه النعم فيما يحبه الله ويرضاه؟

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

وبعد ذكر هذه النعم تأتي آية محورية [وَأَنَّ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ] (18) نحصي ماذا؟ هل نحصي النعم المعلومة والمشاهدة؟ أم نحصي النعم الخفية؟ ولو افترضنا أننا نستطيع أن نعدّد أسماء النعم المشاهدة فهل نقدر أن نحصي ما بداخل النعمة الواحدة فقط من فوائد؟! إن الله تعالى يقول: [وَأَنَّ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا..] ولم يقل نعم الله. ومع ذلك [إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ

رَحِيمٌ] تشير إلى أن الإنسان لا يشكر على النعم ولولا أنه سبحانه وتعالى يغفر ويرحم لعذب البشر عذاباً شديداً على عدم شكرهم لنعمه الجليلة.

استعمال النعم في غير أهدافها

ولأن هدف السورة لا يقتصر على تعداد النعم، بل يركز على استخدام هذه النعم وتوظيفها لما خلقت له، فإننا نرى بعد كل موجة من ذكر النعم آيات تحذّر من سوء استخدام النعمة (الآيات 19 - 29).

فمثلاً الآية (24) تنكر على من لا يقدر نعمة الوحي بل يكذبها: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ] فكانت عاقبتهم وخيمة [لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...]. (25).

والآية التي بعدها تصوّر لنا مشهداً رهيباً لمن جحد بأنعم الله:

[قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ] (26).

وبالمقابل، تأتي الآيات التي بعدها مباشرة (30 - 32) لتبشّر من أحسن استخدام النعم، [وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا...]. فانظر إلى هذا المدح الرباني لمن قدر نعمة الوحي وعرفها في مقابل الذين كذبوا بآيات الله (الآية 24). وتأتي الآية (32):

[الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ].

أيضاً في مقابل الآية (28) [الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسَلَّمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ...].

نعمة الرسل والهداية

نعمة مهمّة يتكرر ذكرها في السورة: إنها نعمة الرسل والهداية:

[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ] (36)

فإرسال الرسل إلى البشر بشرع الله ومنهجه هو أعظم نعمة على الناس في كل العصور.

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ & بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (43-44).

هل كتبت بين النعم التي من بها الله عليك، إرسال النبي ρ إلينا؟ وإنزال القرآن الذي نقرأه ونعيش مع آياته ومعانيه؟... وهل فكرت يوماً في تطبيق أوامر القرآن وسنة النبي ρ بنية شكر ربنا على هاتين النعمتين العظيمنتين؟

وما بكم من نعمة فمن الله

وبعد ذكر النعم المتتالية، تأتي آية محورية وفاصلة لتعقب عليها:

[وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ] (53)

لتلفت النظر إلى أن استشعار النعمة هو بداية التمهيدي لشكر الخالق، فالنعمة قيدها الشكر، والشكر ضمانه لاستمرار النعم [لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ] (إبراهيم، 7).

فلو أرجع الإنسان كل ما في حياته إلى أصله فإنه سيجد أنه لا يملك شيئاً.. من أول حاجياته الأساسية (من لباس ومأكل ومشرب) إلى آخر مستجدات التكنولوجيا الحديثة (من مركبات فضائية وكومبيوتر وسيارات..). فكلها تعتمد على المواد الأولية التي سخرها الله لنا، وكلها نتاج العقل البشري، الذي هو أعظم نعمة أعطانا إياها ربنا.

سوء استخدام النعم

وتحدّر السورة مرة أخرى من سوء استخدام النعم، فتصف لنا فريقاً من الناس يدعو الله عند المصائب ثم يشرك به في السراء (الآيات 53 - 55)، فماذا يكون مصيرهم؟

[لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] (55). تتحوّل نعمة الله عليهم إلى استدراج وإمهال (فتمتعوا)، فإذا رأيت أخي المسلم نعم الله تتوالى عليك مع تقصيرك في شكرها وحسن استخدامها، فاحذر أن يكون ذلك استدراجاً من الله.

ومن أبشع صور سوء استخدام النعم: وأد البنات **[وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ & يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ...]** (58-59).. فكيف يسوغ للمرء بعد أن أعطاه الله هذه النعمة أن يستخدمها في معصية الله تعالى وقتل نفس بريئة؟!

نعمة الرحمة والستر

ومن النعم التي وردت في السورة: حلم الله تعالى ورحمته بعباده وستره عليهم

[وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ] (61)..

تخيل لو رفع الله عنك ستره وحلمه؟ تخيل لو فضحك يوماً واحداً؟ ماذا لو استيقظت يوماً ما ووجدت مكتوباً على باب بيتك: فعل البارحة كذا وكذا؟ أو لو كتب على جبينك الذنوب التي تفعلها صباح مساء؟ أو لو كان لكل ذنب تفعله رائحة؟

إن من أعظم نعم الله علينا أنه لا يظهر منا إلا كل حسن ومحمود من الأعمال، ويستر كل قبيح من الذنوب، فله الحمد والفضل.

نعمة الوحي والمطر

ومن النعم التي تأتي متلازمة في السورة: نعمتا الوحي والمطر.
[وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (64).

[وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...] (65).

فما السر في ذكر هاتين النعمتين دائماً مع بعضهما؟
 إن النعمتين متشابهتان، فالوحي ينزل حاملاً الخير للناس كما أن المطر حين ينزل يحيي الأرض بعد موتها، وكذلك الآيات التي تنزل وحياً فإيها تحيي القلوب بعد موتها.

[وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا] (الشورى، 52) ..

[أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ] (الأنعام، 122) ..

من سوء استخدام النعم: الخمر

وتعود الآيات مرة أخرى إلى التحذير من سوء استخدام النعم:
[وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا] (67).
 هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر، وهي لا تتناول الخمر من الناحية الفقهية لكنها تحذر منها كمظهر من مظاهر سوء استخدام النعم. فالخمر تتكون في أصلها من ثمرات طيبة ونعم عظيمة أعطانا الله إياها، لكن بعض الناس حوّلوها عن الغاية التي خلقت لأجلها واستعانوا بها في إذهاب عقولهم وإذلال أنفسهم... مظهر خطير من مظاهر استخدام النعم في غير أهدافها.

النعم الاجتماعية

ولعلك تسأل نفسك: أين نعمة الأسرة والزوجة في السورة؟ فتجيبك الآية:

[وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ [(72) فالاستقرار في الحياة العائلية من أفضل النعم التي يمنّ بها الله علينا، لذلك تأتي آية موجعة لتحذّر من كفر النعمة [أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ & وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ] (72 - 73) ...

حتى البيوت التي نسكنها [وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا] (80).
والأثاث الذي نستعمله [... وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ] (80).

والملابس التي نلبسها: [.. وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ] (81).

وأبسط من ذلك كله: الظل الذي نستريح تحته... [وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا] (81)

لذلك تأتي آية محورية [كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ] (81).

خطورة سوء استخدام النعم

وكما ذكرنا تتابع الآيات بنفس السياق: موجة من النعم، ثم الحث على الشكر عليها، ثم التحذير من سوء استخدام النعم.

[يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ] (83) أرايت كيف أن تجاهل نعمة الله قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر بالله والعياذ بالله؟ ...

وتأتي آيات شديدة في التحذير من نقض العهد مع الله بعد أن أعطانا كل هذه النعم [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا] (92).

[وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ...] (94).

[وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ..] (95).

[مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ] (96).

ثم آيات أخرى تحذّر من كفران النعمة:

[وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (112).

وكان الأولى بهؤلاء أن يفعلوا كما قال تعالى: [فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ] (114)...

إبراهيم عليه السلام: شاكرًا لأنعمه

وتختم السورة بقصة شخص شاكر لأنعم الله، إنه سيدنا إبراهيم عليه السلام، والملفت أن السورة وصفت سيدنا إبراهيم بإحدى أهم صفاته التي تخدم هدف السورة: [شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ] (121).

وبعد أن أصبح شاكرًا لأنعم الله [أَجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (121).

سبب تسمية السورة

وكما عودناكم مع كل سورة، يبقى سؤال مهم: لماذا سميت هذه السورة بسورة النحل؟ إن هذه السورة لم تسم باسم النعم التي ملأها ولكن باسم النحل، فلماذا؟ يقول تعالى [وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ & ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ] (68 - 69).

أولاً إن النحل وتنظيم مملكته وطريقة إخراجها للنحل هي نعم عظيمة من نعم الله وآياته في الكون.

ثانياً، إن الآيات قد بدأت بقوله تعالى [وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ]، فهي تشير إلى اتباع النحل للوحي الرباني وطاعتها لله واستعمالها لإرشادات الوحي لتنفيذ ما كلفت به بدقة [أَتَّخِذِي... كُلِّي... فَاسْلُكِي...].

فكان النحل نموذجاً لتوظيف النعمة طاعة لله، فلما أطاع الله ونفذ أوامره، أخرج الله من بطونه عسلاً شافياً ومفيداً للأرض كلها... ولاحظ دقة التعبير القرآني في كلمة [يَخْرُجُ]، ولم تقل الآية (فاخرجي عسلاً)، لأنها لما اتبعت الوحي وطبقت منهج ربنا خرج عسل مفيد ونافع، وكذلك الوحي، ينزل على الأمة، فإن التزمت بأوامر الله واتبعت الوحي، فسيخرج عسل الهداية والنور للمجتمع.

ومن اللطيف في مملكة النحل: اعتمادها على الإناث بشكل أساسي، وحتى النداء القرآني لها [كُلِي.. فَأَسْلُكِي..] كان بصيغة المؤنث، لأن الذكور لا عمل لهم إلا تلقيح الملكة، بينما يقع الدور الأساسي في العمل والبناء وإخراج العسل على الإناث.

القرآن والعسل... شفاء للأرواح والأبدان

ومن روعة القرآن أيضاً، أن كلمة الشفاء لم ترد في القرآن كله إلا مرتين: مرة عن العسل ومرة عن القرآن... فالقرآن فيه شفاء للناس كالعسل تماماً... والله تعالى في هذه السورة عدّد علينا نعماً كثيرة (وأهمها الوحي) وحدّثنا من سوء استخدامها... فلو أحسننا استخدام نعمة العسل فسوف نشفي أبداننا، وبالمقابل لو أحسننا استخدام القرآن لكان في ذلك شفاء للعقول والقلوب والأرواح...

قدم ثمن العسل

كانت هذه سورة النحل سورة النعم، فإذا علمت أن سورة النحل هي سورة النعم، وتذكرت نعم الله عليك ثم لم تشعر بكل جوارحك وبكل ذرة من جسمك بأنك بحاجة إلى أن تشكر الله... فينبغي أن تراجع نفسك.. لأنك بهذا لم تستفد من سورة النحل... إنها سورة الحمد، سورة معرفة نعم الله وشكره...

وينبغي أن نسأل أنفسنا، هل نحن قد وظّفنا نعم الله في مرضاته، أم نستخدمها في معصية... فإذا كان الإنسان يستخدم نعم الله في معصيته فليخف من الآية [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ]

..(112)

فالذي يعصي الله تعالى مستخدماً نعمه فسيعيش حياة غير آمنة وسينقص رزقه ويعيش في فقر وجوع وخوف... ولذلك كان من أهم منن الله تعالى على قريش: [فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ & الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ حَوْفٍ]... (قريش، 3-4)

مشروع عملي

ما رأيكم أن نتبع قراءتنا لهذه السورة بمشروع عملي، يزيد من إحساسنا بنعم الله وتفاعلنا مع سورة النحل؟

اقرأ سورة النحل، ثم تتبع النعم المذكورة فيها واكتبها كلها، وترجم هذه النعم إلى حياتك الخاصة بأمثلة محددة (كالستر مثلاً أو العائلة أو الغذاء). بعد ذلك كله تفكّر في كيفية توظيف كل هذه النعم في طاعة الله، تكون قد حققت مراد الله منك في هذه السورة، والله المستعان.

الإسراء

سورة الإسراء (مكية) نزلت بعد سورة القصص، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة النحل، وعدد آياتها 111 آية. وتعرف هذه السورة بسورة بني إسرائيل.

أعظم اجتماع

ولكي نقف على محور وهدف السورة فنحن بحاجة للرجوع إلى قصة الإسراء نفسها، عندما أُسري بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبعدها كانت رحلة المعراج إلى السماوات العلى. فلماذا لم تسم السورة باسم سورة المعراج؟ وما السر الكامن وراء تسمية السورة بهذا الاسم؟

لقد رافق هذا الحدث العظيم حدث آخر بنفس الأهمية، كان أعظم اجتماع في تاريخ البشرية. لقد كان المسجد الأقصى ممتلئاً عن آخره بأفضل الناس، أنبياء الله تعالى من لدن آدم حتى عيسى عليه السلام، وكلهم كانوا ينتظرون النبي ﷺ، ليصلي بهم إماماً.

إمام الرسل والأنبياء

إنّ صلاة النبي بالأنبياء هي عنوان انتقال الرسالة إلى هذه الأمة واستلام النبي ﷺ لواء قيادة البشرية في هذا المكان المبارك، المسجد الأقصى. فأنت يا محمد وأنتم يا أمة محمد أصبحتم مسؤولين عن الكتاب، أي عن الرسالة التي أرسلها الله إلى البشرية والتي تنتقل من نبي إلى نبي، ابتداء من سيدنا نوح الذي حمل الرسالة مع أولاده بعد الطوفان، لتصل إلى إبراهيم حامل الكتاب السماوي

ومن ثم إلى موسى وعيسى عليهما السلام، إلى أن وصلت أخيراً إلى محمد ﷺ

وأتمته.

أمانة الكتاب

كل نبي من هؤلاء كان يؤمر بالحفاظ على كتاب الله وأوامره، لكن قومه من بعده كانوا يضيعون الأمانة، فيحرفون الكتاب أو يبدلون أحكامه، فإذا فعلوا ذلك، يستبدلهم الله بقوم آخرين ليتسلموا أمانة الكتاب. وآخر أمة كانت مسؤولة عن الكتاب هم بنو إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض ولم يراعوا حق الكتاب (لذلك سميت السورة باسمهم، لأنها تتحدث عن انتقال الكتاب من عهدتهم إلى الأمة المحمدية، ودلالة ذلك أن كل أنبياء بني إسرائيل وقفوا يصلون خلف النبي (ﷺ)، فاستبدلهم الله بأمة محمد (ﷺ)، وكانت حادثة الإسراء عنوان استلام الرسالة. فما هو هدف السورة؟

هدف السورة: استشعر قيمة القرآن

كيف يكون هذا هو هدف السورة؟ وما علاقة ذلك بالإسراء؟

إن سورة الإسراء هي أكثر سورة ذكر فيها القرآن والكتاب، وفي ذلك دلالة على استشعار قيمة القرآن. وحادثة الإسراء هي الحادثة الممثلة لانتقال الكتاب إلى أمة محمد (ﷺ)، وكأنها تقول لنا: أنتم يا أمة محمد مسؤولون عن هذا الكتاب، عن القرآن. فاستشعروا قيمته، وإياكم أن تفرطوا فيه كما فعلت الأمم السابقة فيستبدلكم الله كما استبدلهم.

اجعله إمامك

روى سيدنا علي بن أبي طالب حديثاً عن رسول الله (ﷺ) يوضح أهمية القرآن في حياتنا، وأنه طوق نجاة لمن يتخذه إماماً. يقول عليه الصلاة والسلام:

"ألا إنها ستكون فتنة" فقال سيدنا علي: فما المخرج منها يا رسول الله.

قال: "كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وفيه خير ما بعدكم وحكم ما بينكم. هو بالفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله

الله. هو جبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيع به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يلبى من كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً. من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعى به هدي إلى صراط مستقيم".

تعال معنا، يا قارئ القرآن، وبما أننا تقريباً في منتصف رحلتنا مع القرآن الكريم، لنعيش مع سورة القرآن ونستشعر عظمتها من خلال آياتها.

انتقال الكتاب عبر الأمم

تبدأ السورة - كما هو واضح - بحادثة الإسراء:

[سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ..] (1).

وفي الآية الثانية مباشرة نرى قوله تعالى:

[وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ] (2). لقد جاءت هذه الآية بعد حادثة الإسراء للتوضيح أن ذكر حادثة الإسراء يهدف إلى إعلان انتقال الكتاب إلى الأمة المحمدية، لذلك نرى أن الآية الثانية تحدثت عن الأمة التي كان معها الكتاب من قبل:

[وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنَجَّدُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا] (2).

فكيف وصل الكتاب إليهم؟ [ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا] (3).

وكأن هذه الآيات الثلاث تصوير مادي لحركة انتقال الكتاب عبر الأمم.

فماذا فعلوا بالكتاب؟ ولماذا استبدلوا؟

[وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ

غُلُوقًا كَبِيرًا] (4)... وتمضي الآيات من 4 - 7 لتصور تضييع الأمة السابقة لهذه الأمانة إلى أن نصل إلى آية محورية، الآية 9، لتعلن مسؤولية أمة الإسلام، عن الكتاب.

[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا & وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] (9 - 10).

فاستمسكوا بهذا الكتاب، واستعصموا به، فإنه يهديكم أيها المسلمون للتي هي أقوم...

كتاب الآخرة

وفي معرض الحديث عن يوم القيامة، تتحدث الآيات عن كتاب الآخرة - كتاب الأعمال والحسنات والسيئات - لتبين مصير الذي لا يلتزم بكتاب الله في الدنيا.

[وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا & أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا] (13 - 14).

فقضية الكتاب قضية أساسية في حياة المسلم، فإن لم تقرأ أيها المسلم كتاب الله وتفهم معانيه وتطبّقها في حياتك الدنيا، فماذا ستفعل بكتاب الآخرة؟..

أوامر الكتاب

ومن أول الربع الثاني تتكلم السورة عن عظمة هذا الكتاب، لأنه يأمر بما تقتضيه كل فطرة سليمة، فأبي صاحب عقل سليم وفطرة سليمة غير مشوشة لا يسعه حين يقرأ هذا الكتاب إلا أن يسلم ويعترف بعظمته... فمن هذه الأوامر:

- برّ الوالدين [وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا & وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا

رَبِّيَانِي صَغِيرًا] (23 - 24)...

- استعمال المال في أوجه الخير [وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْدِيرًا & إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا] (26 - 27) ..

- التوازن بين البخل والإسراف [وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا] (29) ...

نداء الفطرة

كلها أوامر ونواهي تخاطب العقل السليم والفطرة الحية، فمن يعرض عن هذا الكلام؟ كيف نهجره وكيف لا نستمسك به؟ وفيه مصلحة البشر وخيرهم...

- [وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْنَا نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا] (31).

- [وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا] (32).

ولأن الآيات تخاطب الفطرة، فقد تكلمت عن الزنا أنه "سَاءَ سَبِيلًا" لأنه فعلٌ بالغ الفُحْج، وإن لم يلاحظ بعض أصحاب النفوس الضعيفة ذلك، لأنه لا يترتب على المشي في طريقه إلا الهلاك والكوارث، مثل قتل الأنفس، وضعف الرزق، وظلمة الوجه، واختلاط الأنساب والحياة البائسة الكئيبة...

- [وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ] (33).

- [وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] (34).

- [وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ] (35).

- [وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] (36).

- [وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ

طُولًا] (37).

فمن يرفض مثل هذا الكلام، وكيف يمكن للمسلمين أن يهجروا هذا الكتاب، وهو يأمرهم بكل هذا الخير وينهاهم عما فيه ضررهم وهلاكهم؟ [كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا] (38).

لذلك نرى تعقياً رائعاً على كل ما سبق [ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ..] (39) فكل ما سبق حكمة، وكله يؤدي بالإنسان لأن يعيش حياة كريمة في الدنيا والآخرة، فإذا غفل عنها: [وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا] (39). فهل أدركنا عظمة هذا القرآن؟ وربنا سبحانه وتعالى يخبرنا بأن الخير كل الخير موجود في القرآن:

[وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا] (41).

قيمة القرآن

وبعد أن بيّنت الآيات عظمة القرآن وأهمية أحكامه، تقوم بعد ذلك بين الآية والأخرى بذكر مزايا الكتاب (فهي أكثر سور القرآن إيراداً للكتاب)، فنرى فيها: حفظ القرآن لأهله: [وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا & وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا] (45-46).

اشتمال القرآن على أسرار التاريخ وسنن قيام الحضارات: [وَإِنْ مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْتُورًا] (58).

فالإنسان حين يرى تركيز سورة الإسراء على عظمة القرآن وهو لا يزال في منتصف القرآن (الجزء 15)، فلا بد أن يستشعر أهميته ولا يمر على آياته مرور الكرام، لأن هذه الآيات ستكون فرصة عظيمة له لرفع درجاته يوم القيامة، كما جاء في حديث النبي ﷺ: "يقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ وارق ورتل فإن"

منزلتك عند آخر آية تقرؤها" ..

فعدد درجات الجنة يا أخي المسلم هو بعدد آيات القرآن. ألا تريد الجنة؟ ألا تحلم بها وتمناها؟ ألا تريد الفردوس الأعلى؟ إذا فالزم قراءة هذا القرآن، وخاصة في صلاة الفجر وفي قيام الليل.

[أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا] (78).

[وَمَنْ أَلَّيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا] (79).

شفاء ورحمة للمؤمنين

واسمع قوله تعالى:

[وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا] .. (82). فكما قلنا في سورة النحل، لم ترد لفظة الشفاء في القرآن إلا للعسل والقرآن، لأن العسل شفاء الأبدان من الأمراض، والقرآن شفاء للقلوب ودواء لأرواح المؤمنين الذين يعرفون قيمته.

تحدي القرآن

والآيات التي تحدثت عن عظمة القرآن كثيرة في السورة: [قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] (88).

فافتخر بهذا التحدي الذي لا يزال قائماً إلى يوم القيامة.

[وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا] (89).

فكل احتياجات الحياة الكريمة موجودة في هذا القرآن، لكن أكثر الناس يأبى إلا الكفر والجحود.

دور القرآن

[وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا & وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا] (105 - 106)..

لقد سميت هذه السورة بسورة الإسراء حتى نتذكر - كلما قرأناها - النبي ﷺ، وهو يستلم الكتاب في رحلة الإسراء، ويسلمه لنا من بعده.

وبما أننا تحملنا مسؤولية حمل القرآن، فينبغي أن نكثر من قراءته، ليس في رمضان فقط، بل في كل الشهور، وينبغي أن نتدبره ونعمل به ونعلمه لمن حولنا ونشره وننقذ منهجه...

أحباء القرآن

وختام السورة تذكرة بأناس أحبوا القرآن حباً شديداً، وفهموا هدف سورة الإسراء، فتفاعلوا مع كتاب الله تفاعلاً صادقاً: [قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا & وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا & وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا] (107 - 109)..

والحمد لله، لقد أصبحنا نرى هذه الآيات تنطبق على بعض الشباب في المساجد، وخاصة في شهر رمضان. تنظر إليهم فتراهم "يخرون للأذقان يبكون". وكلما تليت عليهم آيات القرآن تزيدهم خشوعاً... وهو أمر مطمئن، لأن تعامل الشباب مع القرآن بهذا المستوى يبشر ببوادر خير لهذه الأمة.

يرفع أقواماً ويضع آخرين

فإن لم نكن كأحباء القرآن الذين ذكروا في الآيات السابقة، فإن نفس الآيات تحذرننا من الاستبدال [قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا]. فالأمة السابقة قد قصرت في حفظ الكتاب وتبليغه فنزع منها إلى الأمة التي تليها فالتى تليها حتى وصل إلينا، فماذا لو قصرت هذه الأمة في حمل الأمانة؟

إن الحساب سيكون أشد يوم القيامة لأننا آخر أمة ستحمل هذه الأمانة قبل

قيام الساعة، فلا يجدر بنا أن نقصّر، بل نجتهد في حمل هذه الأمانة، وتطبيق حديث النبي ﷺ: "تركُّتُ فيكُم ما إن تمسَّكُتم به لن تضلُّوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسُنَّتِي". فلا نهضة لأمتنا ولا عز ولا خروج من الظلمات إلى النور إلا بهذا الكتاب: [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ].

كنوز من الحسنات

استشعر وأنت تقرأ القرآن - إلى جانب عظمته وأهميته - الكم الهائل من الحسنات التي ترافق قراءة القرآن.

فالنبي ﷺ يقول "من قرأ حرفاً من القرآن فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول [الم] حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف"...
فإذا قرأت "بسم الله الرحمن الرحيم" مثلاً - وفيها تسعة عشر حرفاً - فإنك تنال مئة وتسعين حسنة.

إذاً فجزء القرآن - الذي يكون متوسط حروفه سبعة آلاف حرف - ينال عليه المسلم سبعين ألف حسنة في الأوقات العادية، فما بالك بالأوقات المستحبة (كصلاة الفجر أو قيام الليل أو شهر رمضان).

آلاف الحسنات في قراءة جزء لا يأخذ منا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، فما بالك بمن ينقذه؟ فما بالك بمن يسمع الآيات بنية تنفيذها وتطبيقها؟ فما بالك بمن يفهم القرآن، ويعرف مراد ربنا من كل سورة؟ إذاً فماذا يكون حال من يشعر أن القرآن أمانة في عنقه، فيرغب من حوله بقراءة القرآن ويفسّر لهم بعض معانيه الرائعة التي نعيش معها؟

لا بد للشباب المسلم الذي قرأ سورة الإسراء وفهم مراد ربنا منها أن يتعامل مع القرآن من الآن وصاعداً بجدية متناهية، وأن ينذر حياته ليكون من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته.

من الإسراء إلى الكهف

ومن الإشارات اللطيفة، أن نرى الحديث عن القرآن يمتد من ختام سورة الإسراء إلى بداية سورة الكهف. فبعد أن ختمت سورة الإسراء بسجدة حتى تستشعر فيها حلاوة القرآن وتبكي من خشية الله، ثم تحمده على نعمة القرآن، هذه النعمة العظيمة التي بدأت سورة الكهف بشكر ربنا عليها: [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا] (1).

الكهف

سورة الكهف (مكية)، نزلت بعد الغاشية، وهي في ترتيب المصحف بعد الإسراء، وعدد آياتها 110 آيات.

خيوط لنسيج واحد

سورة الكهف هي عبارة عن أربع قصص، قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى والخضر وقصة ذي القرنين، مع ذكر عدد من الآيات بعد كل قصة للتعقيب عليها. فما علاقة القصص الأربع ببعضها؟ ولماذا سميت بسورة الكهف؟ ولماذا تقرأ كل يوم جمعة؟

فضل وثواب سورة الكهف

يقول النبي ﷺ "من قرأ سورة الكهف من يوم الجمعة أو في يوم الجمعة أضاء الله له نوراً من تحت قدميه إلى عنان السماء".

كما ويقول ﷺ "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال".

وفي حديث آخر: "من أدركه منكم - أي الدجال - فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" رواه مسلم.

فما هي علاقة سورة الكهف بالدجال وما علاقة القصص الأربع في السورة ببعضها؟ تعالوا نلقي نظرة على هذه القصص باختصار.

كهف الرحمة

القصة الأولى هي قصة شباب، آمنوا بالله تبارك وتعالى ودعوا إلى الله، رغم

أن القرية التي عاشوا فيها كانت محكومة من ملك ظالم غير مؤمن. فعرضوا إسلامهم على الناس ورفض الناس دعوتهم [وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا & هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا] (14-15).

وبدأوا بالدعوة إلى الله فكذبوا واضطهدوا، فأوحى الله إليهم أن يأووا إلى الكهف [... فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَبِءَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا] (16).

وأيدهم الله بمعجزات عظيمة فهم قد مكثوا في الكهف [ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا] (25) ... [وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنِ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ...] (17) [وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ] (18).

فكل هذه المعجزات كانت لأجل الحفاظ على هؤلاء الفتية، إلى أن استيقظوا بعد 309 سنين، ووجدوا أن الناس جميعاً قد آمنوا وأنهم أصبحوا في مجتمع جديد كله إيمان.

غرور يطعن في الثوابت

والقصة الثانية قصة رجل أنعم الله عليه، فنسي واهب النعمة فطغى وتجرأ على ثوابت الإيمان بالطعن والشك:

[وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ... وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا] (32 - 35) لقد فتته المال فنسي اللجوء إلى الله تبارك وتعالى [وَمَا أَظُنُّ أَلْسَاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا] & قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ

رَجُلًا] (36 – 37)... إلى أن كانت نهاية الرجل المغرور بماله.. [وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ
فَأَصْبَحَ يُفْلِكُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَايْتِي
لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا] (42).

كيف نتعامل مع قدر الله

أما القصة الثالثة، فهي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع الخضر، عندما
سأله قومه: من أعلم أهل الأرض، فأجابهم بأنه هو عليه السلام أعلم أهل
الأرض، فلقد ظنَّ بأن لديه من العلم ما يجعله أعلم أهل الأرض خاصة وأنه من
أولي العزم من الرسل. فأوحى الله إليه بأنه يوجد من هو أعلم منه، لذلك طلب منه
أن يذهب إلى أرض معينة عند مجمع البحرين. فقطع مسافة بعيدة في سفره إلى أن
أدركه التعب الشديد، حتى أنه قال لفتاه [لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا]
(62).. فتعب كثيراً إلى أن التقى بالرجل الصالح الذي يملك علماً مهماً لا يملكه
الكثير من الناس وهو علم الثقة بقدر الله تعالى، وأن الله تعالى في فضائه حكمة
تحمم عليك أن توفن بتدبيره وإدارته لشؤون الحياة، وهذا العلم هو باختصار، علم
معرفة الله حق المعرفة.

لذلك، فقبل أن يصاحب سيدنا موسى الخضر عليهما السلام،
يشترط عليه الخضر [... فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ
ذِكْرًا] (70). فقال له موسى [سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا]
(69).

وتخلل الصحبة ثلاثة مواقف، كانت في ظاهرها سوءاً أو ظلماً:

1. السفينة التي خرقها الخضر عليه السلام، وكان سبب ذلك وجود ملك ظالم
يسلب كل سفينة صالحة يراها.
2. الغلام الذي قتله الخضر، وكان سبب ذلك أنه كان يرهق أبويه المؤمنين
لعصيانه وعقوقه.
3. الجدار الذي أقامه الخضر من دون أجر في مدينة طرده أهلها منها، والسبب

أنه كان لغلّامين يتيمين وكان تحتهم كنز مدفون لهما ولو لم يقيم الجدار لما حفظ لهما كنزهما..

ويجمع بين كل هذه الأمور عدم ظهور حكمة الله تعالى فيها، لأن ظاهرها غير مبرر. وذلك ليتعلم المؤمن أن الله تعالى يقدر أموراً قد لا نعلم الحكمة منها والخير المقدر فيها. وهذا هو العلم (الذي لا نراه في الكتب) يعلمه الله تعالى لموسى عليه السلام ويعلمنا إياه أيضاً..

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

وأخر قصة هي قصة ذي القرنين، الملك العادل الذي ينشر الحق والعدل والخير في الأرض ويملك كل الأسباب المادية (من علم وتكنولوجيا) التي تسهل له التمكين والنجاح في الحياة.

[إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا] (84) فكان يطوف بالأرض من شرقها إلى غربها لينشر الهداية للناس ويملأ الأرض بالعدل والإحسان، إلى أن وصل إلى قوم لا يكادون يفقهون قولاً، فقالوا له: [قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا نَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا] (94)...

وبالرغم من امتلاكه للأسباب إلا أنه طلب منهم أن يعينوه حتى يعلمهم الإيجابية [... فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا] (95). وبني الجدار الذي لا يزال قائماً إلى الآن، والذي بسببه لا نعلم مكان وجود يأجوج ومأجوج حتى تقوم الساعة فيخرجوا..

علاقة القصص الأربع

لا بد أن نتذكر أن القرآن لا يسرد علينا قصصاً متناثرة، بل أنها كلها تكون بناءً متكاملًا وتخدم معنى معيناً. فقصة سيدنا موسى مثلاً لم تأت على ذكر فرعون أو معجزة العصا وذلك لأن إيراد القصة يخدم هنا هدفاً معيناً لا يوجد في قصة فرعون مع موسى عليه السلام. فما هو

الخيطة الذي يربط القصص الأربع ببعضها؟

إنّ هذه القصص تحدثت عن الفتن الأساسية في حياة الناس:

1. فتنة الدين: أن يفتن المرء بدينه وبيئته عنه، سواء بسبب الأذية والتعذيب، أو الخوف. وهذه كانت فتنة أهل الكهف الذين نجحوا فيها.
2. فتنة المال: وهي فتنة صاحب الجنتين الذي أغراه ماله فأودى به إلى إنكار الآخرة [وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا] (36).

3. فتنة العلم: بأن يعجب المرء بعلمه، ويظن أن أحداً لم يسبقه في العلم فينسى التواضع، أو يتعلم علماً لا فائدة للمجتمع منه، أو يستخدم علمه فيما يضر المجتمع. وهذه الفتنة تتجسد في قصة موسى مع الخضر، الذي سها فظن أنه ليس هناك من هو أعلم منه، لكنه عندما علم بذلك قطع إليه المسافات الطوال ليتعلم منه ويتواضع إليه تواضع طلاب العلم [قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا] (66).

4. فتنة السلطة: بأن يؤتى المرء حضارة وتقنية عظيمة، ونفوذاً وسلطة عظيمين، فيؤدي به الأمر إلى الاعتداد بقوته والكفر بربه وظلم الناس. لكن قصة ذي القرنين ترينا العكس تماماً: سلطان عادل، يعدل مع الناس وينسب الفضل في قوته إلى الله وحده: [قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا & وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا] (87 - 88).
- [قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي] (98).

محرك خيوط الفتنة

هذه الفتن الأربعة الأساسية هي الخيطة الذي يجمع القصص الأربع في السورة. وفي وسط السورة تقريباً بين أول قصتين وآخر قصتين، تخبرنا الآية 50 عن المحرك الأساسي لخيوط الفتنة الأربعة: إنه عدو الله إبليس [... أَفَسْتَحْدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ

أُولِيَاءِ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا] هل من المعقول أن تتخذوا عدو الله وعدوكم ولياً؟ (50).

العصمة من الفتن

فاجو العام للسورة إذاً هو العصمة من الفتن، ولذلك جاء في الحديث أنها تنجي من أعظم فتنة في تاريخ البشرية من لدن آدم إلى قيام الساعة، وهي فتنة المسيح الدجال، يقول عليه الصلاة والسلام "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال" رواه الحاكم.

فما علاقة فتنة المسيح الدجال بالفتن الأربع المذكورة؟ إن الدجال سيظهر قبل يوم القيامة بالفتن الأربع: فهو يفتن الناس في دينهم، ويطلب منهم عبادته من دون الله، ويفتنهم بما يجريه الله على يديه من خوارق (كأن يحيي أبا الرجب وأمه على أن يكفر بالله والعياذ بالله) فيفتنوا إلا من رحم الله.. ومعه فتنة المال، بأن يأمر السماء أن تمطر على أرض معينة وينبت فيها الزرع، أو أن يحول صحراء قاحلة إلى جنة خضراء. كما أنه يحمل فتنة العلم، بأن يبهر الناس بما يحمله من أخبار فيؤمنوا به. وآخر فتنة سيحملها الدجال هي السلطة، فيقهر الناس بقوته وسيطرته على أجزاء كثيرة من الأرض (عدا مكة والمدينة). فتن شديدة لا بد للمسلمين في كل زمان ومكان أن يتنبهوا منها، وذلك بقراءة سورة الكهف والتدبر في معانيها، وخاصة القصص الأربع مع التعقيب الرباني عليها.

هدف السورة: العصمة من الفتن

عندما ذكرت السورة القصص الأربعة التي يجمعها حيط الفتنة، كانت تعقب على كل قصة تعقيباً يحمل العبرة من هذه القصة، ويرشدنا كيف نقي أنفسنا من هذه الفتنة. وهذا من روعة القرآن في عدم سرد القصص لمجرد السرد ولكن لتحقيق هدف السورة - وهو العصمة من الفتن - والتأكيد عليه بعد كل قصة. وهكذا تتضح لنا معالم السورة ورسالتها: النجاة من الفتن، بأشكالها المختلفة. فكيف ننجو من الفتن التي ذكرتها القصص؟

قوارب النجاة

1. الصحبة الصالحة:

كانت الفتنة الأولى هي فتنة الدين في قصة أهل الكهف، ولثبات على الدين والعصمة من هذه الفتنة ترشدك سورة الكهف إلى:

أ. الصحبة الصالحة: [وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (28).

فالصحبة الصالحة والصبر عليها هي خير معين للمرء في الحفاظ على التزامه...
ب. تذكر الآخرة: ومصير المؤمنين والكافرين، فهي الدواء النافع للعصمة من الفتنة الكثيرة التي يمر بها المسلم [إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا] (29).

2. عدم التعلق بالدنيا:

وللعصمة من فتنة المال التي وقع فيها صاحب الجنتين، هناك أمران يأتيان مباشرة بعد القصة:

1. فهم حقيقة الدنيا: وهذا ما نراه بوضوح في أول آية أتت مباشرة بعد انتهاء القصة [وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] أنظروا بالله عليكم إلى هذه الدنيا التي تركضون وراءها [كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ] فماذا جرى له؟ [فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ] هكذا وبسرعة... ثم ماذا [فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا] (45). فالآية تصور لنا ومضات سريعة من بداية الحياة إلى وسطها إلى نهايتها، مراحل سريعة يربطها حرف الفاء [... فَأَخْتَلَطَ... فَأَصْبَحَ] الذي يفيد التعقيب السريع. هذه الدنيا فانية، سريعة الانقضاء، فلا تتعلق بها أيها المؤمن لتنجو من الفتنة.

ب. تذكر الآخرة: وخاصة موقف العرض على الجبار، وكأن تذكر الآخرة قضية أساسية في العصمة من الفتن كلها (من فتنة الدين ثم من فتنة المال):

[وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا...] (47).

[وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...] (48).
[وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِئْتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا] (49).

3 - التواضع

وللعصمة من فتنة العلم والاعتزاز به، لا بد من التواضع لله أولاً، ثم للمعلم. وهذا ما يظهر في الآية 69: [قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا]. مع أنه نبي ورسول من أولي العزم بالإضافة إلى كونه كليم الله تعالى. فإياك أن تغرّك الشهادات الجامعية، أو علمك الواسع، أو حتى حفظك للقرآن الكريم، ويفتنوك عن التواضع لله تعالى.

4 - الإخلاص:

وفتنة السلطان علاجها الإخلاص، والتواضع لله تعالى، ورد كل الفضل في القوة والتمكين إلى الله [قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي..].
ولذلك حذرت السورة ممن يشرك بالله ولا يخلص في عمله له سبحانه:

[قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا & الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا & أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّهِمْ فَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا] (103 - 105).

وهذه الآية تختص بالمشركين وتحذر من الشرك بالله، وبالمقابل ختمت السورة بأمر المؤمنين بالإخلاص في العبادة لله تعالى وحده.

[.. فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا] (110).

فمن أراد أن يقبله الله تعالى قبولاً كاملاً ويرضى عنه في الآخرة، لا بد له من تحقيق أمرين: أن يكون عملاً صحيحاً (أي موفقاً للسنة)، وأن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، وهذان الأمران ذكرا في الآية الأخيرة من سورة الكهف.

من روائع السورة

ومن خلال آيات السورة، نرى ملاحظات عديدة ولفترات رائعة، تزيدنا حباً وتعلقاً بهذا القرآن وبهذه السورة، وتصب كلها في خدمة هدف السورة ومحورها.

كثرة الحركة والإيجابية

نلاحظ في السورة كثرة الحركة بشكل ملفت، فالسورة كلها عبارة عن قصص لأناس يتحركون بإيجابية، من أهل الكهف الذين تركوا الأهل والديار وأووا إلى الكهف [فَأُووُوا إِلَى الْكَهْفِ]، إلى سيدنا موسى عليه السلام الذي ذهب إلى مجمع البحرين وتجاوزته حتى أدركه التعب الشديد [لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا]. وأثناء مرافقته للحضر عليه السلام، نرى كثرة الحركة [فَأَنْطَلَقْنَا حَتَّى إِذَا رَكَبْنَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقْنَاهَا... فَأَنْطَلَقْنَا حَتَّى إِذَا لَقِينَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ... فَأَنْطَلَقْنَا حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا...] (71-77).

وكذلك في قصة ذي القرنين [ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا... (85) وليس هذا فحسب، بل إنه طاف الأرض كلها من شرقها إلى غربها [حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ] (90) [حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ] (93).

وكان من إرشاداته للقوم الذين يساعدهم: [فَاعْيُونِي بِقُوَّةٍ] (95)

فلا يتفرجون عليه خلال بنائه للسد، ولكن يجب عليهم أن يتحركوا ويشاركوا.

وهذا كله يشير إلى أن العواصم من الفتن تكون بالحركة والإيجابية وليس بالسكون والاستسلام والسلبية. فإن أؤدي المرء في مكان فليتحرك إلى مكان آخر يمكنه من إقامة شعائر دينه والحفاظ عليه، ولذلك شرعت الهجرة في الإسلام فراراً بالدين وأشارت السورة إليها من خلال الحديث عن هجرة أهل الكهف.

ومن اللطيف أن هذه السورة تقرأ في يوم الجمعة، الذي هو يوم إجازة عند المسلمين، فبدلاً من السكون والخمول في هذا اليوم، عليهم أن يقرأوا سورة الكهف ويعتبروا بما فيها من حركة وإيجابية لينطلقوا بالعمل الإيجابي ويعصموا أنفسهم من الفتن، لأن الساكن يسهل صيده.

القرآن والعصمة من الفتن

ومن الملاحظ أن السورة بدأت بذكر القرآن كما اختتمت بذكر القرآن، لأنه هو العاصم الأساسي من الفتن إن قرأناه وفهمنا محاور سورته وأهدافها...

[أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا] (1).

[قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ

رَبِّي..] (109). أي أن مراد الله وحكمته لا يحدهما شيء، فالمعين الأول على النجاة والعصمة هو هذا الكتاب، فقد ذكر قبل الفتن وبعدها.

الدعوة إلى الله والعصمة من الفتن

ومن الملاحظات اللطيفة في السورة، أن قصصها الأربع اشتملت على جميع مستويات الدعوة إلى الله تعالى:

1. فتية يدعون الملك. (أهل الكهف).

2. رجل يدعو صاحبه (صاحب الجنتين).
 3. معلم يدعو تلميذه (الخضر وموسى عليهما السلام).
 4. قائد يدعو رعيته (ذو القرنين)
- وهذا يشير إلى معنى هام جداً، أن الدعوة إلى الله هي - إلى جانب التمسك بالقرآن - عامل مهم من عوامل العصمة من الفتن...

الإيمان بالغيب

نلاحظ أن الغيب والأمور الغيبية تحف أجزاء كثيرة من قصص السورة. فهناك بعض الغموض في قصة أصحاب الكهف (كم لبثوا، وأين يقع كهفهم، وما عددهم) حتى أن آية كاملة (الآية 22) تناولت الحديث عن الاختلاف في عددهم، فلماذا؟

وهناك غموض في مكان السد الذي بناه ذو القرنين، ومكان وجود يأجوج ومأجوج... كما أن هناك الكثير من الغموض في أفعال الخضر عليه السلام وتساؤلات موسى عنها، فما العبرة من كل هذا؟

فكأن السورة تقول لنا: افهموا، أن الغيب لله وحده، وأحياناً يظهر الأمر على عكس حقيقته فسلموا لله وثقوا به، لكي تضمنون العصمة من الفتن إن شاء الله.

كهف الدعوة

ويبقى سؤال أخير، وهو: لماذا سميت السورة بسورة الكهف؟

إن المرء حين يسمع بالكهف، يشعر بالخوف والظلام والرعب، وعندما يسمع من يقول له: (فأووا إلى الكهف). يخاف من المجهول والظلام اللذان يلفان الكهف، لكن الله تعالى جعله آمناً ورحمة [فَأُوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ]... (16)

والله تعالى يقدر من الغيب ما لا يعلمه الإنسان ويخافه (تماماً كالكهف

المجهول الذي دخله الفتية)، فسميت سورة الكهف بهذا الاسم لتشعر الإنسان بجهله بأمور الغيب ولتقول للمسلم: سلّم الغيب لله، وتوكل عليه، فكما لجأوا هم للكهف ونشر الله لهم من رحمته، فالجأ إلى كهف الدعوة وسلّم الأمر لله، ينشر لك من رحمته ويهيء لك من أمرك مرفقاً...

سورة مريم

سورة مريم (مكية)، نزلت بعد سورة فاطر، وهي في المصحف بعد سورة الكهف. عدد آياتها 98 آية.

زينة الحياة الدنيا

كل إنسان يحب النسل والذرية. فإذا رزق أطفالاً، ينشغل تفكيره في تأمين ما يلزم لهم من حاجيات، فيكون انشغاله وهو شاب في إنجاب الأولاد وتنشئتهم وتأمين الغذاء والتعليم والطبابة، بينما يكون انشغاله عند اقتراب أجله في توريثهم.. ومسألة حب الأولاد فطرة بشرية فطر الله تعالى الناس عليها، وسورة مريم تركّز على هذا الموضوع بشكل أساسي، لكنها تسأل كل والد ووالدة: لماذا تريدون الإنجاب؟ أمن أجل التمتع بالولد فقط؟ وماذا ستورثونهم؟ أموالاً وعقارات فقط!!!

توريث الدين للأبناء

إن في سورة مريم سبباً أرقى للإنجاب، وهو المحافظة على الدين من خلال توريثه لأجيال قادمة تحافظ عليه وتمسك به، وهذا أفضل ما يرثه الأولاد قبل حطام الدنيا ومتاع الدنيا. وكأن المسلم يسلم شعلة الدين لابنه، وابنه يسلمها من بعده للحفيد، وهكذا!! فلا يصح أن يذهب جيل متدين ثم تأتي بعده أجيال لا تعرف دين ربها أو تعرفه معرفة سطحية، فتعم الشهوات والفواحش في المجتمع بسبب تربية الآباء لأبنائهم على غير دين الله والاهتمام بتوريثهم المال فقط.

فمحمور سورة مريم إذاً هو: الولد ووراثة الدين. ولذلك فإن السورة هي من أكثر السور التي تكرر فيها ذكر "الولد" و"الوراثة".

عائلات ربانية

ولذلك، تحدثنا السورة عن نماذج لأشخاص أُنجبوا أبناء بنية تسليمهم أمانة هذا الدين. فنجد في السورة زكريا ويحيى، ومريم ابنة عمران وابنها عيسى، ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، عليهم السلام جميعاً... وكأن السورة تخاطب كل الآباء وكل الأمهات لتسألهم: هل أنتم حريصون على تربية أبنائكم تربية توصلهم إلى معرفة الله تعالى؟ هل أنتم حريصون على توريث أولادكم دين الله وتربيتهم على الإسلام؟

زكريا ويحيى عليهما السلام

ومن أول السورة، نلاحظ رغبة سيدنا زكريا في الولد:

[كهيص & ذكُر رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا & إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا & قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا & وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا & يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا & يُزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا] (1-7).

وكان لسان حال سيدنا زكريا يقول: "يا رب أنا لا أجد أحداً ليحمل مسؤولية الدين، وامرأتي عاقرة، ولا أمل لي بالإنجاب، ولكني أخاف على الدين".
غيره رائعة على دين الله، فقد كان زكريا خائفاً لأن الأجيال الموجودة من بني إسرائيل لا تصلح لحمل الرسالة، فطلب الولد ليورثه الدين، ولأنه صادق النية في طلبه، أتاه الرد الرباني: [يُزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا]...

فكيف نشأ يحيى بعد ذلك؟ وكيف تربى؟ [يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْأْحْكَمَ صَبِيًّا] (12).

فمع أن حب إنجاب الأولاد والخوف على مستقبلهم هما فطرة طبيعية قد فطر الله عليها البشر، لكننا يجب أن نستغل هذه الفطرة لطاعة الله تعالى، فنربي أبناءنا بنفس الخوف ونفس الحرص على أن يطيعوا الله تعالى ويحملوا لواء دينه..

مريم وعيسى عليهما السلام

وقصة مريم عليها السلام لا تختلف عن قصة زكريا، فقد نذرتا أمها (امرأة عمران) لتحرير المسجد الأقصى من يد الرومان، قبل أن تعلم أنها أنثى [رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا] (آل عمران، 35). أما في سورة مريم، فإننا نجد أنها تورث هذه الأمانة لابنها.

فعندما أتت قومها وهي تحمل عيسى عليه السلام، [... قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا] (29) ولا يدرون أن صبي المهدي هذا قد ورث الرسالة صغيراً وحمل أمانة الدعوة.

[قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا & وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا & وَبَرًّا بِوَالِدَتِي..] (30 - 32).

بر الأبناء

وسورة مريم هي من أكثر السور التي ركزت على البر، لذلك نرى أن أهم صفات يحيى عليه السلام كانت [وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ..] (14).

أما عيسى عليه السلام فيقول [وَبَرًّا بِوَالِدَتِي] (32).

ومعلوم أن بر الوالدين لا يكون من الولد إلا إذا نشأ في بيئة صالحة، كأن السورة تقول للآباء والأمهات: ربوا أبناءكم على حمل أمانة الدين، لتتصروا دين الله تعالى، فتنالوا الأجر العظيم في الآخرة، وترزقوا بر أولادكم وطاعتهم لكم.

إبراهيم عليه السلام مع أبيه

وبعد ذلك تحدثنا الآيات عن نموذج معاكس تماماً لما سبق: ابن مؤمن يأخذ

بيد أبيه الكافر، إبراهيم عليه السلام مع أبيه. ومن رفقه بأبيه وشفقته عليه، أخذ يدعو إلى الله بكل شفقة وحنان ومحبة: [.. يَأْتِيَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا & يَأْتِيَتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا] (42-43).

يا شباب، تعلموا من إبراهيم عليه السلام أدب الدعوة مع الأكبر سنًا، خاصة إذا كان من الأهل، فإن أكثر ما ينفر الناس من الدين هو الشاب المتدين السيء الخلق، الذي لا يخاطب الناس بأدب أثناء دعوتهم. أنظر ماذا يقول لأبيه:

[يَأْتِيَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا & يَأْتِيَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا & يَأْتِيَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا & يَأْتِيَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا] (44 - 45).

ولما كان على هذه الدرجة من الأدب والبر بأبيه على كفره وضلاله، أكرمه الله تعالى بأولاده [فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا & وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا] (49-50).

فكان يره بأبيه كان سبباً ليرزق اثنين من الذرية الصالحة التي تقر بها عينه، وتحمل الدين وتورثه.

إسماعيل: وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة

وتمر الأجيال تلو الأجيال، ويسلم كل جيل هذه الأمانة لمن بعده:
فتذكر الآيات إسماعيل عليه السلام، وتقول عنه [وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا] (55)... فواضح أن الأجيال كانت تسلم بعضها لواء الدعوة إلى الله...

وتأتي الآيات على ذكر موسى عليه السلام، فتركز على نفس المعنى:

[وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا] (53).

وبعد كل هذه الأمثلة المضيئة في تاريخ البشرية، يأتي تعقيب رائع في الشناء على الذين يورثون أبناءهم شعلة الدين:

[أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا] (58).

فخلف من بعدهم خلف

كان توارث الأجيال للواء الدعوة واضحاً عند أنبياء الله تعالى منذ بداية استخلاف الله للناس على الأرض [... مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ]، ولكن للأسف جاءت بعد ذلك أجيال كل همها تربية الأولاد على الدنيا والشهوات وتوريثهم الأموال.. فهم لم يتدبروا سورة مريم ولم يفهموا أهمية توريث الدين، فضيَّع أولادهم الصلاة واتبعوا طريق الشهوات...

[فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا] (59)...

أخخي المسلم، اختر لنفسك أنت وعائلتك: مع أي فئة تحب أن تحشر؟ مع (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أم مع الذين (أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ)؟ فإن كنت من النوع الأول، فافرح بالآية الكريمة: [تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا] (63) لأن الجزء من جنس العمل، فورث الدين لأبنائك، يورثك الله الجنة أنت وإياهم إن شاء الله.

احذر أن تكون منهم

أما إن كنت من النوع الثاني، فاحذر قول الله تبارك وتعالى:

[أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا] (77).

فالولد قد يكون رحمة وذكرًا حسنًا وصدق جارية لأهله، وقد يكون بالمقابل

سبباً لكفرهم وصددهم عن سبيل الله، كما ذكرت الآية. السورة تؤكد دائماً على نفس المعنى: ليس المهم أن تتمنى الأبوة العادية، ولا بد من طلب الأبوة لمصلحة الدين.

سبحانه وتعالى عما يقولون

وبمناسبة الحديث عن الأولاد، تنتقل الآيات إلى معنى آخر. فأنتم أيها البشر محتاجون للولد، أما الله تعالى فهو غني عن الولد سبحانه وتعالى.

فتنكر السورة على القائلين بأن الله سبحانه اتخذ ولداً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً: [وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا & لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا & تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا & أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا & وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا & إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا & لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا & وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا] (88 - 95).

ففي نفس السورة التي تحدثت عن الولد، أشارت الآيات إلى حاجة الإنسان الشديدة لاتخاذ الولد ونفت ذلك بشدة عن الله سبحانه وتعالى فلا يحتاج إلى الابن لأنه حي لا يموت، أما البشر فهم محتاجون للولد لأنهم يكبرون ويموتون ويورثون.

نسمات وأمواج

ونلاحظ أن القسم الأول من السورة تحدث عن حاجة الإنسان إلى الولد والأطفال والذرية فجاء خطاب الآيات رقيقاً... [ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً... إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا... وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا..] فالمقاطع شديدة في آخرها.

والسورة بالمناسبة من أكثر السور إيراداً للفظ الرحمة واسم الله الرحمن، فقد

ذكرت لفظة الرحمة ومشتقاتها في السورة 20 مرة.

أما النصف الثاني من السورة والذي ينفي عن الله اتخاذه للولد، فلقد جاء خطابه شديداً مقرعاً، ليناسب الافتراء الشديد الذي ادعاه البعض على الله وهو ادعاء الولد له سبحانه. فجمعت السورة بين الرقة والشدة في الخطاب من غير أن تتغير حركة السورة وإحساس القارئ بالسورة لا يتغير.. وهذا من إعجاز القرآن..

لماذا سميت السورة بـ (مريم)

هناك الكثيرون ممن ورث أبناءه الدين في السورة (إبراهيم أو إسماعيل أو زكريا). فما هو السر وراء تسمية السورة باسم السيدة مريم؟

لأن الأم هي المورثة الحقيقية للدين، وهي التي تربي وترعى الطفل حتى يبلغ رُشدَه، فسُمِّيت السورة باسم سيدة نساء العالمين، لأهمية دور المرأة بشكل عام في توريث الدين للأبناء، ولأن السيدة مريم نفسها كانت نموذجاً رائعاً لمن ورثت الدين عن أهلها (آل عمران) وورثته لابنها..

سورة طه

سورة طه مكية، نزلت بعد سورة مريم، وهي بعدها أيضاً في ترتيب المصحف. عدد آياتها 135 آية.

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى

وهدف سورة طه نعرفه من بدايتها: [طه & مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى] (2-1)...

ومعنى ذلك أن هذا الدين وهذا المنهج ليسا لشقاء الناس، بل إن الإسلام هو منهج السعادة. فلا شقاء مع الإسلام، رغم كل الظروف والصعوبات التي تواجه المتدينين، لكن الشقاء يكون في ترك طريق الله تعالى [.. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى]...

إن أكثر من يستفيد برسالة هذه السورة هم الشباب البعيدين عن التدين، أو الذين يريدون الالتزام، لكنهم يخافون من أن التزامهم بمنهج الله تعالى سوف يمنعهم من السعادة، ويجلب عليهم الكآبة ويحرمهم من متع الحياة وأسباب اللهو والترفيه.. هذا المفهوم خاطئ جداً، لذلك تأتي السورة لتؤكد لنا أن الإسلام هو منهج السعادة، وأن من حاد عن هذا المنهج سيشقى في الدنيا والآخرة. معنى رائع ومفهوم جميل. كيف ترينا سورة طه هذا المعنى؟ تعال معنا لنعيش مع آيات السورة من أولها.

كيف تشقى مع الرحمن؟

تبدأ السورة بمقدمة رائعة تأسر القلوب بكلماتها: [طه & مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى & إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى] (1-3).

فالقرآن لن يكون شقاءً لكم يا مسلمين، بل إنه سيكون تذكرة لكم، وهذه التذكرة هي التي ستكون سبباً لسعادتكم.

[... تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى & الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى] (54).

واسمعوا هذا المنهج ينزل من عند من؟ الرحمن، وجاء ذكر اسم الله الرحمن بعد ذكر الشقاء ليعلم الناس بأنه لا يمكن أن يكون دين الرحمن هو سبب للشقاء، فكيف يشقى الإنسان بمنهج الله تعالى وهو الذي له الأسماء الحسنى كلها [الله لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى] (8).

موسى والسعادة مع منهج الله

وتعرض السورة بعد ذلك نموذجاً كلنا نعرفه: سيدنا موسى عليه السلام: نموذج للصعوبات الشديدة أثناء الدعوة، لكنها محاطة بعناية الله ورعايته. وكأن هذه القصة تقول لنا: ليس معنى أن القرآن منهج الراحة والسعادة، أن الحياة كلها ستكون وردية بلا مشاكل ولا أحزان... إن الحياة مليئة بالعقبات، خاصة إذا كنت أيها المؤمن ممن يحملون هذا المنهج ويدعون إليه... إلا أن هذه الصعوبات لا تسبب الشقاء (والمقصود بالشقاء: النكد والكآبة، والهلم والغم، وضيق الصدر) لأن المؤمن مهما واجه من صعوبات فهو موصول بربه، مستعين به في كل أحواله... لذا فهو دائماً راضٍ ومطمئن.

كلمات من نور

وقصة موسى تحمل في آياتها ملامح رحمة ربنا في وسط صعوبة الحياة وشدتها. وحتى طريقة عرض القصة واختيار الكلمات يتميزان عن باقي مواضع قصة موسى في القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: [إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً] (10).

ولأن الرسالة شديدة وحملها ثقيل، ولأن سيدنا موسى كان يشعر بهيبة الموقف، تبدأ معه الآيات بسؤال لطيف وسهل للمؤانسة [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى] (17).

وعندما دعا سيدنا موسى ربه، دعا بما يعلمه عن هذا المنهج من سعادة وطمأنينة وتيسير: [قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي & وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي & وَأَخْلِلْ عُقْدَةَ مَنِ لَسَانِي] (25 - 27)..

لذلك تأتي آيات أخرى تحمل نفس الرقة ونفس الحنان.

[خُذْهَا وَلَا تَخَفْ] (21) [قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى] (36) [وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى] (37) [وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي] (39)..

[وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ] (40) [وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي] (41) [لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى] (46) [لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى] (68) أريت كم مرة تكررت كلمتي: "لا تخف؟!!!" وكأن هذا نموذج حي لنصرة الله تعالى لعباده المؤمنين... وكأن هذا نتيجة ثقة أم موسى في وعد الله وطاعتها له سبحانه، بإلقائها وليدها في البحر... وكأن هذا تعويضاً لموسى الذي ألقى بأمر الله وهو حديث الولادة في صندوق مظلم تتقاذفه الأمواج... نعم، لقد تعبت أم موسى وجاهدت نفسها، وتعب موسى في مواجهة فرعون، لكن طمأنة الله لهما كانت رائعة... وهكذا المؤمن، مهما مرت به المحن، تجده سعيداً راضياً تملأ قلبه السكينة...

فلماذا نضع الحواجز بيننا وبين التدين؟ ونخافه ونرهبه وهو باب

سعادتنا؟

من لطائف العناية الربانية

ومن لطف القرآن مع النبي ﷺ أن الله تعالى أمن له الكثير من الأمور التي أمّنها لموسى عليه السلام، فدعاء [رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي] يقابله قول الله تعالى للنبي [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ]. وقوله تعالى [وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي] لسيدنا موسى جاء بنفس الكلمات لخاتم الأنبياء ﷺ: [وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا] (الطور 48).

وكأن هذه الآيات وعلاقتها مع بعضها تقول للنبي ρ: لقد تمت هذه الأمور لك يا محمد.

ذاق السحرة طعم السعادة

ونصل إلى موقف السحرة مع فرعون، فهم قد تعرضوا للإيذاء الشديد من فرعون، ومع ذلك فإنهم لم يكونوا في شقاء أبداً، فقد قال لهم فرعون متوعداً:
**[فَلَا فَطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلَبْنَاكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ
 وَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى]** (71).

فماذا كان جوابهم؟

[قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا & إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى] (73).

كلمات في منتهى الروعة، تصدر عن أناس أسلموا منذ ثوان، ليبينوا من هو الشقي ومن هو السعيد: **[إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى & وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى & جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى]** (74 – 76).

إنها سعادة غامرة تفيض من الآخرة على أيام الدنيا، فيقف بها المؤمن أمام طواغيت الأرض دون أن تهمز منه شعرة، لأنه ذاق طعم السعادة الحقيقية.

الشقاء مع ترك منهج الله

وفي نفس القصة، نرى نموذجاً معاكساً للسحرة: إنه السامري، الذي أضل بني إسرائيل بعبادة العجل، فكانت آخر آية في قصة موسى تبين شقاء هذا الرجل:
[قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ] (97).

ولهذا تأتي بعد هذه القصة آيات تعقب عليها، لتؤكد على هدف السورة، أن السعادة في هذا الدين وفي اتباعه، وأن الشقاء كل الشقاء في البعد عنه [كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا & مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا & خَلَدَيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا] (99-101).

ثم يقول تعالى عن سعادة وشقاوة أهل الآخرة: [وَعَنْتِ الْأُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقُيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا & وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا] (111-112).

سيدنا آدم والسعادة

وحين وصلت السورة إلى قصة آدم وحواء، ركزت من خلالها على هدف السورة: [فَقُلْنَا لِيَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى] (117). فترك منهج الله تعالى واتباع إبليس هما سبب الشقاء في الآخرة. لذلك تتابع الآيات ببيان أنواع السعادة في الجنة: [إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى & وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى] (118 - 119).

وهذه القاعدة تطبق على آدم وذريته حتى بعد الخروج من الجنة [قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى] (123).

الشقاء الحقيقي

لقد تكررت كلمة الشقاء ومشتقاتها ثلاث مرات في السورة:

[مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى... فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى... فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى] حتى لا يخاف أحد من التدين واتباع منهج الله، فالسعادة كل السعادة مع التمسك بدين الله تعالى، أما من أعرض عن هذا المنهج، فتأتي آيات رهيبة في تصوير شقاوته في الدنيا والآخرة: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا] هذا في الدنيا فماذا عن الآخرة؟ [وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقَيْمَةِ أَعْمَى & قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا & قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى & وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى] (124 - 127).

أعلى مقامات السعادة

وقمة السعادة أن ترضى عن نفسك وعن حياتك، وترضى عن ربك وتحس برضاه.. وهذا ما يؤكد حتم السورة: [فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ] (130).

كل هذا إلى أين يؤدي؟ [لَعَلَّكَ تَرْضَى] (130).

فتسبيح الله تعالى وذكره وطاعته هما السبيل المؤدي لأعلى درجات السعادة، ألا وهي الرضا، وما هي السعادة سوى الشعور بالرضى؟ الذي حرم منه الكثيرون مهما تمتعوا بشهوات الدنيا من نساء وأموال وقصور وسيارات... فهم قد حرموا الرضا، الذي يؤتاه المؤمن بتسبيح الله تعالى وطاعته

إلى كل من يبحث عن السعادة، إلى الشباب الذين طرقت أبواب المعاصي بحثاً عن السعادة وعادوا خائبين، من فضلكم، اقرأوا سورة طه:

[طه & مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى] (1).

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء مكية، نزلت بعد سورة إبراهيم، وهي في المصحف بعد سورة طه وأياتها مائة وأثنا عشرة آية.

دور الأنبياء في تذكرة البشرية

والسورة تتناول قصص أنبياء الله تعالى، ودورهم في تذكرة البشرية. هؤلاء الأنبياء هم أفضل خلق الله، وهم الذين قادوا الأرض إلى الخير والسعادة. وسورة الأنبياء تسير على نمط واحد، فهي ترينا كيف كان خطاب النبي ودعوته لقومه، وكيف كانت عبادته وتبتله لربه، لتوصلنا في النهاية إلى إثبات وحدة رسالة كل الأنبياء، كما سيتبين معنا.

خطورة الغفلة

وأول مهمة من مهمات أنبياء الله تعالى هي إزالة الغفلة، لأنها سبب ضلال الناس في كل زمان ومكان، ولأنها سبب ضياع الرسالات السابقة. مرض خطير يصيب الأفراد والمجتمعات فيبعدها عن طريق الله.

فالناس إما أن يكونوا عباداً أتقياء، وإما أن يكونوا عصاة فجار، لكن الخطورة تتجلى في النوع الذي يقع بينهما، وهو الصنف الغافل اللاهي البعيد عن طاعة الله، لذلك بدأت سورة الأنبياء بداية شديدة في التحذير من هذا المرض: [أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسْبُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ & مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ & لَأَهِيَّةً قُلُوبُهُمْ..] (1-3).. ثلاث آيات متتالية تحذر من هذا المرض وعوارضه.

[فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ.. وَهُمْ يَلْعَبُونَ... لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ].

قدوتك في العبادة والحركة

ومن أهم أهداف السورة، أن تسألك أخي المسلم: بمن تقتدي في حياتك؟ من هو قدوتك الأساسية؟ ولو سألنا أكثر شباب اليوم عن قدوتهم، يا ترى كم واحد سيجيب أن سيدنا إبراهيم هو قدوته؟ وكم واحد سيجيب أن سيدنا يوسف هو مثاله الأعلى؟ وكم واحد سيقول أن النبي ﷺ هو قدوته؟ وكم واحد سيقول أن المغني الفلاني أو الممثل الفلاني هو قدوته؟ ويا ترى كم واحد سيجيب بأنه ليس عنده قدوة أصلاً...؟

لذلك تدور سورة الأنبياء حول هذا المعنى، وتركز على ناحيتين مضيئتين من حياة كل نبي: طاعته وعبادته وحشيته لله، ثم دعوته وإصلاحه في قومه، وكأنها تقول لك: هؤلاء هم مثلك الأعلى في حسن التعامل مع الله وفي حسن التعامل مع الناس، أي في العبادة والدعوة إلى الله.

وحدة الألفاظ بين الدعاء والاستجابة

فترى في السورة آيات كثيرة تصف دعاء الأنبياء وكيف استجاب لهم ربه. من سيدنا نوح عليه السلام [وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ..] (76) إلى أيوب [وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ] (83) إلى يونس (ذا النون) الذي دعا ربه وهو في بطن الحوت [.. فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ] (87).. إلى زكريا [إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا] (89).

هذه الأجواء الرائعة من مناجاة الأنبياء لربهم كان يعقبها على الفور كلمة واحدة مشتركة بين كل الأنبياء: [.. فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ...].، ولاحظ استعمال القرآن لحرف الفاء (فاستجبنا) لتفيد التعقيب السريع وسرعة استجابة الله تعالى لدعاء الأنبياء.

وكذلك ننجي المؤمنين

وهنا لا بد من التوقف عند أحد الأنبياء الذين ذكروا في السورة، سيدنا يونس عليه السلام، فالآية تقول: **[فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ]** (88)، فلم تقتصر على ذكر استجابة الله لدعائه، لكنها عممت هذه الإجابة على كل المؤمنين إذا دعوا ربهم جل وعلا **[وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ]**... أخي المسلم، ادع الله تعالى بخضوع الأنبياء وخشوعهم، يستجاب دعاؤك إن شاء الله.

بناء واحد

ووحدة دعاء الأنبياء واستعمالهم نفس الألفاظ يؤكد على وحدة رسالتهم وتكامل دعواتهم. اقرأ قوله تعالى **[إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون]** (92). فأمة الأنبياء أمة واحدة، وكل نبي كان له دور في بناء الدين، ليأتي خاتم الأنبياء والمرسلين ويكمل بناء الدين، اسمع معي حديثاً رائعاً للنبي ﷺ في بيان هذا المعنى:

"مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة." وبعد ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين. صلى الله على محمد،

...ﷺ

ولذلك ركزت السورة أن كل نبي بعث إلى قومه خاصة، أما عند ذكر سيدنا محمد فقد قالت: **[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ]** (107). أي للناس كافة، لا بل لعوالم أخرى كالجن.

لماذا لا تقتدي به؟ لماذا تصر على عدم اتخاذه قدوة في حياتك؟ وهو رحمة للعالمين؟

ختام يهز القلوب

ولأن السورة بدأت بخطورة مرض الغفلة، كانت آياتها في الختام شديدة، تهز القلوب لتوقظها من غفلتها. وكأنها تقول للناس: إن لم تقتدوا بهؤلاء الأنبياء، فاعلموا أن المرء والمرجع إلى الله، في يوم شديد وصعب **[يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ**

السَّجِّلِ لِلْكَتُبِ] (104)، تخيل هول هذا اليوم، تخيل صوت السماء وهي تنطوي كما يطوي أحدنا كتابه... وانظر إلى التأكيد الرباني [كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ] (104).

الأرض أرضهم

فمن سار على خطى الأنبياء فهو المنتصر في الدنيا والفائز في الآخرة، لذلك تقرأ بعد الآيات الشديدة في وصف القيامة قوله تعالى: [وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ] (105).

وكان هذه الآيات تقول لأتباع الأنبياء جميعاً: اقتدوا بأنبياء الله تعالى، لترثوا الأرض وتستخلفوا عليها. والآية التي بعدها توضح أكثر [إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ] (106)، وكأنها تحدد لك وجه الإقتداء: أن اعبد الله تعالى كعبادة الأنبياء، لتنال شرف وراثة الأنبياء في الاستخلاف على الأرض...

فإلى قارئ القرآن، بعد أن أتت رسائل كثيرة مبينة في هذا المنهج الرباني، ها هي اليوم سورة الأنبياء، تدعوك إلى الإقتداء بأنبياء الله تعالى، وبإمامهم محمد ﷺ، في عبادتهم وتبتلهم لله تعالى، وفي غيرتهم على دين الله وعملهم الدؤوب على نشره وتبليغه، حتى تكون من عباد الله الصالحين وترث الأرض وفقاً لمنهج الله [أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ] (105).

سورة الحج

سورة الحج مدنية وبعضها مكّي، نزلت بعد سورة النور، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الأنبياء، وعدد آياتها 78 آية.

من أعاجيب السور

لماذا؟ لأن فيها آيات نزلت في مكة وآيات نزلت في المدينة، آيات نزلت ليلاً وآيات نزلت نهاراً، آيات نزلت في الحضر وآيات نزلت في السفر. وليس هذا فحسب، بل أن السورة قد احتوت على ميزات أخرى، فهي السورة الوحيدة التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام. ومن هنا تبرز قيمة الحج لأن الموضوع الأساسي للسورة - كما هو واضح - هو الحديث عن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

الحج مفتاح معانيها

لكننا إذا قرأنا سورة الحج من أولها لوجدناها تتكلم عن يوم القيامة، من أول آية نرى التركيز على القيامة والبعث والنشور، إلى أن تنتقل الآيات إلى الجهاد في سبيل الله، ثم العبودية والخضوع الشديد لله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى يسجد له من في السماوات والأرض... فما علاقة هذه الأمور ببعضها؟ وما علاقتها بالحج؟

إن المسلم عندما يؤدي هذه العبادة العظيمة، أو يعيش مع الحجاج ويتخيل نفسه معهم، سيفهم مراد ربنا من السورة، لأن الحج عبادة لها دور أساسي في بناء الأمة. وكأن السورة تقول لقارئها: حجوا حجة صحيحة، مثل حجة النبي ﷺ، لتبنوا أنفسكم وتدريبوها على معاني رائعة وأساسية، وبالتالي تكون هذه

المعاني عاملاً أساسياً لبناء الأفراد والمجتمعات وبالتالي الأمة كلها...

تذكرة عملية

بدأت السورة بداية شديدة في تذكيرها بيوم القيامة. فمن أول آية نقرأ قوله تعالى: **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ]** فما علاقة الحج بيوم القيامة؟

إن مناسك الحج في أغلبها تذكرك بيوم القيامة، لذلك أطلب من الأخ القارئ، ولو لم تسنح له الفرصة بالذهاب إلى الحج، أن يعيش معنا لقطة من لقطات الحج: ونحن نزل من عرفة، ذاهبين إلى مزدلفة لرمي الجمرات، والحر شديد، والزحام خانق، والانتظار طويل. كل البشر يتضرع إلى الله بالدعاء، وينادي: "لييك اللهم لييك"، ولباس الحج البسيط يذكر بالكفن الذي يلبسه الموتى... كل هذا يذكر بعري يوم القيامة، وزحمة وحر وعرق وشمس يوم القيامة.

الحج ومشاهد الآخرة

ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف أهوال ذلك اليوم كأنك تراها أمام عينيك: **[يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ]** (2).

ثم تنتقل الآيات إلى البعث، والخروج من القبور، عندما يخرج الناس من قبورهم والتراب يعلو وجوههم وأجسادهم، لذلك تذكرنا أن أصل الناس كلهم إنما هو من التراب **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ...]** (5).

وفي الحج أيضاً، عندما تنظر لنفسك بعد يومين من ارتداء ملابس الإحرام، ترى أنك أصبحت كتلة من التراب. والأكثر من ذلك، هو أن تحج كحجة النبي ﷺ تماماً. فإذا نويت المبيت في مزدلفة، ترى الكثير من الناس تعباً لا بل ميتاً من التعب، كأنه ميت فعلاً. فإذا أتى وقت الفجر يستيقظ الناس كأنهم يبعثون من

القبور: الكل يلبس الثياب البيض ويتحرك لرمي الجمرات... لذلك تأتي الآية 7 لتذكر بالبعث من القبور: [وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ] (7).

وهكذا نرى أول أثر من آثار الحج في تربية الأمة: تربيتها على اليوم الآخر والاستعداد له، بأن يعيش أفراد الأمة بعض لحظاته ومعاله أثناء الحج.

مناسك الحج: غاية الطاعة لله تعالى

ثم تنتقل الآيات (26 - 37) إلى ذكر مناسك الحج المختلفة، لتأتي خلالها الآية المحورية: [ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْرَهُ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ] (32).

فما السر في هذه المناسك العظيمة التي شرعها لنا الله تعالى؟

إنك في خلال الحج، تنفذ أوامر وتعليمات محددة ومشددة من الله تعالى، إن لم تنفذها بدقة تفسد الحج. فالمسلم في الحج يطوف سبع مرات حول حجر، ويسعى سبع مرات بين حجرين، ثم عند رمي الجمرات، فهو يرمي بحجر على حجر... فهو يطبق مناسك عديدة قد لا يفهم الحكمة من ورائها، لكنه ينفذها فقط طاعة لله تعالى، واستسلاماً لأمره، وفي هذا قمة العبودية والطاعة لله تعالى، والتدريب على فريضة أخرى من فرائض الإسلام: الجهاد في سبيل الله.

الحج والجهاد

لذلك تأتي بعد آيات الحج مباشرة آيات الجهاد في سبيل الله: [إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...] (38) ثم قوله تعالى: [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ] (39).

كأن المعنى: أن الحج تدريب أساسي على الجهاد في سبيل الله، لأنه عبارة عن حركة شاقة وانتقال من مكان إلى آخر، والحاج - كالمجاهد تماماً - كثير الارتحال بين الأماكن والمناسك دون أن يعرف الاستقرار. باختصار، إن الحج هو من أسمى العبادات التي يترك فيها المسلم كثيراً من عاداته التي تعود عليها في بيته، ليبنى نفسه ويعودها على الجدوية واقتحام الصعاب.

الحج والخضوع لله

ومن روعة الحج أنه يجعلك تستشعر أن الكون كله عبد لله. ففي يوم عرفة تشعر أنك لست وحدك من يسجد لله في هذا الكون ويدعوه، بل تشعر أن الخيمة ساجدة هي الأخرى، وأن الجبل نفسه ساجد، بل الكون كله، فتنضم أنت - أيها الإنسان الضعيف - إلى هذه المخلوقات وتشاركها في سجودها وخضوعها لله تعالى. وهذا ما نراه بوضوح في الآية 18:

[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ].

حياة الأمة... بين سجدتين

واللطيف أن أول سورة نزلت فيها سجدة مع بداية البعثة كانت سورة العلق، التي جاء فيها قوله تعالى: [كَأَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ]، بينما آخر سورة نزلت فيها سجدة كانت سورة الحج، التي نزلت مع نهاية البعثة، والتي ترى فيها قوله تعالى: [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (77).

والفرق بين السجدتين يظهر النقلة العظيمة التي انتقلتها الأمة، من السجدة الأولى الموجهة للنبي ﷺ وحده في سورة العلق، إلى السجدة الأخيرة التي وجهت للأمة كلها في سورة الحج. فهي نقلة نوعية في فترة محدودة، من النبي وحده في غار حراء، إلى أمة عابدة مجاهدة..

من فضلك، إنو أداء هذه الفريضة العظيمة، أو على الأقل العمرة، لتعد نفسك وتربيتها على المعاني التي أتت في هذه السورة الكريمة. واقرأ سورة الحج بنية من يريد أن يستفيد من دروس الحج ومعانيه، حتى لو لم تتح له الفرصة بعد...

المؤمنون

سورة المؤمنون مكية، نزلت بعد سورة الأنبياء، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الحج، وعدد آياتها مائة وثمانية عشر آية.

كيف أنت من صفاتهم..؟

تذكر هذه السورة أهم صفات المؤمنين، وتضع أمامها مصير المكذابين. وكأنها تسأل قارئ القرآن، وتقول له: أين أنت من صفات هؤلاء المؤمنين المفلحين الذين عرضت عليك صفاتهم..؟ كما أنها تلفت نظرك إلى معنى مهم، وهو أن هذه الصفات تجمع ما بين الأخلاق والعبادات، فترى أول صفة هي صفة عبادة، ثم التي بعدها صفة خلق، وهكذا... فاعرض نفسك على الصفات التالية، وضع لنفسك علامة أمام كل واحدة:

استقصاء الإيمان

تبدأ السورة بقوله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ] (1). فمن هم؟ وكيف نكون منهم؟ ابدأ معنا في الإجابة على محاور الاستقصاء:

- [الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ] (2): كيف تؤدي صلاتك؟ هل تخشع فيها أم لا؟ كم نقطة تعطي نفسك عن هذا السؤال؟

- [وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ] (3): هل تغتاب مسلماً أو تقع في النسيمة؟ هل تمسك لسانك عما لا يفيد من الكلام؟ هل تعرض عن مجالس الغيبة وتمتنع عن سماعها؟

- [وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ] (5): كيف أنت مع غض البصر؟ والعفة والبعد عن كل ما يؤدي إلى الزنا؟
- [وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ] (8): كيف حفظك للأمانة؟ من أبسط الأمانات (الشريط أو الكتاب الذي استعرته من صديقك)، إلى أمانة الدين وحفظه ونشره بين الناس؟
- [وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ] (9): هل تحافظ على الصلاة في أول وقتها؟ وتحافظ على الجماعة؟ كم نقطة تعطي نفسك على أداء الصلاة والحفاظ عليها؟

إذا نجحت... مبروك

فإذا كانت نسبة تحقق هذه الصفات عالية عندك، فاستبشر بقوله تعالى [أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ & الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]. مبروك، لقد حزت جائزة ربانية عالية، وشهادة ربانية في الآيات (10 - 11) تؤهلك لكي ترث الأرض في الدنيا، وتنال الفردوس الأعلى في الآخرة.

تاريخ المؤمنين... ومصير المكذبين

ثم تنتقل الآيات إلى ذكر تاريخ المؤمنين على هذه الأرض، فتذكر قصص عديدة لأنبياء الله تعالى، مع التركيز على وراثة كل جيل من الأنبياء لصفة الإيمان.

[ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ۖ آخَرِينَ] (31).. [ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ۖ آخَرِينَ] (42).

وبين هذه الآيات، يأتي ذكر لمصير المكذبين بآيات الله تعالى، وكأنها تقول للمؤمنين الذين عرضوا صفاتهم على الاستقصاء الموجود في أول السورة: إياكم والبعد عن طريق الإيمان، إياكم وترك الصلاة، فتناولوا المصير الذي ناله هؤلاء:

[فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۖ فَجَعَلْنَاهُمْ عُنُفًا ۖ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] (41).

[كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ] (44).

أرأيت كيف يكون البعد عن الإيمان سبباً للهلاك...

صفات أرقى وأعلى

وبعد ذلك، تعرض الآيات صفات أخرى للمؤمنين، هي بمثابة مستوى أعلى من الصفات السابقة: إقرأ معي الآيات 57 - 61:

[إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ] (57): ففي أول السورة كان الخشوع صفة مطلوبة في الصلاة، أما هنا فالمستوى أعلى: أن تصاحبك خشية الله تعالى في كل أمور حياتك وعند كل عمل.

[وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ & وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَّا يُشْرِكُونَ] (58)- (59). فلا يشركون مع الله أحداً في عبادتهم، سواء كان هذا الشرك شركاً أكبر (كأن يدعو مع الله إلهاً آخر) أو شركاً أصغر وهو الرياء. فإياك أن تبتغي من عملك شيئاً سوى الأجر والثواب من الله.

[وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ] (60).

وهنا نصل إلى قمة في صفات المؤمنين، وهي أن تعبد الله تعالى وتنفيذ أوامره ثم تخاف، مم؟ من عدم قبول العمل. وقد سألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقالت: أهو الرجل يسرق ويزني ويخشى الله؟ فقال: لا يا ابنة الصديق، إنما هم الذين يعبدون ربهم، وهم يخشون ألا يتقبل منهم "

شهادة ربانية

ولكل هذه الصفات، استحق هؤلاء المؤمنون شهادة أخرى من الله تعالى: [أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ] (61). فهم لا يتركون فرصة لتحصيل الأجر والثواب إلا وسارعوا إليها وتسابقوا عليها...

بعد العمل... الدعاء

وكان أجمل ختام لسورة المؤمنون، تعليمنا دعاء رائعاً:
[وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ] (118).

ما سر ختام السورة بهذا الدعاء؟ لأن المؤمنين الذين نجحوا في الصفات التي ذكرت في السورة، قد يخطئون بعدها أو يقصرون في المحافظة على المستوى الإيماني الذي جاءت به السورة، فكان لا بد من الختام بآية ترشدك إلى طريق الاستغفار من الذنوب والتقصير الذي قد تقع به، لأن ذلك من طبيعة البشر...

سورة النور

سورة النور (مدنية)، نزلت بعد سورة الحشر، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة المؤمنون، وعدد آياتها 64 آية.

منازل من نور

سورة النور هي سورة الآداب الاجتماعية، إنها سورة تعنى بشؤون الناس داخل بيوتهم، إنها تعنى بكيفية الحفاظ على أدب العلاقات بين أفراد المجتمع، وكيف نصل إلى حالة من الانسجام والفضيلة في مجتمعنا، وكيف نقيه من الفساد والرذيلة.

أسنة الفتنة

لقد نزلت سورة النور في مناسبة ما أشاعه المنافقون حول السيدة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، واتهامهم إيها بالزنا وهي المبرأة من فوق سبع سماوات. وما جرى في هذه الحادثة هو أن السيدة عائشة خرجت مع النبي ﷺ في غزوة المصطلق، فتوقف الجيش للراحة. ففقدت السيدة عائشة عقدها، وفيما كانت تبحث عنه، جاء الرجال وحملوا الهودج الذي كانت فيه دون أن يحسوا بعدم وجودها فيه لصغر حجمها ووزنها... ولما عادت السيدة عائشة وجدت أن الجيش قد سار وأصبحت وحيدة في الصحراء...

وكان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقى رجلاً خلف الجيش، فإذا ما تأخر أحد عن الجيش يرشده. فجاء صفوان بن المعطل الذي كان يسير متأخراً عن الجيش وهي وحيدة فوضعها على الناقة، ولم يكلمها ولم يحدثها ولم

ينظر إليها إلى أن دخل إليها المدينة... فاستغل المنافقون هذا الأمر وبدأوا بإشاعة الفتنة وإشاعة الأمر بأن الفاحشة - والعياذ بالله - قد حصلت بين السيدة عائشة وصفوان بن المعطل... وبدأ المجتمع يلوك هذا الكلام الباطل، ووقع بعض المؤمنين في هذا الخطأ، وصاروا يقولون: لا يمكن أن يوجد دخان بدون نار. واختلفت أحوال المسلمين حول هذا الأمر، فمنهم من كان حائراً ومنهم من لم يصدق الكلام إطلاقاً، ومنهم من ظن وقوع الفاحشة... وانقطع الوحي مدة شهر كامل... وكان ذلك اختباراً للمجتمع الإسلامي بأسره...

براءة ربانية

وظل الوحي محبوباً عن النبي ﷺ حتى يخرج المجتمع ما عنده، وكان اختباراً صعباً، حتى نزلت آيات سورة النور لتعلن براءة السيدة عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سماوات:

[إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ آفْرَةٍ مِّنْهُمْ مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (11)...

فهذه الآية تعلن بمنتهى الصراحة تبرئة السيدة عائشة، وأن ما حصل إنما هو إفك أي كذب شديد وافتراء شديد لا برهان عليه، وكل من ينشر مثل هذه الأكاذيب في المجتمع (وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين) لهم عذاب عظيم...

لا تحسبوه شراً لكم

والآية السابقة تعلق على حادثة الإفك وانتشارها بين المسلمين بشكل عجيب: [لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...] (11)، فأين الخير في ذلك؟

إن المجتمع الإسلامي في المدينة كله سيتعلم من هذه الحادثة، ونحن أيضاً سنتعلم من هذه الحادثة، وسلسلة الأحكام والآداب الاجتماعية التي رافقت نزول

السورة ستكون خيراً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مصداقاً لقوله تعالى [بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ].

ظنوا بأنفسهم خيراً

وأول تعقيب بعد حادثة الإفك كان قوله تعالى: [لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ] (12). آية رائعة تعلمنا كيفية التصرف عند إشاعة الفتن والكلام في أعراض الناس. هذه الآية نزلت في أبي أيوب الأنصاري حين سأل زوجته: لو كنت مكان عائشة أكنت فعلت ما قيل، فقالت لا، فقال عائشة خير منك. فقالت له: لو كنت مكان صفوان بن المعطل أكنت فعلت ما قيل، فقال لا، فقالت صفوان خير منك... فنزلت الآية فيهم لتمتدح فعلهم الرائع وليكونوا نموذجاً وقدوة لكل المسلمين. ومن لطف الآية أنها قالت [ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا] مع أنهم "ظنوا بإخوانهم خيراً"، كأنها تقول للمسلمين: ظنوا بإخوانكم كما تظنون بأنفسكم، فأنتم مؤمنون بإخوانكم، وتركوا المنافقين يظنون فيهم كما يشاؤون. وكأن الآيات توحى إلينا أن طعنك أيها المسلم في أعراض الناس هو طعن في عرضك، وأن دفاعك عن عرض أخيك وحسن ظنك فيه هو دفاع عن نفسك.

إياكم والأعراض

فاحذر أيها المسلم من الخوض في أعراض الناس، وخاصة النساء. واحذر قبول وساوس الشيطان في أعراضهم، واحذر الترويج لما يشاع في الجرائد من فضائح وإشاعات فتسيء الظن بالناس ظلماً وتقع في كبيرة من الكبائر التي حذرت منها السورة: قذف المحصنات.

فالذين أشاعوا الإفك من المنافقين، والذين قبلوه من المؤمنين لم يأتوا بشهداء

أو بينة:

[لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ] (13).

لكن فضل الله تعالى ورحمته سبقا غضبه [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] (14).
وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم

ثم تعود الآيات إلى وصف خطورة الموضوع:

[إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ & وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ & يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (15 - 17).

كل هذه الآيات كانت تعليقاً على حادثة الإفك، فكانت تعليماً للصحابة وللأمة من بعدهم أن لا يخوضوا في أعراض النساء، وقد يقع به بعض الشباب بكلمة أو إشارة أو إيماءة، وقد يقولونه من باب المزاح دون قصد الإيذاء، لكن الآيات تحذره بشدة: [وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ] (15) وتنهاهم أن يعودوا لمثله [يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (17).

وهكذا نرى أن قصة الإفك حملت من الخير لمجتمع المدينة ولكل المجتمعات الإسلامية الخير الكثير، فتعالوا معاً إخواني نستعرض آيات السورة ونفهم سوياً مراد ربنا من هذه السورة.

بداية شديدة لجريمة شديدة

فكيف بدأت السورة؟ لقد بدأت بداية غير معهودة فيما قبلها من السور القرآنية: [سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا...] (1). وهي بداية شديدة، ولكن كل سور القرآن أنزلت وفرضت، فلماذا بدأت السورة بتلك البداية؟ وكأن هذه السورة تريد أن تضع سياجاً شديداً لحماية المجتمع، فكان لا بد لهذا السياج من مقدمة قوية للفت الأنظار إلى أهمية الأحكام القادمة.

[سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ].

فماذا كان أول هذه الأحكام؟

[الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ] (2).

ومع أن الأصل في ديننا هو الرحمة والرأفة، لكن الآية قالت [وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ].

ومع أن الإسلام يحثنا على الستر، لأن الله تعالى سترنا يحب الستر، لكن في حد الزنا تقول الآية: [وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ].

رد شبهة

وهنا يبدأ أعداء الإسلام في انتقاد هذا الدين، ووصفه بالتشدد والوحشية في تطبيق الأحكام، وللأسف يستحي بعض المؤمنين من الرد على هذه الشبهات، أو يصدقونها في بعض الأحيان. وإلى كل هؤلاء نقول: لا تحكموا على الإسلام إلا بعد أن تقرأوا سورة النور كلها وتفهموا روعة الإسلام في حل مشاكل المجتمع.

وسائل الوقاية

وسبب هذه البداية الشديدة، أن السورة وضعت ضمانات قوية لعدم وقوع الزنى، فلو وقع أحد في هذه الجريمة بعد كل هذه الضمانات والضوابط التي ذكرت في السورة، فمعنى ذلك أن فطرته قد شذت شذوذاً شديداً، فلا بد له من عقوبة رادعة.

سبع خطوات وضوابط تضمنتها السورة، هي كالسياج الذي يحفظ المسلم، تحمي المجتمع وأهله من الوقوع في الفاحشة، وتحافظ على نقاوة المجتمع وطهارته وعفته... فتقرأ فيها آداب الاستئذان وتزويج الشباب ومنع البغاء وغض البصر والحجاب وعدم الخوض في الأعراض ظلماً بلا شهود، ثم يأتي تطبيق الحد في

مكانه المناسب من هذه الضوابط ليكون رحمة للمجتمع وردعاً للشواذ الجامحين في شهوتهم وإفسادهم. فما هي هذه الشروط؟

آداب تنور المجتمع

1. الاستئذان:

فلا يدخل رجل على امرأة بمفردها في بيتها، وخاصة لو كان أختاً للزوج أو قريبه. ولا يخلو رجل بامرأة يحل له الزواج منها، ولا يدخل الأولاد على أبويهم في أي وقت يشاؤون بلا استئذان وكذلك الخدم. يقول تعالى:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ & فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ] (27 - 28).

وبعد ذلك يقول الله تعالى [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَتْ ذُنُوبُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ] (58) هذه الآيات هي قواعد المرور داخل البيت المسلم، للأطفال والخدم. اسمع معي هذه القواعد والأنظمة:

[مَنْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمَنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ...] (58) وهي الأوقات التي يتخفف فيها المسلم من ثيابه لينام أو ليرتدي غيرها. ثم تقول الآيات:

[وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] (58 - 59)...

ما هذا الدين العظيم، الذي يدخل مع المسلم إلى داخل بيته، لينظم له حركة البيت بما يضمن له السعادة والوقاية من الآفات والشور...!!

2. غض البصر:

وللحفاظ على المجتمع مما يؤدي إلى الفاحشة، تجد قوله تعالى:
[قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ] (30).
 والأمر بغض البصر والعفة ليس فقط للرجال والشباب، لكنه موجه أيضاً للنساء بنفس الكلمات والأوامر:
[وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...] (31).

3. تزويج الشباب:

فلا يمكن إقامة حد الزنى إذا كان الشباب غير قادرين على الزواج. ولذلك كان من أهم الضمانات التي قدمتها السورة الكريمة: (الحث على تزويج الشباب):
[وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] (32).
 وذلك لسد طريق الفواحش أمام الشباب الذين لا يستطيعون الزواج لضيق ذات اليد، فتدعو الآيات إلى تزويجهم والتوكل على الله أنه سيغنيهم من فضله.

4. منع البغاء:

كما شددت الآيات على أولياء الأمور (وعلى المجتمعات) الذين يدفعون فتياتهم إلى الزنى ليربحوا من وراءها **[وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتَعُنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (33).**

فالسورة بأحكامها الشديدة، تحمي المرأة، وتحذر من المتاجرة بجسدها وعرضها، لأن في ذلك هضم لحقوقها، وإفساد وتمييع للمجتمع كله...

5. الحجاب:

وبعد الأمر بالاستئذان وغض البصر وتزويج الشباب ومنع البغاء، كان لا بد

من الأمر بالحجاب، كأحد أهم الوسائل التي تمنع وقوع الشباب العزاب والمتزوجين في الفاحشة، نتيجة ما يرونه من مشاهد مثيرة للغرائز في الشارع أو على صفحات الجرائد أو في الفضائيات ووسائل الإعلام. فالحجاب من جهة، وغض الأبصار من جهة أخرى، هما ضمانات أكيدة لحماية المجتمع وطهارته. اسمع معي الآيات:

[وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ...] (31).

فالآية أوضحت - من خلال تكرار عبارة **[وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ]** مرتين في آية واحدة - أن المرأة كلها زينة، فلا يجوز أن تبدي من زينتها إلا ما ظهر منها، وهما الوجه والكفين كما بيّن النبي ﷺ.

والآيات لم تأمر بالحجاب فحسب بل فصلته تفصيلاً، فقد وصفت بشكل دقيق شكل الحجاب وشروطه الشرعية: **[وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ]** أي لا بد لغطاء الرأس أن ينزل تحت فتحة الصدر والرقبة. كما أنها حددت للمرأة المسلمة لمن تكشف زينتها:

[وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ...] (31).

فكيف يأتي بعد كل هذا التفصيل، من يقول أن الحجاب في الإسلام ليس فرضاً؟ إن الآيات في هذه السورة وفي سورة الأحزاب فصلت فرضية الحجاب وشكله بشكل غير قابل للنقاش.

6. منع إشاعة الفواحش:

لقد منع الإسلام من إشاعة الفاحشة في المجتمع... فقال تعالى **[إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ]** (19).

فإلى كل وسائل الإعلام التي تنشر الفاحشة والرذيلة والعري في المجتمع، وإلى كل من يروج لأخبار الفضائح ويخوض في الأعراض، اسمع هذه الآيات وابق الله في شباب الأمة. اسمع قوله تعالى:

[إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ & يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ] (23 - 24) ..

لا بد من أربعة شهود

وهكذا نرى أن الإسلام أمر بتطبيق كل هذه الضوابط، ليضمن خلو المجتمع
من كل ما قد يسبب وقوع الفاحشة... فإذا كان الزواج ميسراً، والحجاب منتشرًا،
والترزم الناس بغض البصر واختفت الإعلانات الرذيلة ومنع البغاء، ومع هذا كله،
زنى شخص ما، فهل يكون مستحقاً للحد؟... والجواب طبعاً: لا، لأنه لا يكون
مستحقاً للحد إلا إن شهد عليه أربعة شهداء، ولا يطبق عليه حد الرجم أو الجلد
إلا إذا شهد عليه أربعة شهداء عدول (أي أمناء موثوق في شهادتهم ومعروفون
بخلقهم في المجتمع) أو اعترف هو بنفسه. اسمع قوله تعالى:

[وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ & إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (4 - 5) ..

لهذا استحق العقوبة

ولما طلبت الآيات شرط الأربعة شهود لإقامة الحد، فإنها قد وضعت شرطاً
صعباً أمام تطبيق حد الزنى، وذلك من رحمة الله بعباده... فهذا الحد لا يطبق إلا
على من تخطى جميع الضوابط التي وضعتها السورة وأقدم على فعل الفاحشة، ليس
وليس ذلك وحسب، بل إنه فعل ذلك أمام أربعة أشخاص، مما يعني أنه كان
بجاهراً بالزنى!... ومن يفعل ذلك لا يستحق الرأفة من المجتمع، ولا بد من القسوة
عليه، ومن هنا نفهم شدة السورة في بدايتها: [وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ
اللَّهِ] لأنه يسعى إلى إفساد المجتمع على نحو خطير.

ومن روعة الإسلام وعظمته أنه لو كان الشهود ثلاثة، أو لو كانوا أربعة
وتراجع أحدهم عن شهادته، فإن هؤلاء الثلاثة هم الذين يجلدون، لأن الستر

والحفاظ على سمعة الناس هو الأولى وهو الأصل في الإسلام.

الإسلام لا يتعطش لإقامة الحدود

إن ما سبق يدل على أن الإسلام ليس متعطشاً لإقامة الحدود، ولنا في أصحاب رسول الله أسوة حسنة في فهمهم لتطبيق أحكام الإسلام: فسيدنا عمر بن الخطاب شاهد - عندما كان أميراً للمؤمنين - حادثة زنى، دون أن يكون معه شهود. فرجع إلى المسلمين غاضباً وقال: سمعت بأذني ورأيت بعيني، وسأطبق عليهم الحد. فقال له علي بن أبي طالب: "يا أمير المؤمنين أمعك شهداء؟!" فقال عمر: "لا ولكني أمير المؤمنين ورأيت وسمعت". فقال علي: "يا أمير المؤمنين تأتي بأربعة شهداء وإلا إن نطقت باسمهما حدٌ في ظهرك!!" فمن ذا الذي يستطيع القول بعد ذلك بأن هذا الدين متعطش للدماء وإقامة الحدود!!...

التوبة

وكل الحدود التي جاءت في أول السورة هي الدواء النهائي فيما لو وضعت جميع الضمانات السابقة لعدم وقوع المجتمع في الفاحشة... فإذا وقع شاب أو فتاة في الفاحشة، وكان البلد لا يطبق حدود الله، أو لو كانت هذه الضوابط غير مكتملة في المجتمع، (كصعوبة الزواج وانتشار الرذيلة وغياب الحجاب في المجتمع) فماذا يفعل من وقع في الزنى والعياذ بالله؟

إن حد الزنى لا يقام عليه أولاً، ولا بد له من أن يتوب إلى الله تعالى فوراً ويستتر على نفسه، ولذلك فإننا نرى من روعة هذه السورة أننا نراها تفتح باب التوبة بعد كل مقطع يتحدث عن حدود الله:

[إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا] (5).

[وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ] (10).

[وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ] (20).

[وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (31).

فالتوبة هي طريق النجاة للمجتمعات التي لم تكتمل فيها ضمانات منع الفاحشة، أو المجتمعات التي لا تقام فيها الحدود لسبب من الأسباب...

إلى النور

ويبقى سؤال مهم، وهو: لماذا سميت السورة بسورة النور؟ قد يجيب البعض: لأن في هذه السورة قوله تعالى **[اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...]** (35)... وهو جواب بديهي، لكن ما علاقة هذه الآية بالآداب الاجتماعية التي حفلت بها السورة؟ ولماذا لم يطلق على السورة اسم سورة الآداب الاجتماعية مثلاً أو أي اسم مماثل؟..

إن في هذا دلالة على أن العمل بهذه التعاليم والأحكام يضيء المجتمع بنورها. فشرع الله هو نور المجتمع، والبديل عن ذلك هو التخبط في الظلام والضلال، كما يحصل في الكثير من المجتمعات في عصرنا الحاضر.

هناك بيوت كثيرة تعيش في ظلمة، وهناك مجتمعات عديدة تفتقد إلى النور لعدم قراءة أهلها لسورة النور، فحين ابتعدت هذه المجتمعات عن شرع الله، شاعت فيها الفاحشة، وكثرت فيها الأمراض والمشاكل... لهذا كله، سميت السورة بسورة النور، لأنها النور الذي يحفظ النفوس وينقيها من الغرائز، ويحفظ الأعراض ويجرسها من ألسنة الناس، ويضيء الطريق إلى الله.

الله نور السماوات والأرض

فما هو مصدر هذا النور؟ إنه الله تبارك وتعالى: **[اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...]** (35) ونور الله هو شرعه وهدايته...

فأين ينزل هذا النور؟ **[فِي بُيُوتٍ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ...]** (36).

وعلى من ينزل هذا النور... **[رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...]** (37).

وأما من حاد عن هذا النور: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظلمات: الظَّامُنُ مَاءً..] (39) لأنه لم يمش على نور ربنا سبحانه وتعالى، وآثر التخبط في

[أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظَلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ] (40).

أرأيتم ترك النور الرباني؟ أرأيتم كيف أن ترك الحجاب وإشاعة الفسائح
يجعلان الأفراد والمجتمعات لا بل البشرية كلها تتخبط في ظلمات الضلال
والفواحش؟

مقتضيات النور الرباني

اسمع معي مرة أخرى الآية المحورية في السورة، آية النور:

[اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]
(35).

والمشكاة هي عبارة عن تجويف في الحائط يحيط بالمصباح، ويحافظ عليه.
فلكي يبقى النور متوقداً، لا بد له من زجاجة تحيط به وتحافظ عليه. وكأن هذه
الآية الرائعة تقول للمؤمنين: نقدوا شرع الله تعالى، الذي هو نور المجتمع، وحافظوا
عليه، واجعلوا قلوبكم كالزجاجة التي تحيط بالنور، لتضمن بقاءه متوهجاً في
حياتكم وحياة الناس من حولكم.

ولا بد لهذا النور من فتيل حتى يشعله، هذا الفتيل هو عملك وإيجابيتك أيها
المؤمن، فكأن الآيات تقول لك: "أشعل الفتيل حتى تنور المجتمع"، ولذلك كانت

بداية السورة شديدة [سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا... (1)]، لأنها تدعو إلى التحرك بإيجابية وإشعال الفتيل الذي ينشر نور الله في الأرض.

آيات مبينات

ومن لطائف القرآن أنه ركّز على استعمال كلمة النور لوصف شرع الله تعالى، فما هي أهم خصائص النور؟ يمكننا أن نلخصها في ثلاث كلمات: الهداية - البيّنة - الكشف.

فالنور يكشف الحقائق ويبينها، ولذلك تكررت لفظة "بينات" و"آيات مبينات" في السورة تسع مرات. فالسورة بدأت بقوله تعالى: [.. وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ] (1)، وبعد الحديث عن كل مجموعة من الآداب الاجتماعية يأتي قوله تعالى [وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ] (18) أو قوله [وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ... (34)] لأن هذه الأحكام هي التي ترشد المؤمنين وتبين لهم طريق الحق.

ولذلك كانت السورة التي نزلت فيها تبرئة السيدة عائشة هي سورة النور، لأن النور يكشف الحقائق ويبينها...

ولذلك أيضاً اشترطت السورة وجود أربع شهود لإقامة حد الزنى، لكي يكون هناك بيّنة، هذه البيّنة هي الكاشفة وهي النور..

من فضلك، اجعل هذه السورة والآداب التي تضمنتها نوراً لك في أسرتك، وحافظ على شرع الله تعالى لتنور به مجتمعك، وتحرك به إلى الناس كلهم لتنتشر النور في البشرية كلها.

سورة الفرقان

سورة الفرقان (مكية)، نزلت بعد سورة يس، وهي بعد سورة النور في ترتيب المصحف وعدد آياتها سبع وسبعون آية.

هدف سورة الفرقان

إن سورة الفرقان تتحدث عن سوء عاقبة من يكذب بالله ورسوله وكتابه، ولذلك فإننا نرى فيها ثلاثة محاور أساسية:

- أنواع التكذيب التي لقيها النبي ﷺ
- التحذير من سوء عاقبة التكذيب
- تثبيت النبي ﷺ وأصحابه.

وكل آيات السورة تدور حول هذه المحاور الثلاث بشكل واضح، ومن هنا سبب تسميتها بالفرقان، لأنها توضح - من خلال هذه المحاور الثلاثة - كيف أن الدين والقرآن هما الفرقان بين الحق والباطل.

تكذيب وتثبيت

نزلت هذه السورة الكريمة في وقت كان المشركون قد تمادوا في استهزائهم بالنبي ﷺ. فجاءت آياتها تثبت النبي وأصحابه، وتكذب من يكذبونه..

لذلك نرى في أول السورة قوله تعالى [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا] وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ اُكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [4 - 5].

أنواع مختلفة من التكذيب، من تكذيب القرآن ووصفه بأنه [أَسْطِيرُ الْأَوْلِيْنَ] إلى تكذيب النبي ρ:

[وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا & أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا & أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا] (7 - 9).

وبعد هذه الأنواع المختلفة من التكذيب، يأتي تثبيت رائع للنبي ρ [تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا] (10).

ثم الآيات التي بعدها تبين عاقبة المكذبين: [بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا & إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا & إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُّقْرَّبَيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا & لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا] (11 - 14).

خذلهم شياطين الإنس والجن

وبعد ذلك تبين الآيات نوعاً أقبح من التكذيب [وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا] (21).

فماذا ستكون عاقبتهم؟ [وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا & يُؤْتِلُنَا لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا & لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا] (27 - 29).

نعم، لقد خذلهم أصدقاء السوء، وتخلّى عنهم الشيطان الذي كان يحركهم...
وتماماً كالمثال السابق، يأتي بين الآيات التي تبين نوع التكذيب والآيات التي تبين عاقبته نوع من الطمأنة [أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَأً وَأَحْسَنُ مَقِيلًا]

(24).

احذر هجر القرآن

ثم تأتي بعد ذلك شكوى خطيرة من كل من يهجر القرآن: [وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا] (30).

فحذار حذار من هجر القرآن، لأنه طريقك إلى الفرقان بين الحق والباطل، بين الظلمات والنور، وبين الإيمان والتكذيب.

وتكذيب المشركين ليس له حدود، فهم يبحثون عن أي سبب ممكن للتكذيب، فها هم الآن يطعنون في تنزيل القرآن على دفعات: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً] (32)، فيرد عليهم المولى بأروع طريقة:

[كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا]... فجمعت هذه الآية بين الرد على دعوى الكفار وتكذيبها، وبين تثبيت قلب النبي ﷺ، وكل ذلك في آية واحدة...

وتستمر الآيات بنفس الطريقة التي سبق بيانها: ذكر نوع من أنواع التكذيب، ثم ذكر عاقبته وبين ذلك طمأنة للنبي ﷺ:

فمن أنواع التكذيب: [وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا] (41).

لذلك تثبت الآيات النبي ﷺ وتعدده بالمساعدة وإقامة الحجة: [وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا] (33).

ثم تحذر من مصير الكافرين: [الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا] (34).

السبب الرئيسي للتكذيب

وقد يتساءل البعض: لماذا كل هذا التكذيب وهذا الافتراء؟ فتأتي الآية 42 - وهي آية محورية - لتجيب بأن سبب التكذيب هو اتباع الهوى، فإن من يتبع هواه

لا يقر بخطئه، لكنه يرمي الآخر بالخطأ [أَرَعَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا] (42).

فماذا تملك لمثل هذا النوع من الناس، الذي عبد هواه من دون الله، فألغى عقله وأفسد فطرته؟ فعلاً "أفأنت تكون عليه وكيلًا"؟؟

ألم تر إلى ربك كيف مد الظل

وتستمر السورة على نفس السياق، (بيان أنواع تكذيب المشركين، ثم ذكر عاقبته، ثم طمأنة النبي عليه الصلاة والسلام وتثبيتته)، إلى أن تصل السورة إلى ذكر الآيات الكونية لله تعالى في الكون.

ومن روعة القرآن أن السورة إذا احتوت على ذكر لآيات كونية، تتحدث عن قدرة الله تعالى في الكون، فإنها لا تكون آيات متناثرة، لكنها تناسب الجو العام للسورة، تماماً كما قلنا عن قصص الأنبياء التي تأتي في السورة لتخدم هدفها.

فماذا نرى في سورة الفرقان؟ إن الجو العام للسورة هو تكذيب النبي ﷺ، والسورة تهدف إلى تثبيت النبي وطمأنة قلبه، فتأتي آية كونية رائعة لتخدم هذا المعنى: [أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا] (45)، وهي إشارة على أن من مد الظل رحمة بعباده هو قادر على أن يظلمهم برحمته، ويروح عنهم تكذيب المكذبين. ففي امتداد الظل سكون واستقرار للقلوب، لركونها إلى الخالق الذي أبدع كل هذه الآيات.

ليل الرحمة

وبعد ذلك يقول تعالى [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا] (47).

واختيار الليل هنا يلقي بظلال من السكون والرحمة، ثم يقول تعالى: [وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرَىٰ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا & لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا..] (48 - 49).

فنرى أن الآيات الكونية من رياح وأمطار تبشّر المؤمنين برحمة الله وتطهّرهـم وتحيي قلوبهم، وكلها لتخفّف عنهم شدة الاستهزاء والتكذيب الذي يعانون منه.

قمة التكذيب

وبعد تكذيب الكفار بالنبى وبالقرآن، تصل بنا الآيات قبل الختام إلى نوع شديد من أنواع تكذيبهم: إنهم يكذبون بالرحمن

[وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا] (60).

وهي قمة في سوء الأدب مع الله تعالى، فترد عليهم الآيات بطريقة رائعة: لا بإخبارهم من هو الرحمن، بل بوصف عباده: [وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ]. حتى يعرفوا الرحمن من صفاتهم، وهذا من تشریف الله تعالى وتشبثه لهم، وكأنه يقول لهؤلاء الكفار المعاندين: اسألوا هؤلاء عن الرحمن...

عملهم من وصفه

والرد على المشركين بهذه الطريقة هو أعظم تشریف لعباد الرحمن، لأنهم يدلون على الرحمن من خلال صفاتهم.

[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا & وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا & وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا & إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا & وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا & وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا & يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا & إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا & وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا & وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا & وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِنِآيَةِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا & وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ

لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا] (63 - 74)، وآية [وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا] تفيد أن تمني المسلم للقيادة أمر مطلوب ومحمود - من غير حب للرئاسة أو طمع بالدنيا - في سبيل أن يكون إماماً للمتقين وقائداً ومعيناً لهم على تقوى الله.

ومن روعة الآيات السابقة أنها وازنت بين تفوق عباد الرحمن في العبادة، وبين حسن أخلاقهم. فترى فيها تسلسلاً واضحاً: صفة عبادة ثم صفة خلق، وهكذا إلى آخر السورة، لتوحي أن المؤمنين الذين يستحقون صفة عباد الرحمن هم الذين لا يفصلون بين العبادة والأخلاق.

أما أنتم يا من كذبتكم بالرحمن، فاسمعوا قول الله تعالى في ختام السورة: [قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا] (77).

وهكذا نجد آيات سورة الفرقان دائماً: فرقاناً بين الحق وأهله وبين الباطل وحزبه. وفرقاناً بين نعيم المؤمنين وتثبيت الله تعالى لهم وبين جحيم المكذبين وتهديدهم بنزول العذاب الأليم.

سورة الشعراء

سورة الشعراء (مكية)، نزلت بعد الواقعة، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الفرقان وعدد آياتها مئتان وسبع وعشرون آية.

بأنعوا عني ولو آية

وتدور سورة الشعراء حول أهمية توصيل الرسالة إلى الناس بأحسن الوسائل المؤثرة. ففي عهد سيدنا موسى كانت هذه الوسيلة هي السحر، وفي عهد النبي ﷺ كانت الشعر والشعراء (ومن هنا اسم السورة).

نزلت هذه السورة في أكثر وقت كان المسلمون فيه بحاجة إلى تعلم فن الإعلام وتوصيل الأفكار: مع بداية مرحلة الدعوة الجهرية، وخاصة بعد وقوف النبي على جبل الصفا وإعلان الإسلام لأول مرة في مكة كدعوة علنية... وبذلك تكون رسالة السورة واضحة في بيان أهمية الإعلام وحسن توصيل الأفكار في نشر الدعوة.

خطورة الكلمة المسموعة

والإعلام سلاح ذو حدين، فهو إما أن يستخدم في تضليل الناس وإما أن يستخدم في هدايتهم، ولذلك ختمت السورة بقوله تعالى:

[وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ & أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ & أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ & إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ] (224 - 227).

فالشعراء في عصر النبي ﷺ - أو الإعلاميون بلغة العصر - قد يكونون سبباً لإغواء الناس وصدّهم عن سبيل الله، وقد يكونون منابر للهدى وإيصال كلمة الحق إلى الناس. ولذلك لا بد للدعاة إلى الله أن يمتلكوا هذه الأداة المهمة في توصيل الأفكار (والتي تتغير بحسب مقتضيات العصر) ويستخدموها لنشر الإسلام بأفضل الطرق.

مفاتيح القلوب

وكما رأينا في كل سور القرآن، فإن قصص الأنبياء الواردة في السورة تخدم هدف السورة. فحين تحدثت السورة عن سيدنا موسى عليه السلام، بينت كيف كان يخشى ألا يؤثر في الناس بصورة جيدة فقال **[وَبَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ]** (13). وكل قصص الأنبياء التي جاءت في السورة كانت تركز على حوار النبي مع قومه.

وهذا ما نجده في قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، حيث نرى التركيز على "قال وقالوا"... آيات رائعة في أسلوب الحوار لتهيء النبي عليه الصلاة والسلام لبداية مرحلة الدعوة الجهرية، التي أعلنت عنها الآية 214 بوضوح: **[وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]**.

من روائع الحوارات الإعلامية

وعلى سبيل المثال، نرى في حوار سيدنا موسى مع فرعون أساليب رائعة للحوار.

[فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ & أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ & قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ & وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ] (16-19) تهمة صعبة يوجهها فرعون إلى موسى، فماذا يكون جواب الدعاة إلى الله في مثل هذه الظروف؟ **[قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ & فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ]** (20-21).

فأغلق باب التهمة بما حصل في الماضي، ثم انتقل من الدفاع إلى الهجوم في قوله: [وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ] (22).

وينتهي تبادل الاتهامات لبدء الحوار الدعوي. اسمع معي الآيات:

[قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ & قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ] (23-24).

[قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ & قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ] (25-26).

[قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ & قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ] (27-28).

فنرى أن سيدنا موسى استرسل في الجواب على سؤال [وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ] (23) للتأثير على المستمعين دون أن يبالي بالتفاهات التي صدرت من فرعون بعد السؤال الأول.

الإعلام في قصة موسى

وفي نفس القصة، نرى حرص سيدنا موسى على التأثير على الناس بأفضل طريقة ممكنة، فيقول لفرعون:

[قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ] (30).

فماذا كانت هذه الوسيلة؟ إنها السحر، الذي كان أفضل وسيلة للتأثير في الناس في عهد سيدنا موسى كما قلنا (تماماً كدور الشعراء في عهد النبي ρ أو كدور الإعلاميين في عصرنا).

ونرى تركيز الباطل أيضاً (فرعون وجنوده) على إعلام الرأي العام في قوله تعالى [قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ] (36) فهم يريدون لهذه المواجهة أن تكون علنية [وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ] (39).

سيدنا إبراهيم والحوار الدعوي

وفي قصة سيدنا إبراهيم، نرى أسلوباً آخر في الحوار تعلمنا إياه السورة. فهو بدأ بالحوار العقلاني في مواجهتهم في قوله.

[قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ & أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ] (72-73). فلما كان ردهم ضعيفاً قال: [قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ & أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ & فَإِنَّهُمْ عَادُو لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ] (75-77) وعندما يذكر سيدنا إبراهيم ربه حل وعلا، يستفيض في ذكر صفات الله تعالى، [الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ & الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ & إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ & الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ & الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ] (78-82).

بيان القرآن

ولأن القرآن هو محور دعوة النبي ﷺ، فإننا نرى الآيات التي تحدثت عن القرآن في السورة تركز على بيان القرآن وأهميته في التأثير في الناس. فمن البداية نرى قوله تعالى [تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ] (2).

وفي أواخر السورة، وبعد قصص الأنبياء، يأتي قوله تعالى: [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] (195).

ولا بد للغة الخطاب والتأثير أن تكون ملائمة للجو الذي يعيش فيه الناس، مهما كانت قيمتها، لذلك نرى في السورة قوله تعالى: [وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ & فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ] (198-199).

فآيات السورة واضحة أشد الوضوح في إرشاد المسلمين والدعاة إلى الله، في كل زمان ومكان، إلى استخدام أفضل الأساليب وأوضحها في الدعوة.

الإعلام الرباني

فعندما تقرأ أخي المسلم سورة الشعراء، تذكر دائماً أن الإعلام ينبغي أن يكون من وسائل الدعوة إلى الله، لا أن يستخدم في الترويج للمعاصي والفتن

والفواحش. هذه هي رسالة السورة للإعلاميين. وأما الرسالة الثانية، فهي للأمة كلها، وخاصة الدعوة إلى الله، ليتعلموا البحث عن أفضل الطرق التي يؤثر بها في الناس، مقتدين في ذلك بالحوار الراقي لأنبياء الله مع أقوامهم خلال السورة. وسميت السورة باسم الشعراء، لكي نستخدم أفضل وسائل نشر الدعوة، ولئلا نستخدم الوسائل ذات الحدين في معصية الله بل نستخدمها في طاعته ومن ذلك الإعلام... وليكون قدوتنا في ذلك الأنبياء سيدنا إبراهيم وموسى عليهما السلام. وسيدنا محمد صلى الله عليه في طريقة حوارهم الراقية المؤثرة في هداية الناس..

سورة النمل

سورة النمل (مكية)، نزلت بعد سورة الشعراء، وهي بعدها أيضاً في ترتيب المصحف. عدد آياتها 93 آية.

سورة التفوق الحضاري

سورة النمل تتحدث عن التفوق الحضاري، وأهمية أن يمتلك المسلمون معالم حضارية قوية من العلم والتكنولوجيا والقوة المادية والقوة العسكرية، ليستخدموها في نصرة دين الله تعالى. فهذه السورة تخاطب الذين يفهمون الإسلام على أنه صلاة ركعتين وبكاء العينين وحفظ القرآن فقط... هذه الأشياء - على أهميتها - لا بد أن تقتزن بأسباب قيادة الدنيا وإدارة الأرض وفق منهج الله. وليس هذا فحسب، بل إن تفوق المسلمين الحضاري وتقدمهم العلمي والتكنولوجي يفيد في الدعوة ويؤثر في الآخرين أضعافاً مضاعفة ما يؤثر فيهم كلام شخص عادي أو فاشل في حياته العملية أو راسب في امتحاناته... هذه السورة تقول لنا باختصار: يا أمة محمد، لن يكون لكم احترام ودور مميز بين الأمم دون أن يكون لكم تميز حضاري، ودون أن تحيطوا بكل علوم عصركم وتبرعوا بها.

وهكذا نرى أن كل سورة توجه رسالة واضحة للمسلمين لتكمل سور القرآن في عرضها للمنهج الرباني، مما يشعرنا بترايط القرآن وتماسك سوره. فبعد أن كانت رسالة سورة الشعراء: "اهتموا بالإعلام"، أتت سورة النمل لتوجه رسالة مماثلة: "اهتموا بالتفوق الحضاري"، وكلاهما يخدم نفس الهدف: أهمية التفوق والأخذ بالأسباب الدنيوية في تميز المسلمين وتأثيرهم على الآخرين..

المؤسسة الناجحة

وكان رمز التفوق الحضاري في هذه السورة: سيدنا سليمان عليه السلام، ومملكته التي جمعت بين الإيمان والنجاح في الحياة، هذه المؤسسة هي أشبه ما تكون بلغة اليوم: شركة عالمية متعددة الجنسيات، توظف ضمن جهازها الإداري جنسيات مختلفة، من الجن والإنس والطير والنمل والوحوش... فلتأمل عناصر التفوق الحضاري في مملكة سيدنا سليمان، وكيف أن تفاصيل القصة وجزئياتها تعطينا معنى مهماً وأبعداً جديدة للتفوق الحضاري والنجاح في الحياة:

1. استشعار قيمة العلم

[وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا... (15)] فلا تفوق من غير علم، ولا يمكن للطالب المسلم أن يخدم الإسلام إلا إذا كان متفوقاً في مدرسته وجامعته، لأن ذلك من صميم الإسلام.

[وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ] (15).

فضلهم بماذا؟ طبعاً بالعلم، ورزقهم ميزة هامة أخرى، وهي الاعتزاز به وإدراك قيمة هذه النعمة وحمد الله عليها. فالأمة التي يغش طلابها في الامتحانات ويكون كل همهم نيل الشهادات لا تدرك قيمة العلم، ولا يمكن لهكذا أمة أن تنهض وتنافس باقي الأمم..

2. توريث الأجيال

[وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ] (16)، حتى لا يقف النجاح عند جيل معين. ولا بد من وجود أجيال ترث النجاح وتحافظ عليه لضمان استمرار التفوق وتراكم الخبرات داخل المؤسسة الواحدة.

3. إتقان اللغات

[... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ... (16)] وهذه الميزة تتيح

التعامل مع الآخرين والتفاعل معهم.

4. توفر الإمكانيات

[... وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ] (16).

فأوتيت هذه المملكة الإمكانيات والموارد الطبيعية والبشرية، ولم تقتصر على ذلك بل اجتهدت في الحفاظ على هذه الموارد وتطويرها.

5. حسن الإدارة

[وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ...] (17) تخيل هذه المملكة العظيمة، شركة متعددة الجنسيات، أو متعددة الكائنات، فيها الجن والإنس، فيها الطيور والوحوش، فيها من كل المخلوقات [مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ] (17). وكلمة "حشر" هنا تبين عدد الجنود الكبير وتنوعهم. أما التنظيم الدقيق وتوزيع الأعمال فنراه في قوله تعالى [فَهُمْ يُوزَعُونَ] (17)، فالكل يؤدي عمله المطلوب منه، الذي هو ضمن اختصاصه وإمكاناته.

6. التدريب

[حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ...] (19) ما علاقة هذه الرحلة إلى وادي النمل بسليمان وجنوده وتنظيم مملكتهم؟

إن هذه الشركة تدرّب أفرادها، حيث يأخذهم سليمان ليدرّجهم ويتنقل بهم في الأرض، فكان أن وصفت لنا الآية الكريمة جانباً من تدريبهم، عندما وصلوا خلال حولتهم إلى وادي النمل، وحصل ما هو معلوم من حوار النملة مع قومها: [.. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] (18).

7. الانضباط والحزم

وتتابع مع قصة سليمان، لنلاحظ تنظيم المؤسسة الدقيق والحزم في التعامل مع الأفراد. فخلال كل اجتماع، يتم تفقد الحضور والغياب: [وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ & لِأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْنَاهُ

أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ] (20-21) فسليمان عليه السلام لم يسأل عن الهدهد فقط بل تفقّده، مما يدل على دقة النظام في المملكة. ومع أن الهدهد جندي صغير ولن يؤثر في قوة الجيش، لكن غيابه يخل بالانضباط وينبغي أن يقابل بالحزم.

8. انتماء الأفراد للرسالة

ويظهر في قصة سليمان انتماء أفراد الشركة وموظفيها للرسالة وشعورهم بقضيتها تماماً كالقائد. فالهدهد طار من فلسطين إلى اليمن ليحضر معلومات عن مملكة تسجد للشمس من دون الله، ليقف أمام الملك دون خجل ويقول له: [أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ...] (22) وقد درس الموقف جيداً وأحضر معلومات يقينية ودقيقة: [... وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ] (22).

ويتابع الحديث عن المملكة التي رآها:

[إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ & وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ] (23-24) فهو لم يتصرف كموظف عادي بل أحس أنه مسؤول عن مهمة الشركة وقضيتها وهدفها، إلى أن يقول بكل غيرة وألم: [أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ...] (25).

ثم يتذكر أنه قال عن الملكة أن لها [عَرْشٌ عَظِيمٌ]، فيستدرك كلامه ويقول [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ] (26).

يا ليت لو أن عندنا في أمة محمد ألف هدهد، في إيجابيته وانتمائه لأمتة وشعوره بالمسؤولية تجاهها...

9. الدقة في نقل الأخبار والتحقق منها

وتتابع الآيات لتتنقل لنا حوار سليمان الممتع مع الهدهد: [قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكٰذِبِينَ...] (27). أي أن الأخبار التي تأتي تؤخذ للتحليل والاختبار، مع أن الهدهد قال لسيدنا سليمان قبل هذا: [وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ

يَقِينِ]، لكن لا بد للشركة الناجحة من تصفية المعلومات والتأكد من صحتها قبل أخذ القرار: [أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ..] (28) فيقوم سيدنا سليمان بتجربة مع هؤلاء القوم... أي علوم هذه؟ وأي تنظيم هذا؟ يا أمة محمد تعلموا من مملكة سليمان كيف يكون النجاح...

الشورى وقود التفوق

وفي الناحية المقابلة، نرى مؤسسة متفوقة أيضاً: مملكة بلقيس. وسبب نجاحها هو استخدام الشورى بين قومها، فهي لا تقوم بأي خطوة قبل أن تشاركهم في أخذ القرار:

[قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ]

(32).

ورغم أن الملكة لم تكن على دين الله تعالى، لكنها استعملت عاملاً مهماً من عوامل النجاح الإداري، وهو الشورى وتقبل الرأي الآخر... فماذا قالوا لها؟ [.. نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ]

(33).

فليس لهم رأي، وهم بخلاف الهدهد الذي كان له رأي يعتز به وقضية يجادل من أجلها. قارن بالله عليك بين جيش فيه من يقول [أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ..] والتي هي أساس الشورى وأساس النصر، وبين جيش فيه من يقول [وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ].

حضارة ربانية

وتحاول ملكة سبأ أن تختبر صدق سليمان في دعوته، [وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ] (35) لكنه غضب وقال: [أَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ] (36).

لأنه صاحب رسالة ربانية لا يريد جمع المال من ورائها، وليس أخذه بأسباب

النجاح والتفوق الحضاري من أجل إخضاع الأمم ونهب ثرواتها، بل هدفه من وراء ذلك كله هو إيصال رسالة الله للناس كلها...

التفوق التكنولوجي

ومملكة سليمان تملك قوة عسكرية لا مثيل لها [أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ] (37).. نستشعر في هذه الآية عناصر التفوق الحضاري التي تميزت بها مملكة سليمان، من إدارة عالية وعلوم وقوة عسكرية، إضافة إلى عامل مهم جداً، وهو العامل الذي سبب الانبهار الحضاري وإسلام ملكة سبأ...

سبقها عرشها

عندما علم سليمان بقدوم الملكة للتفاوض معه، طلب من جنوده الإتيان بعرشها [قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ] (38)، ويقوم جنديان من هذا الجيش الرائع: عفريت من الجن، ورجل أوتي علماً بالكتاب، وكلاهما يتنافس في سرعة إحضار العرش إلى الملك. أي تكنولوجيا وأي علم وأي أداء مبهر؟ لقد سيطرت هذه المملكة المؤمنة بتفوقها على الأرض كلها...

وتدخل ملكة سبأ لتفاجأ بسؤال: [أَهَكَذَا عَرْشُكِ] (42) فتجيب بذكاء: [قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ] (42) بشكل دبلوماسي ومبهم، لكي لا تقول أنها لم تعرف عرشها الذي تغير عليها بعض الشيء، وبالمقابل كي لا تجزم أنه عرشها فتكذب... وهنا بدأت الدهشة والإعجاب يؤثران في قلبها تأثيراً بالغاً فأصبحت مهياًة لقبول الإيمان.

أسلمت بسلطان العلم

ونصل إلى آية محورية (44)، هي آخر آية في قصة سليمان، وتلخص لنا هذه الآية محور القصة وهدفها.. اسمعها معي وعشها بقلبك وعقلك:

[قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا].

فقد كان القصر على الماء، ومدخله مغطى بالزجاج الشفاف، فرفعت ثيابها خوفاً من البلل.

[قَالَ إِنَّهُ صَرَخٌ مُّمَرَّدٌ مِّنَ قَوَارِيرَ] إنها تكنولوجيا غير عادية، أوصلتهم إلى بناء قصر زجاجي فوق الماء، متناهي الدقة بحيث يعتقدده الناس ماءً. فلما أعجزها هذا التفوق الحضاري والعلمي، أعلنت إسلامها: **[قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]**.

فرعون والانبهار الحضاري

والملاحظ أن قصة موسى أتت بشكل مختصر في سبع آيات قبل قصة سليمان، ونرى في هذه الآيات تكذيب فرعون وقومه لرسالة موسى عليه السلام: **[فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ]** (13).

فرفضوا الرسالة لأن سيدنا موسى لم يكن معه عناصر التفوق الحضاري الذي كان متاحاً لسيدنا سليمان، وفي ذلك إشارة إلى انبهار الناس بالتفوق والعلم، وسيرهم وراء من يملك أسس التفوق الحضاري والقوة العلمية.

عناصر التفوق الحضاري

فإذا أردنا تلخيص عناصر وأسباب التفوق الحضاري في السورة، يمكننا أن نذكر ما يلي:

- الهدف السامي: وهذا ما نراه بوضوح في قول سليمان **[رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ]** (19)، وقوله: **[هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَءَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ]**. وكان شكر سيدنا سليمان على هذه النعم بتسخيرها لنشر الإيمان في الأرض كلها..
- العلم: **[وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا]** (15) ولا حضارة بغير علم وتفوق علمي والأهم من ذلك، استشعار قيمة العلم...
- التكنولوجيا المتطورة والمبهرة: **[فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا]**

قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ... [(44).

- القوة العسكرية الشديدة: [أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا...]. (37).

- شعور الأفراد بالمسؤولية: وهذا قد ظهر واضحاً في موقف الهدهد ورحلته الدعوية إلى مملكة سبأ.

كم وسيلة تمتلك أمتنا من هذه الوسائل؟ وأين هو دورك يا قارئ القرآن حتى تبني أمة ناجحة ومتفوقة كأمة سليمان...؟

سلطان الله أعظم

ومن روعة القرآن في عرض سنن التفوق الحضاري، أن سورة النمل - برغم تركيزها على المقومات والأسباب المادية للنصر - قد استعانت بأمثلة كلها معجزات: من هدهد يتكلم ويجادل، إلى نملة حكيمة توجه قومها، وخلال ذلك كله قول سيدنا سليمان: "علمنا منطق الطير"... وحتى في آخر السورة ترى قوله تعالى [وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ] (82).

وهكذا يتواصل الحديث عن المعجزات في السورة، لماذا؟

حتى لا نكون ماديين في تعاطينا مع أسباب التقدم والتفوق الحضاري. وكأن السورة تقول لنا: إياكم أن ينسيكم التفوق الحضاري إرتباطكم بالله تعالى ويقينكم أنه هو صانع النصر، وأن هناك مقومات إيمانية وغيبية للتفوق غير التي أتت في السورة.

أإله مع الله...؟

ثم تنتقل السورة فجأة من الحديث عن التفوق الحضاري إلى الحديث عن قدرة الله في الكون، حتى لا نعتز بحضارتنا فننسى ربنا ونعيش حضارة مادية بلا روح كحضارة الغرب. فتأتي آيات رائعة تخاطب القلب البشري وتحزه ليفيق من غفلته

ويتعرف على ربه:

[قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ & أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ءَأَلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ] (59-60). الجمال والتنظيم في خلق الكون يفوقان أي تفوق حضاري... [أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَأَلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (61).

وحتى لا تغتر بقوتك أيها الإنسان: [أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَأَلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ] (62). [أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَأَلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ & أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَأَلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (63-64).

وبذلك يتحقق التوازن بين التفوق الحضاري وبين الإيمان بمالك الكون وصاحب القدرة.

لماذا "النمل"؟

ومع أن النمل ذكر في السورة في آية واحدة فقط، لكن سورة التفوق الحضاري كان اسمها سورة النمل، فلماذا؟

إن مملكة النمل هي نموذج للتفوق الحضاري في أمة من أمم الحشرات، فهم يملكون كل أسباب التطور، من بناء بيوت المون، إلى تنظيم الجيوش وتقسيم أبواب الدخول والخروج، حتى أنهم يستعملون التكييف المركزي داخل مساكنهم... أمة منظمة تفوقت على أقرانها بالعلم والتكنولوجيا حتى استحقت أن تذكر في القرآن الكريم كنموذج يحتذى في التفوق الحضاري..

والناس عادة يستصغرون النمل، لذلك ضرب الله لنا بهم مثلاً، وأمرنا أن

نقتدي بهم، حتى يتردد في ذهنك كلما قرأت السورة، أن هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة قد وصلت إلى هذا التطور، وحتى تتذكر أن النملة قد تفوقت على غيرها من الحشرات، فلم تترك أيها المسلم غيرك من الحضارات يتفوق عليك؟

حكمة النملة وإيجابيتها

ومن لطائف القرآن، أن الآية المحورية في السورة (أي الآية التي ذكر فيها خطاب النملة لقومها) احتوت على إشارات حضارية رائعة... كلها نتعلمها من النملة الصغيرة.

يقول تعالى: [حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] (18).

فهي قد وقفت تخاطب الجموع بإيجابية، ولم تهرب مع أنها عرضت نفسها لخطر الموت تحت أقدام الجنود، وكان حرصها وغيرها على قومها أولى عندها من حياتها. وليس هذا فحسب، بل إن خطابها احتوى على إشارات رائعة في فن القيادة والإدارة، فهي قد:

- وجهت التصرف الصحيح قبل التحذير وبيان الخطر حتى لا تتخبط الجموع ببعضها [ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ].
- ثم عرضت المشكلة وبيّنت الخطر [لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ] والناس في ساعات الخطر يتصرفون بغير تفكير، مما قد يؤدي إلى المزيد من الأضرار. فكان لا بد للقائد الناجح من إعطاء الحل والمخرج قبل بيان المشكلة، حتى يسمع الناس توجيهاته وهم في حالة نفسية تسمح لهم بتلقي الأوامر وتنفيذها..
- حذرتهم من خطورة التراخي بأن يأمنوا على أنفسهم من سليمان، لأنهم يعرفون صفاته، ولأن سمعته عند النمل حسنة. لذلك أكدت على أن المؤمنين

لا يمكن أن يظلموا أو يعتدوا عن قصد، وهذا ما نراه في قولها [وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ].

أرأيت الآن لماذا تبسم سليمان ضاحكاً من قولها؟ ولماذا كانت هذه النملة الصغيرة مثلاً يحتذى في فن القيادة عند الأزمات، والذي هو عنوان التفوق الحضاري...؟

سورة القصص

سورة القصص (مكية)، وبعضها نزل أثناء الهجرة، نزلت بعد سورة النمل، وهي بعدها أيضاً في ترتيب المصحف. وعدد آياتها 88 آية.

لحظاتها حرجة

نزلت بعض آيات السورة في الوقت الذي كان النبي ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة، الذي كان حزيناً لفراق مكة حتى أنه خرج منها وعيناه تدمعان، وهو يقول: "اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَيَّ قَلْبِي، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمَكَ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتَ". في مثل هذه الظروف، نزلت السورة لتوجه للنبي والمؤمنين من بعده رسائل دعوية هامة.

تجربة نبي

إن المحور الأساسي في سورة القصص هو قصة موسى عليه السلام، والتركيز على جوانب محددة من قصته: مولده، رميه في البحر، نشأته في قصر فرعون، خروجه من مصر إلى مدين وزواجه من ابنة شعيب، ثم عودته إلى بلده بعد عشر سنين وانتصاره على فرعون. والسورة كلها تعليق على هذه القصص وعلى قصة أخيرة هي قصة قارون. والملاحظ أن سورة القصص هي السورة الوحيدة في القرآن التي ركزت على مولد موسى ونشأته وخروجه إلى مدين، بينما لم تركز على بني إسرائيل ومشاكلهم مع موسى كما في باقي السور. فما هو هدف السورة؟ وما علاقة هذه الأحداث من قصة سيدنا موسى بهجرة سيدنا محمد ﷺ؟

إن السورة تقول للنبي ρ، وهو لا يزال خارجاً من مكة، أنك ستعود إليها يا رسول الله منتصراً بعد أن خرجت منها متخفياً.

وفي السورة مقابلة بين وعد الله تعالى لأم موسى في الآية (7): [إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] (القصص 7) ووعد الله تعالى للنبي ρ: [إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ] (القصص 85).. فقصة موسى عليه السلام في السورة تبدأ من الآية 7 بوعد الله تعالى لأم موسى الذي تحقق في آخر القصة، ليأتي وعد رباني آخر من الله تعالى أنه سيعيد النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة منتصراً رغم أنه خرج منها مهاجراً متخفياً، مع استعمال نفس الكلمة في الوعد: (لرادك). وكان المعنى: أن الذي صدق وعده مع موسى وأمه، سيعيدك إلى مكة فاتحاً منتصراً.

فهدف سورة القصص هو الثقة بوعد الله، واليقين بأنه متحقق لا محالة، مهما طالت المدة أو صعبت الظروف.

وعد بوعد

ونشير هنا إلى ملحوظة هامة جداً، وهي أن سيدنا موسى عليه السلام ترك مصر ثماني سنين وزادها سنتين من عنده (بعد أن تزوج من ابنة شعيب في مدين الذي قال له [إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ] (27)). فأكمل بذلك عشر سنين ليعود إلى مصر ثانية.

والنبي ρ دخل مكة فاتحاً منتصراً بعد ثماني سنوات من الهجرة، بينما نرى أن الرسالة تمت في السنة العاشرة.. إنها نفس الوعد، تحققت في نفس المدة تماماً، وتحت نفس الظروف الصعبة. فسيدنا موسى خرج من مصر [خَائِفاً يَتَرَقَّبُ] وقال له أحد أهل المدينة [إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ]، وسيدنا محمد ρ خرج من مكة مهاجراً في الليل، بعد أن ائتمر به الكفار ليقتلوه.

إن تشابه الأحداث يضعنا تحت سؤال: هل نحن واثقون بنصر الله؟ فالله تعالى قد وعدنا بالنصر والتمكين: [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا] (النور، 55). هذا الآية وعد من وعود الله تعالى، تشبه تماماً [إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ] (7) و[إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ] (85) في كونها من عند الله، وأنها متحققة لا محالة كما تحققت هذه الوعود، (وإن طالت المدة لثماني أو عشر سنين أو أكثر). فهل ستمتلى قلوبنا بوعده الله بعد قراءتنا لسورة القصص؟

ضريبة الدعوة

لكن تحقق وعد الله تعالى مرتبط بتضحية ومجاهدة من الدعاة أنفسهم، ولذلك أشارت السورة إلى انتقال مكان الدعوة، كما في قصة موسى عليه السلام وسيرة النبي ﷺ، ويتجلى ذلك بوضوح في قوله تعالى [وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَّخِطُفُ مِن أَرْضِنَا] (57).

فطريق الدعوة إلى الله ليس طريقاً سهلاً، لأنه مليء بالتضحيات وترك الأوطان، لكن آخره نصر وعزة إن شاء الله.

إرادة الباطل وإرادة الله

تعالوا نعيش سوياً مع سورة القصص لتتعلم الثقة بوعده الله: في الآية الثالثة كان الحديث إلى المؤمنين فقط لأنهم هم الذين يثقون بوعده الله: [نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبِيٍّ مُّوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ].

وفي الآية الرابعة نجد أن الوضع كان شديداً على سيدنا موسى والذين آمنوا معه، كما كان مع محمد ﷺ: [إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ] تصوير رهيب في كلمات قليلة ملدى قوة فرعون وضعف بني إسرائيل،

لتأتي بعدها الآية الخامسة بالوعد الرائع:

[وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ].

ويأتي وعد أعظم من ذلك: التمكين: [وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ] (6)

فتلك كانت إرادة فرعون، وهذه إرادة الله... فهل سيتحقق وعده سبحانه؟

أم موسى والتغيير

وبعد الآيات التي صوّرت ظلم فرعون وجنوده، وآيات الوعد الرباني بالنصر والتمكين، تأتينا الآية السابعة بأمر عجيب: [وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ] (7) فكأن هذه الآية هي بداية تحقيق الوعد، كيف؟

فالسورة - بعد أن أشارت إلى علو فرعون وتجبّره وإلى حتمية التغيير - انتقلت إلى جو مختلف تماماً: أم ترضع ابنها. فما العلاقة؟ إن في ذلك إشارة بأن النصر يبدأ بأمهات تربي أطفالها، وترضعهم - مع الحليب - التمسك بهذا الدين، والثقة بوعده الله. واللطف أن الآية لم تقل لأم موسى (فإذا خفت عليه فخبئيه) أو (فاحضنيه)، بل قالت لها [فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ] (7)، وكأن المعنى: إلقيه في اليم وثقي بوعده الله، لماذا؟ لأنه يقول [إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] (7). قصة مولد أمة، بدأت بطفل يرمى في البحر، وأم واثقة من وعد الله لها.

دور المرأة في نصره الدين

وسورة القصص تسلط الضوء بشكل واضح على دور المرأة في نصره هذا الدين. فالمحاور الرئيسية في السورة والأشخاص الأساسيون الذين ساعدوا موسى عليه السلام في تأدية دوره كنّ أربع نساء، أولهن أم موسى [وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ]. التي حمته بتصرفها الواثق بوعده الله لها..

ثم دور أخت موسى [وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ & وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ & فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ [(11 - 13)]. إنه دور الأخت التي أعادت موسى عليه السلام إلى أمه. والثالثة هي زوجة فرعون [وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا] (9). والرابعة هي بنت شعيب التي تزوجها: [فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِخْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا] (25). لا بل أنها هي التي أوحى لأبيها بهذه الفكرة [قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجِرْتَهُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ] (26).. إذن أربع نساء كان لهن دور محوري في حياة سيدنا موسى عليه السلام بعون وتوفيق من الله تعالى..

وإن كان هناك أربع نساء ساعدن سيدنا موسى في حياته وفي دعوته، فإننا نرى في حياة سيدنا محمد أدواراً مهمة للعديد من النساء، كالسيدة خديجة رضي الله عنها التي كانت تدعم النبي بنفسها ومالها، بالإضافة إلى أم سلمة وعائشة وغيرهن من أمهات المؤمنين. ولا ننسى أول شهيدة في الإسلام، السيدة سمية، والسيدة فاطمة بنت النبي ﷺ وسيدة نساء العالمين.. رأيت المقابلة الشديدة بين حياة النبيين الكريمين؟ فالسورة كلها تركز على أن وضع سيدنا موسى وحياته يشبه ظروف السيرة النبوية الكريمة كما يشبه وضعنا اليوم، لتؤكد على نفس المعنى: يا مسلمون ثقوا بوعد الله...

الوعد وتحقق الوعد

تتضمن سورة القصص سبع وعود فلنتأمل هذه الوعود وهل تحققت أم لا؟.. يقول تعالى [وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] (7) هذه الآية تتضمن وعدين، الأول: [إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ] والثاني: [وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ]..

أما الوعد الأول، فقد تحقق، وأخبر الله تعالى عن ذلك في الآية 13: [فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (13).. أي ولتعلم أم موسى، وتعلم يا محمد، وتعلم أنت وأنا والأمة كلها أن وعد الله حق، وأن هذا الدين منصور لا محالة، لكن أين الناس الذين سيتحركون ويضحون لنصرة هذا الدين كما تحركت أم موسى وكما تحرك النبي؟

وأما الوعد الثاني [وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ]، فقد تحقق في الآية (30): [فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يُمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ].

وليس هذا فحسب، بل إننا نرى وعداً ثالثاً في قوله تعالى [قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعٰلِلُونَ] (35). هذه الضمانة الربانية [فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا] قد تحققت في قوله تعالى: [فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ] (40).. ونلاحظ دائماً أن هناك فترة بين الوعد وتحقيق الوعد. هذه الفترة قد تتراوح بين عشر سنين، أو أربعين سنة، وقد تطول وقد تقصر، بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

أذان التمكين عند فتح مكة

وقد وعد الله تعالى النبي ρ بفتح مكة، وتحقيق وعد الله، وعاد النبي ρ إليها، وصعد بلال رضي الله عنه وأذّن.. وتحقيق وعد الله، وتكسرت الأصنام وأصبح الصحابة يرددون قول الله تعالى [وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبٰطِلُ إِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا] (الإسراء 81) وقوله تعالى [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا] (الفتح 1).

وتحقق وعد الله تعالى بالانتصار على الفرس والروم [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أٰمِنًا

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا] (النور 55)..

عمار بن ياسر ووعده الله

وتحقق وعده الله سبحانه تعالى في الآية الخامسة أيضاً [وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ]، ليس لبني إسرائيل فقط، بل لصحابي جليل، وهو عمار بن ياسر. كيف؟

فقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه لعمار: "إذهب لقد وليتك إمارة العراق" وأرسل معه مساعداً في ولايته، وبقي عمار في الإمارة مدة شهر - مع أن مؤهلاته القيادية لا تصلح ليكون والياً - إلى أن استدعاه عمر بن الخطاب إلى المدينة. وحين سئل أمير المؤمنين عن سبب ذلك، قال: "لقد نظرت في كتاب الله ووجدت أن كل وعود الله تبارك وتعالى قد تحققت لنا ولأمة النبي ﷺ، ورأيت قول الله تبارك وتعالى [وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ] (58) وأنت يا عمار من الذين استضعفوا في الأرض، فأردت يا عمار أن أري الناس وعده الله وهو يتحقق، اذهب فقد وليتك العراق لمدة شهر ليري الناس وعده الله وهو يتحقق أمام أعينهم [وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ]."

سراقة بن مالك وسواري كسرى

وتتجلى ثقة النبي بوعده الله تعالى في حادثة الهجرة أيضاً، حين كان ﷺ مطارداً وجاء سراقة بن مالك ليقنتله أو يأسره وينال جائزته من قريش (وهي 100 ناقة).. لكنه كلما حاول الاقتراب منه وقع عن فرسه بلا سبب مع كونه فارساً مغواراً، فيقول سراقة "فعلمت بأن الرجل ممنوع". أي أن هناك ما يمنعه، فقال يا محمد أعطني الأمان، فقال النبي ﷺ لك الأمان، فقال سراقة: يا محمد أردت أن آخذك فلم أستطع وكنت أريد جائزة فأعطني أنت شيئاً، فقال له النبي ﷺ أعدك سواري كسرى، فقال سراقة: كسرى من؟ فقال النبي ﷺ: كسرى ملك الفرس فقال سراقة: أكتب لي كتاباً بهذا فقال النبي ﷺ يا أبا بكر أكتب له كتاباً بهذا.

يا رسول الله، لماذا لم تعده بأوقية بلح من المدينة؟ أو بمبلغ من المال؟ لماذا سواري كسرى؟ إنها الثقة من النبي ﷺ بوعده الله تبارك وتعالى... وقد احتفظ سراقه بالكتاب قبل أن يسلم، وبقي يحتفظ بالكتاب إلى خلافة عمر، عندما فتحت بلاد فارس ودخل المسلمون المدائن عاصمة الفرس. وغنم المسلمون كنوز كسرى ووضعت في المسجد، وعندما صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر ونادى: أين سراقه بن مالك. فيأتي رجل عجوز ويقول ماذا يا أمير المؤمنين؟ فيقول: يا سراقه هذه سواري كسرى قسمة موعودة قسمها لك النبي ﷺ قبل أن يموت. فبكى جميع من في المسجد ونظروا إلى بيت النبي وقالوا صدق صاحب هذا المقام... صلى الله على محمد ﷺ. يا مسلمون، ثقوا بوعده الله كما فعل نبيكم...

إن الله زوى لي الأرض

وكما وعد النبي سراقه بن مالك بسواري كسرى، فقد وعدنا عليه الصلاة والسلام وعداً رائعاً:

"إن الله زوى لي الأرض فوجدت ملك أممي سيبلغ ما زوى لي منها". لكن ليتحقق هذا الوعد نرى أن سورة القصص ترشدنا إلى كيفية تحقيقه: [تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخْرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] (القصص 83) فالذين يستحقون وعد الله بالنصر والتمكين والملك في الأرض وقيادة البشرية هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وقوله تعالى [وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] يعني أن نهاية النصر لا تكون إلا للمتقين..

قارون: علا في الأرض، فعلته الأرض

وهذه الآية السابقة [تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخْرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ] أتت تعقياً على قصة قارون، للإشارة بأن السلطة والجاه الذي كان قارون يعيش فيهما كانا من قبيل العلو والفساد، وكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره الأرض [فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ..] (81).

فالسورة تتحدث عن تحقق وعد الله للمؤمنين الصادقين (بني إسرائيل وأم موسى وموسى). من هم أولئك يا رب؟ [لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا] (83) لذلك جاءت قصة قارون كنموذج للذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا، ولتحذرنا منهم.

سبب تسمية السورة

وكالعادة، يبقى سؤال مهم وهو: لماذا سميت السورة بسورة القصص؟ إن المعنى اللغوي للقصص هو تتبع أثر الشيء حتى نهايته كما جاء في قوله تعالى [وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه] (11). أي تتبعي آخر الأخبار وقوله تعالى [فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ] (25) أي حدثه عن الموضوع من أوله لآخره، فالقصص هو تتبع أثر الشيء حتى نهايته..

وقد سميت بسورة القصص لترشدنا بأننا لو تتبعنا القصص في السورة إلى نهايتها لوجدنا أن وعد الله في كل واحدة منها قد تحقق، وأن العاقبة للمتقين... ولكن المشكلة عند كثير من الناس هي في عدم تتبعهم للقصص، فالبعض ينظر إلى حلقة واحدة في الصراع بين الحق والباطل هي هزيمة الحق، فيظن بأن وعد الله لن يتحقق...

فمن الآن وصاعداً، كلما تقرأ كلمة القصص، تذكر نهاية قصص هذه السورة الكريمة، وتذكر أن وعد الله بالنصر والتمكين متحقق لا محالة، مهما طالت المدة أو تأخرت.

سيدنا موسى بين سورتي القصص والكهف

وهناك مقابلة لطيفة بين قصة سيدنا موسى في سورة الكهف مع قصته في سورة القصص.

ففي سورة الكهف استغرب موسى في قصته مع الخضر عليهما السلام مما فعله الخضر، من إغراق السفينة وقتل الغلام وإكرام القوم الذين لم يستضيفوهم.

واللطيف أن هذه الأمور الثلاثة قد حصلت مع موسى كما أخبرت سورة القصص، فلقد ألقته أمه في البحر، ولقد قتل رجلاً من جنود فرعون خطأ، وكذلك فإن أبا الامراتين استضافه لمدة عشر سنين..

فعود الله تبارك وتعالى تحققت في السورتين رغم صعوبة الظروف، لأن الله يفعل ما يشاء. وقد يحدث أن تتكرر الأمور في حياة الإنسان، فما كنت مستغرباً منه بالأمس فقد يحصل لك اليوم [وَرُبُّكَ يُخْلِقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ]... فثق بأن الله هو القدير وهو مالك الملك وهو المتصرف في ملكه كيف يشاء.

والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون"!!!!

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت (مكية)، نزلت بعد سورة الروم، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة القصص، وعدد آياتها 69 آية.

سورة الفتن

وهدف سورة العنكبوت يظهر واضحاً من بدايتها: [الم & أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] (1-2). "أيها المؤمن، جاهد الفتن، واصبر عليها. فهي سورة الفتن..."

هذه الفتن أمر محتوم في حياة المسلم، وهي سنة كونية وقاعدة ربانية كتبها الله على هذه الدنيا. وقد يسأل البعض: لماذا هذه الفتن؟ ألم يكن من الأفضل أن نعيش حياة هادئة، فنصلي ونصوم ونعبد الله تعالى دون أي فتنة أو مصيبة. من يسأل هذه الأسئلة لم يفهم حكمة الله تعالى ومراده من هذه الدنيا، التي جعلها دار امتحان للآخرة. فبدون فتن، لا يمكن أن يتمييز الناس في الجنة، ولا يمكن أن نفرق بين من يستحق الفردوس الأعلى، ومن يستحق أدنى درجات الجنة، ومن لا يستحق دخولها إلا بعد أن يمر بالعذاب... إن من مقتضيات عدل الله تعالى أن يعرض عباده للفتن حتى يميز الخبيث من الطيب.

سنة كونية

لذلك كانت بداية السورة: [الم & أَحْسِبَ النَّاسُ..] هل من المعقول؟ [.. أن يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ].

هل من المعقول أن تعتقدوا أنكم مؤمنون لمجرد أنكم قلتم "آمنا" بأفواهكم؟

حتى ولو كنتم صادقين في قولها، لا بد من الامتحان. [... وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] ...
والأصل أن المؤمن يُبتلى، فلا تظننَّ أبداً أيُّها المؤمن أن الابتلاء يأتيك
وحدك، لأن الآية الثالثة تقرر أن هذه الفتنة سنّة كونية: [وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ] لماذا يا رب؟ تأتي الإجابة في الآية نفسها: [فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ] أي ليظهر المؤمن الحقّ من مُدّعي الإيمان ... لذلك تأتي الآية
(11) بنفس المعنى: " وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ".

وهنا قد يتبادر سؤال إلى الذهن: ألا يعلم ربنا - وهو علام الغيوب - من
سينجح في الفتن ويصبر، ومن سيقع ويضل...؟ فلم الفتن إذا؟ والجواب: أن الله
تعالى يرسل هذه الامتحانات حتى تعلم أنت أيها الإنسان أمام نفسك، وتكون
حجة عليك يوم القيامة.

كان يكفي أن يقول لك الله تبارك وتعالى يوم القيامة: "أنا أعلم
أنك لو وضعت في الموقف الفلاني ستفعل كذا وكذا.. اذهب وادخل النار"
لكن الله تعالى بحكمته ورحمته وعدله يرسل لك الاختبارات في الدنيا، ويحاسبك
على أفعالك الحقيقية في الآخرة. [فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ
الْكَذِبِينَ] (3).

من كان يرجو لقاء الله

ولا تظنن أخي المسلم أن الدنيا سهلة خالية من المشاكل، حتى لو كنت
مؤمناً، لأن الإيمان لن يخلصك من فتن الدنيا، والمرء يبتلى على قدر دينه. لذلك
تقول لك سورة العنكبوت: إن كنت ترجو ثواب الله، فاصبر على مجاهدة الفتن
والاختبارات، حتى تلقى ربك فيجازيك، لأن لقاء الله قريب لا محالة. [مَنْ كَانَ
يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] (5) ولا يتبادر إلى
ذهنك - وسط الحديث عن الفتن - أن الله محتاج إلى مجاهدتك لها، بل أن
جهادك وصبرك هما من أجلك وحدك... لأن الله غني عن عملنا وعن عبادتنا،
وغني عن العالمين، ونحن الفقراء والمحتاجون إليه في كل شيء.

[وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ] (6)

أذى.. لا عذاب

ومن أخطر الفتن التي تعرضها السورة، فتنة الدين، بأن يتعرض المسلم للأذى بهدف إبعاده عن دين الله. والسورة تؤكد أنه أذى وليس عذاباً، لكن الموازين عندما تختل، يظن العبد الضعيف أن إيذاء الناس له هو العذاب بعينه. لذلك تأتي السورة لتؤكد أن هذا ليس صحيحاً، لأن العذاب لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى: [وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ آلِهَةٌ بِالْعَالَمِينَ] (10).

من أصعب الفتن

وتمضي آيات السورة لتدور حول نفس المحور: الفتن هي التي ستكشف إيمان الناس وتختبر معادتهم، وتظهر صدقهم من زيفهم. لذلك تأتينا بفتنة أخرى، بأن يضغط الوالدان على ابنتهما حتى يبعدها عن طاعة الله، إما خوفاً عليه أو عناداً لدين الله: [وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (8).

فتنة شديدة وصعبة، هل سيثبت على الدين، وهل سيبقى على بر أبويه رغم كفرهما؟

سبل النجاة من الفتن

ومن لطائف السورة، أنها ابتدأت بتقرير أن الفتنة موجودة في حياة الناس وأنها شديدة وصعبة:

[أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] (2)، بينما

ختمت السورة بآية جميلة، تثبت لنا أن الفتنة سهلة وأن الله سيهدينا ويساعدنا في اجتيازها إن جاهدنا:

[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ] (69)،

هذه الآية تتحدث عن جهاد النفس والفتن، لأنها نزلت في مكة حين لم يكن الجهاد بالسيف قد فرض بعد، وكأنها تقول لنا: جاهدوا أنفسكم وانتصروا عليها، تضمّنوا الانتصار على العدو الداخلي والعدو الخارجي...

أئمة المجاهدين

ثم تستعرض السورة كيف واجه أنبياء الله تعالى - نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى - الفتن وجاهدوها. فإذا نظرنا إلى قصة نوح التي وردت في السورة، وجدنا أنها السورة الوحيدة التي ذكرت مدة دعوة سيدنا نوح لقومه (950) سنة: **[فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا]**.

حتى يعرف المؤمنون، عبر الأجيال، أن الفتن حتمية الوقوع، فحتى الأنبياء لم يسلموا منها.

ولنعرف مقدار المجاهدة والصبر اللذان بذلهما سيدنا نوح، فيكون ذلك معيناً لنا على تحمّل ما قد نواجه من فتن، والتي هي طبعاً أقل من فتنه بكثير وبعد ذلك فتنة أخرى: سيدنا إبراهيم وصبره على قومه لما قالوا: **[أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ] (24)** لتثبت لنا بشكل عملي أن الله تعالى يعيننا على مواجهة الفتن، لكن المطلوب هو أن نبادر إلى مجاهدتها **[وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا] (69)**.

لماذا العنكبوت؟

وبقي أن نتحدث عن سبب تسميتها باسم "العنكبوت"، فعندما يضرب لنا ربنا مثلاً بمخلوق ما، فإن هدف السورة مرتبط لا محالة بهذا المثال. فمثلاً، سورة النمل، كانت سورة التفوق الحضاري، فكان رمز هذا التفوق، أمة النمل، التي هي أمة فائقة التنظيم والأخذ بمقومات الحضارة. وسورة النحل، التي كان هدفها: "الشكر على النعم"، أظهرت لنا كيف أن هذه المخلوقات، حين اتبعت أوامر الله، خرج منها عسل شهّي ومفيد، فيه شفاء للناس، لتثبت لنا أننا إذا اتبعنا أوامر

الشرع، فسيخرج نور الهداية الذي هو شفاء للناس، كالعسل تماماً.
ويعود السؤال من جديد: لماذا سميت سورة الفتن باسم العنكبوت؟

شبيهة بخيوطها

ويعود ذلك إلى أن تداخل الفتن يشبه خيوط العنكبوت. فطبيعة الفتن أنها متشابكة ومتداخلة، فلا تقدر أن تميز فتنة دون سواها، وهي كثيرة ومعقدة، تغطي تفاصيل حياة المرء.. لكنها بالمقابل هشة وضعيفة، إذا استعنت بالله في مواجهتها: **[وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (41).**

والإنسان عادةً إذا أصيب بفتنة، انقلب على وجهه وجرى يبحث عن ملجأ. وفي الغالب (للأسف) يستعين بغير الله تعالى، ويلجأ إلى البشر. لذلك تقول لنا السورة: إذا لجأتم إلى البشر هرباً من الفتن، فستكونون كمن هرب ولجأ إلى بيت العنكبوت، بيت ضعيف هش لا يقي صاحبه ولا يستره: **[مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (41).** وكان المعنى: من أشد الفتن وأخطرها، أن ترضي الناس على حساب دينك، أو تستعين بغير الله أو تتوكل على غيره.

أوهن البيوت

وبيت العنكبوت واهن بسبب ضعف خيوطه، ومن الناحية الاجتماعية أيضاً. فبعد أن يلقح الذكر الأنثى تقوم بقتله والقائه خارج البيت... وحين يكبر الأولاد، يقومون هم أيضاً بقتل الأم وإلقائها خارج البيت... بيت عجيب، من أسوأ البيوت على الإطلاق.

لذلك ضربت لنا السورة مثل العنكبوت، لتعلمنا أن خيوط العنكبوت الكثيفة، وإن كانت معقدة، فهي تشبه الفتن في أنها واهية. ولتصور لنا أن استعانتنا عند الفتن بغير الله تعالى، هي تماماً كمن يلجأ لهذا البيت الواهي في علاقاته وفي أسسه. فسبحان الله على اختيار هذا الاسم لسورة الفتن، حتى يحذر الناس من تقليد هذه الحشرة في حياتها ومن التشبه بأفعالها.

سورة الروم

سورة الروم (مكية)، نزلت بعد سورة الانشقاق، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة العنكبوت. عدد آياتها 60 آية.

آيات الله واضحة بينة

هذه السورة هي أكثر سور القرآن إيراداً لقوله تعالى [وَمِنْ آيَاتِهِ]، مما يدلنا على هدف السورة: "آيات الله واضحة وبينة، فكيف لا تؤمنون؟".

لذلك تنتقل بنا الآيات في أرجاء ملك الله في الكون، وتذكر لنا آياته الواضحة البينة، لتزيدنا إيماناً بعظمته وقدرته. اقرأ معي الآيات: [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ & وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً] (20-21).

وكأن هذه الآيات تذكرنا بمعنى رائع، وهو أن الله تعالى في ملكه كتابان: كتاب الله المنظور الذي هو الكون، وكتاب الله المقروء الذي هو القرآن. ومن روعة الكتابين أنهما يدلان على بعضهما. فسورة الروم مثلاً، سورة مقروءة. لكنها تأخذ عينيك وتقول لك: أنظر إلى كتاب الله المنظور لتستدل على الله. وكلما نظرت في الكون أكثر، وجدته يملك على أن ترجع لكتاب الله المقروء. فسبحان من جعل لكل نوع من الناس - أميين ومتعلمين، عرباً وعجماً، كباراً وصغاراً - كتباً يقرأونها ويستدلون بها على الله..

ومن آياته... ومن آياته

وتمضي الآيات في عرض متواصل لآيات الله الواضحة في الكون:

[وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ & وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ...]

(22-23) - [وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ] (24) - [وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ] (25).

هذه السورة 60 آية، من فضلك أنظر بنفسك، كم مرة وردت كلمة [آيات] في هذه السورة؟ لذلك بعد أن تقرأ السورة، أخرج إلى الطبيعة وتفكر في خلق الله لمدة 5 دقائق، من الذي خلق هذا الكون وأبدعه؟ من الذي جعل فيه هذه الآيات العظيمة؟ من الذي أصلح علاقات الأزواج مع أزواجهم، وجعل بينهم مودة ورحمة؟ ومنتقل إلى الآية 46 لنرى آية أخرى من آيات الله [وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ]. وتأتي آية أخرى [اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَرَى الْوُدْقَ يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ] (48). وحتى في خلق الناس: [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً] (54).

وكأن هذه السورة تدلك على كتاب الله المنظور، وتقول لك: أنظر إلى آيات الله كيف تحيط بك من كل جانب، فكيف لا يؤمن بها المكذبون الجاحدون؟ كيف يشك بعض الناس بقدره الله تعالى؟

الروم: آية تاريخية

لكن يبقى سؤال: لماذا سميت هذه السورة بسورة الروم؟ ستقول: لأن في أولها قوله تعالى [غُلِبَتِ الرُّومُ]. سأقول لك: حاضر... لكن ما علاقة الروم بهدف السورة؟ ولماذا لم تسم هذه السورة بسورة الآيات؟

إن التسمية بهذا الاسم تحمل دلالة تاريخية، ففي عهد النبي P، قامت حرب بين الفرس والروم، فانتصر الفرس على الروم انتصاراً ساحقاً لم تقم الروم من بعده.. فنزلت الآيات تحبر المؤمنين أن الروم سينتصرون على الفرس خلال بضعة سنين (أي من ثلاث إلى تسع سنوات).

فالسورة تتحدث عن آيات الله المبهرة في الكون، وكأنها تقول لكل من يكذب ويعاند: إن لم تروا هذه الآيات وتؤمنوا بها، فانظروا إلى آية مادية، ترونها أمام عينيكم، وهي انتصار الروم على الفرس في أقل من عشر سنين... وهذه الآية موجهة لنا في عصرنا الحديث كما هي موجهة للأولين، فما الذي أدرى النبي الذي يسكن في مكة أن الروم سينتصرون على عدوهم...؟ اسمع معي الآيات:

[الم & غَلِبَتِ الرُّومُ & فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ & فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ & بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ] (1-5).

آية كونية

وتحققت النبوءة القرآنية تماماً بعد تسع سنين. وسميت السورة بسورة الروم، حتى تلفت نظر كل كافر إلى هذه الآية المادية لو لم يصدق بالآيات المنظورة في الكون. لا بل أن هناك آية أخرى في هذه الحادثة، لم يفهمها الأوائل ولم ينتبهوا لها، تزيدنا إيماناً بهذا الكتاب الميّن وآياته المبهرة...

فالسورة تقول عن المعركة أنها حصلت في أدنى الأرض [غَلِبَتِ الرُّومُ & فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ].. وهذه الآية لا يستطيع أحد من عصرنا إنكارها، فقد دل العلم الحديث أن المكان الذي حدثت فيه المعركة، المعروف بحوض البحر الميت حالياً، هو أدنى منطقة على الكرة الأرضية.. (وارجع إلى كتب الإعجاز العلمي في القرآن للمزيد من التفاصيل) فماذا يملك كل مكذب قديماً أو حديثاً بعد هذه الآيات...؟

آية اقتصادية

وتمضي السورة لتذكر لنا آية أخرى، آية مادية نراها في الدنيا... ليست آية علمية بل آية اقتصادية... اسمع قوله تعالى: [وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّباً لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ] (39). والمعنى أن الربا لا يزيد المال بل ينقصه، وبأبي علم الاقتصاد

الحديث فيثبت أن أفضل وسيلة تجعل الاقتصاد مستقراً هي أن تكون نسبة الفائدة صفرًا بالمئة، أي بإلغاء الفوائد كلياً. ثم يثبت علم الاقتصاد أيضاً أن الزكاة هي من أفضل أساليب التنمية..

فما الذي جاء بآية الربا ضمن سورة الآيات؟ سبحان الله، كأن السورة تقول للناس كلهم، في كل العصور: أنظروا إلى آيات الله في كل المجالات: في التاريخ، والكون، وعلم الجيولوجيا وعلم الاقتصاد... الزكاة أسلوب تنموي، والربا أسلوب لإقلال الأموال وخسارة الاقتصاد

وقبل الختام، هناك عدة ملاحظات لا بد أن نشير إليها:

ظاهر الآيات وباطنها

أتى في أوائل السورة قوله تعالى: [يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ] (7).

فهذه الآية أتت في سورة مليئة بآيات الله تعالى، لتخبرنا أن هناك الكثير من الآيات والدلائل قد لا نراها ولا نفهم الحكمة منها، لكنها في الواقع غير ما نراه.

فظاهر الروم هزيمة وانكسار، لكن الباطن والنتيجة كانا انتصاراً على عدوهم في مدة قصيرة جداً. وظاهر الربا الزيادة، وظاهر الزكاة النقصان، لكن السورة تثبت غير ذلك، أن الربا يؤدي إلى دمار اقتصادي، بعكس الزكاة التي تؤدي إلى التنمية.. وكان المعنى: ثقوا أيها المؤمنون بوعد الله، وثقوا بحكمته وتدييره في الكون...

سورة لقمان

سورة لقمان (مكية)، نزلت بعد سورة الصافات، وهي في المصحف بعد سورة الروم، آياتها 34 آية.

سورة تربية الأبناء

نفهم هدف السورة من اسمها، الذي يدل على تربية لقمان لابنه ووصيته التي جاءت بها السورة. فهي سورة تربية الأبناء، تحمل في آياتها أساليب رائعة لتربيتهم على منهج الله تعالى، تربية شاملة لكل ما يحتاجه الأبناء في دينهم ودنياهم. هذه التربية تشمل المحاور التالية:

1. توحيد الله تعالى
2. بر الوالدين
3. أهمية العبادة والإيجابية
4. فهم حقيقة الدنيا
5. الذوق والأدب
6. التخطيط للحياة

سبحان الله. كل هذا موجود في السورة؟ كل هذا في 34 آية فقط؟
هذه السورة لا بد أن تدرس في مدارسنا، وأن يقرأها أبناؤنا ويحفظوها لينشأوا على التوجيهات التي ربي لقمان ابنه عليها. وليس هذا فحسب، بل إن الآباء يجب أن يتعلموها قبل الأبناء، ليتعرفوا من هذه المدرسة

القرآنية، مدرسة لقمان، على أصول التربية الإسلامية والدينية.

محاوَر تربية لقمان

1. عدم الإِشراك بالله

وهذا المحور نراه واضحاً في السورة كلها، لأن أول ما يجب أن ننشئ أطفالنا عليه هو توحيد الله تعالى وعدم الشرك به. فكيف نزرع هذا المعنى في أطفالنا؟ لا بد أن نريهم ملك الله في الكون، ونخرج معهم في النزهات والرحلات، حتى يروا المناظر الطبيعية، فيتعلموا منها إتقان الله في خلقه، ويتعرفوا على عظمة الخالق سبحانه وتعالى من عظم مخلوقاته.

أنظر كيف ربي لقمان ابنه: [يُبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] (13) فبدأ بالدرس النظري في التحذير الشديد من الشرك، ثم بعد آيتين انتقل للدرس العملي: [يُبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ] (16). ومن روعة هذه الآية أنها ضربت مثلاً يفهمه الأولاد الصغار، بينما تحمل معنى عظيماً يلائم الكبار أيضاً ويجعلهم يشعرون بقدرة الله تعالى وإحاطته وعلمه.

2. بر الوالدين، وتعريف الأبناء بفضل الآباء عليهم، حتى يعرفوا معنى الشكر، شكر الله وشكر الوالدين.

[وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ] (14).

وحتى عند الأمر ببر الوالدين، يأتي التذكير بعدم الشرك حتى لو كان ذلك طاعة للوالدين، ليعلمنا القرآن أن الأمرين لا ينبغي أن يتعارضا مع بعضهما.. [وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا] (15) وتأتي قاعدة هامة في التوازن بين البر وبين ترك الشرك: [وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا] (15).

3. أهمية العبادة والإيجابية في الحياة.

[يُبْنَى أَقِيمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ] (17).

فليست التربية أن تؤمن لأطفالك الطعام والشراب والمسكن والملبس والدواء.. هذه كلها إداريات البيت، والتربية ينبغي أن تنشئ الأطفال على عبادة الله تعالى. ولا تقتصر التربية على تعليم الأطفال أداء الصلاة، كما يعتقد الكثير من الآباء، لأننا يجب أن نغرس في قلوبهم الإيجابية في مجتمعهم وبين إخوانهم، فيأمروا بالمعروف وينهون عن المنكر ويأخذوا بأيدي الناس للهداية.

4. التعريف بحقيقة الدنيا

هناك آباء يرتبون أبناءهم على الترف والإنفاق والاعتماد على مال آبائهم، ظناً منهم أنهم يؤمنون لأولادهم كل ما تتطلبه الدنيا. لكن المطلوب هو تعريف الأبناء بحقيقة الدنيا وسياستها المتقلبة، وأن الدنيا لن تدوم لأبائهم، وأنه لا بد للأبناء من الاعتماد على أنفسهم. فيقول لقمان في الآية (17): [وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ]. وبالأخص إذا تربي الولد على الإيجابية في الآية السابقة [وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ]، فإنه يحتاج كثيراً إلى الأمر بالصبر، لأن طريق الإيجابية والدعوة إلى الله مقترن بالمشاكل والصعاب.

6. الأدب والذوق

[وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ & وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ] (18-19)، لا بد من التعامل مع الناس بأدب وذوق حتى في أدق التفاصيل، في المشي والصوت. فلا يرفع المرء خده استعلاءً على الناس، ولا يمشي بالخيلاء بين الناس بل يقتصد في ذلك [وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ]، ولا يرفع صوته أكثر مما يحتاج إليه السامع.

7. تحديد الهدف في الحياة والتخطيط للمستقبل

ومن روعة السورة أنها شملت هذا المعنى أيضاً في التربية. وذلك ما نراه في قوله تعالى: **[وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ]** فهذه الآية قد تكون إتماماً لسلسلة الذوقيات والأخلاق التي تحدثت عنها السورة، فيكون المعنى أن تمشي على الأرض بوقار ودون أي عجب أو خيلاء. وقد تعني "اقصد في مشيك": أن تضع قصداً وهدفاً وراء كل خطوة تمشيها، فلا تعيش في الحياة زائداً عليها دون أن يكون لك أي هدف فيها...

العاطفة بريد التربية

ونلاحظ في السورة أن هذا الكم من التوجيهات قد غلّفه الأب بالحنان والعاطفة الشديدين. وكأني عندما أقرأ هذه الآيات، أشعر بلقمان، ذلك الرجل الهادئ، الذي يعظ ابنه برقة ويقول له قبل كل موعظة: **[يُبْنَى.. يُبْنَى]**، فالسورة تقول للآباء: صاحب أولادك واكسب مودتهم قبل أن تعظهم. كلّمهم أخي المسلم عن نفسك وتجاربك وأخطائك في الحياة، واستعمل الصداقة معهم لتنصحهم قبل استعمال الأمر والنهي بشدة... هذه السورة هي فعلاً من أروع المناهج التربوية في القرآن.

علم الله وقدرته

ولأن توحيد الله هو محور أساسي في تربية الأبناء، نرى أن السورة ركّزت على التوحيد من خلال العديد من الآيات التي يجب أن نلفت نظر أبنائنا إليها أثناء تربيته لهم:

ففي أول 11 آية، نرى تركيزاً على هذا المعنى، خاصة في قوله تعالى: **[خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ...]** (10) هذه السورة تعطيك أيها الأب مادة مهمة لزرع توحيد الله في قلوب أبنائك... حتى تصل بنا إلى قوله تعالى **[هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ]** (11).

وتأتي آيات كثيرة بنفس المعنى: [أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ..] (20) إلى أن نصل إلى مثال رائع عن علم الله تعالى: [وَلَوْ أَنَّ مَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (27). هذه الآية تشكل مثلاً رائعاً في استخدام عناصر الطبيعة التي يراها الناس أمام أعينهم، كباراً وصغاراً، وتربيتهم على علم الله وإحاطته بالخلائق جميعاً..

عدم الإتيان الأعمى

وتركز السورة على خطورة تربية الأبناء على الإتيان الأعمى دون فهم لمعتقدات الآباء، فهي من ناحية، بينت أن الحنان والعاطفة لا بد أن يسودا علاقة الآباء بأبنائهم حتى يتربى الابن عن قناعة، وبالمقابل تنكر على الأبناء الذين يقلدون آباءهم في عقائدهم: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا] (21).

وتبين الآيات بوضوح أن كلاً من الأب والابن مسؤول عن عمله يوم القيامة، فلن ينفع الوالد ولده أبداً: [يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا] (33) فلا بد من تربيتهم على الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة والخلق الحسن...

ختم السورة: علم الله تعالى

وكما بدأت السورة بتوحيد الله، فإنها ختمت بالتركيز على علم الله وقدرته الله، وعجز الخلق عن الإحاطة بشيء من غيبه: [إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (34). وهي خمس غيبات لا يعلمها إلا الله: موعد القيامة، ووقت نزول المطر، ونوع الجنين قبل التكوين، وأحداث المستقبل، وأين نهاية الأجل ومكان الدفن... يا مسلمون، ربوا أبناءكم على الإيمان بالله وتوحيده بهذه الطريقة...

ولقد آتينا لقمان الحكمة

ومن لطائف السورة، أنها ركزت على الحكمة بشكل أساسي، فقد بدأت بقوله تعالى [الم & تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ] (1).

وحتى عندما أنكرت على من يصد عن سبيل الله، قالت الآيات: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ] (6). وهو الحديث هو عكس الحكمة.

وليس هذا فحسب، بل أن أول آية ذكرت لقمان جاء فيها قوله تعالى: [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ] (12)، وكأن وصايا لقمان لابنه التي جاءت في السورة هي عصارة حكمته وتجاربه في الحياة، ينقلها لمن يأتي بعده...
 فهل ستقتدي بلقمان وحكمته في تربيته لابنه؟ وهل سجلت النقاط والمحاور التي ستربي أبنائك عليها؟ نسأل الله تعالى أن يعيننا على تربية أبنائنا وفقاً لمنهجهم وقرآنه وشريعته..

سورة السجدة

ونصل إلى سورة السجدة، والتي نعرف محورها من اسمها: "السجدة"، فهي سورة الخضوع لله سبحانه وتعالى، لذلك حملت اسماً هو رمز الخضوع والتسليم: السجود. كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة في صلاة الفجر كل يوم جمعة، الذي هو يوم إجازة ويوم عيد عند المسلمين، ليبدأ هذا اليوم المبارك بتلك البداية الخاشعة والخاضعة لله تعالى.

لماذا لا تكون منهم؟

فترى في السورة مدحاً ريانياً للمؤمنين الذين يخضعون لله تعالى، وذلك في الآية التي فيها سجدة:

[إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ] (15).

لذلك عندما تقرأ هذه الآية أخي المسلم، سارع إلى السجود لله تعالى حتى تكون مع هؤلاء الخاضعين وتقتدي بهم... ثم تمر على صورة أخرى: [تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ] (16). وحتى عندما يلجأون إلى النوم، ترفضه أجسامهم. وانظر إلى عبارة "تتجافى جنوبهم عن المضاجع" ما أروعها... فالنوم والسرير يمثلان بالنسبة لكثير من الناس الراحة، أما الخاضعون، فهم يرفضون النوم لما يحملونه من حب للعبادة وخوف من النار وطمعاً بالجنة.

وانظر كيف يكرم الله من خضع له من بني إسرائيل، ويعزه في الدنيا قبل

الآخرة: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَيِّنَاتٍ يُوقِنُونَ] (24).

إياك أن تكون منهم

وأما من لم يخضع في الدنيا بإرادته، فسوف يخضع في الآخرة قهراً بلا أجر، بل بعذاب أليم:

[وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ] وتأتي آية أخرى لترينا كيف أن الخضوع في الآخرة لن يفيد أصحابه [قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ] (29).

لكن الله تعالى يمهل أولئك المتكبرين حتى يعودوا إليه، ويرسل لهم بعض الابتلاءات والعذاب عساهم يخضعون لربهم جل وعلا: [وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] (21).

وكأن السورة تعرض لك النموذجين وتساالك: مع أي الفريقين أنت؟
[أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ] (18).

الموت حق

ولأنها سورة الخضوع، يأتي فيها ذكر الموت، حتى يفيق الغافلون من غفلتهم ويخضعوا لله:

[قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ] (11).

لكل هذه المعاني الرقيقة والخاصة، كان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة فجر كل جمعة، ليجدد نية الخشوع والخضوع لله في الدنيا قبل العرض على الله.

فإذا أحسست أخي المسلم بفتور في عبادتك، وأردت أن تقوي همتك وتجدد خشوعك لله تعالى، اقرأ سورة السجدة واطلب من الله تعالى أن يعينك على ذلك الجزء (22 - 23).

سور الأحزاب وسبأ وفاطر ويس والصفات وص

ونصل مع خواطرننا القرآنية هذه إلى الجزئين 22 و23، واللذين يشملان ست سور: الأحزاب وسبأ وفاطر ويس والصفات وص. هذه السور يجمعها محور واحد وهدف واحد، وهو الاستسلام لله تعالى.

معنى الإسلام

فبعد أن قرأنا 22 جزءاً من كتاب الله، واتضح المعالم الأساسية للقرآن، لا بد لنا أن نسأل أنفسنا: ما هو شكل علاقتنا بالله تعالى؟ ما هو عنوان ديننا؟ ما هو معنى كلمة الإسلام أصلاً؟

فإذا رجعنا إلى المعاجم، وجدنا أن معنى كلمة الإسلام هو الاستسلام لله تعالى، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم: [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (البقرة، 131) أي استسلمت لرب العالمين وسلمت نفسي لله تعالى...

ولذلك فإن هذه السور الست تسألك: أما أن لك أن تستسلم وتخضع لربك جل وعلا؟ والملاحظ أن القرآن لم يأمر بالاستسلام لله إلا بعد أن عرض المنهج الرباني في 22 جزء، وكان المعنى: بعد أن فهمت حكمة الشرع وعظمتته، وبعد أن استشعرت روعة آيات الله ودلائل قدرته، استسلم لربك، حتى لو لم يعجبك أمر تفصيلي في جزئيته، وحتى لو لم ترتح إلى أمر معين، لأن عنوان دينك هو الاستسلام.

محاوَر الاستسلام

وهذه السور الست تدور حول محور واحد، وهو الاستسلام لله تعالى في كل شؤون الحياة:

سورة الأحزاب: الاستسلام لله في المواقف الحرجة

سورة سبأ: الاستسلام لله سبيل بقاء الحضارات

سورة فاطر: الاستسلام لله سبيل العزة

سورة يس: الاستسلام لله بالإصرار على الدعوة حتى لو يئست من النتيجة

سورة الصافات: الاستسلام لله وإن لم تفهم الحكمة من الأوامر

سورة ص: الاستسلام لله بالعودة إلى الحق بلا عناد

ومن هنا نفهم سبب مجيئها بعد عرض المنهج، لأننا في الجزء 22 أدركنا هذا المعنى وفهمنا عنوان ديننا وما يريد الله منا، وأن الأوان أن نستسلم له تعالى.

ونحن نؤكد أن هذا اجتهاد بسيط، يهدف إلى تيسير قراءة القرآن على الشباب المسلم وزيادة تفاعلهم معه. ولا نقول أن هذا هو المحور وهو الكلام الأخير في المسألة. وبالتأكيد هناك من هم أعلم منا بتفسير القرآن ولا بد أن يأتي من يربط هذه السور ببعضها أكثر ويفهم مراد ربنا، لأن عمق القرآن ليس له آخر... بعد هذه المقدمة السريعة، تعال معاً لنعيش مع سور الاستسلام لله تعالى.

سورة الأحزاب

الاستسلام لله في المواقف الحرجة:

وهذه السورة هي بالمناسبة من أكثر سور القرآن تصويراً لمواقف حرجة قد يمر بها الإنسان. فحادثة الأحزاب (أو غزوة الخندق) هي نفسها صورة لموقف بغاية الصعوبة [إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا & هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا

شَدِيداً] (10 - 11).

فتركز السورة في كل آياتها على طاعة الله والاستسلام له في هذه المواقف.

مواقف اجتماعية

وبعد ذلك كان موقف محرج آخر وهو طلاق زيد رضي الله عنه من زينب بنت جحش رضي الله عنها ومن ثم زواج النبي ﷺ بها... [فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطراً زَوَّجْنَاهَا] (37)...

ثم تحريم التبني وإلغاء هذه العدة المتأصلة في نفوس العرب: [أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ] (5)... وهذه القاعدة التي بدأت مع سيدنا محمد ﷺ، عندما ألغى تبنيه لزيد، وعاد اسم زيد بن حارثة إليه بدلاً من زيد بن محمد... موقف محرج لزيد وللنبي... لذلك تقول الآيات تعقياً على هذه الحادثة [مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ] (38).

ويأتي موقف صعب: نساء النبي يطلبن زيادة في النفقة. وليس هذا ترفاً منهن، لأن الوضع الاقتصادي الذي كانوا عليه كان غاية في الشدة. لكن الله تعالى أراد اختبارهن بامتحان صعب، لأنهن أمهات المؤمنين، لذلك تقول الآية [يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ إِنْ كُنْتُمْ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحاً جَمِيعاً & وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً] (28-29).

حجابك قمة استسلامك

وهكذا نرى أن السورة تضمنت الكثير من المواقف الحرجة والصعبة التي قد يمر بها المسلم، إلى أن تصل بنا إلى أمر صعب على النساء، لكنه اختبار قوي لمدى استسلامهن لأوامر الله: الحجاب. [يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ] (59).

وهذه الآية - بالإضافة إلى الآية (31) من سورة النور - قد ذكرت تفاصيل

حجاب المرأة المسلمة بشكل دقيق. ففي سورة النور، أتى تفصيل الجزء العلوي من اللباس [وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ] أما في سورة الأحزاب، فقد وصفت الآية لباس المسلمة من تحت [يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلْبَابِهِنَّ]. فهل ستتسلمي لله تعالى أيتها الأخت المسلمة، وترضخي لحكم الحجاب؟ أم أننا سنظل نسمع من يقول: أنا لم أقتنع بالحجاب بعد...

استسلم بلا تردد

فإذا أصر البعض على عدم تطبيق الأحكام الشرعية إلا بعد فهم الحكمة منها، فاسمعي أيتها الفتاة وسمع أيها الشاب الآية المحورية والقاعدة الهامة في الاستسلام لله تعالى:

[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ] (36).

فلا يجوز أن يأمرك الله أمراً ثم تعترض وتقول: أقنعني أولاً. يا شباب، ويا بنات، إستسلموا لله تعالى، فقد ظلت الآيات على مدى عشرين جزءاً تبين لك حكمة الله وتدييره في خلقه وإعجازه في تشريعه (مما يثبت أن ديننا ليس فيه اتباع أعمى أو دعوة لتعطيل العقل). أما الآن، فقد آن الأوان أن تستسلم..

وكأن المعنى: أن الله تعالى يتعبدنا بنوعين من الأوامر: أوامر تأتي مقرونة بالسبب والحكمة، كتحریم الخمر وأكل لحم الميتة وما إلى هنالك، فيطبّقها المؤمنون ويزدادوا معها إيماناً بحكمة الله في شرعه. وهناك أوامر أخرى لا تذكر معها العلة أو السبب، فيريدنا الله من خلالها أن نطيعه سواء فهمنا الحكمة من ذلك أم لم نفهم، حتى يمتحن استسلامنا له من غير شروط ومن غير تردد.

طاعة الله في السورة

ولأن محور السورة هو طاعة الله سبحانه وتعالى والاستسلام لأمره، نرى أن كلمة الطاعة ذكرت في السورة 7 مرات، والصدق مع الله 8 مرات. وليس هذا

فحسب، فإن أول آية في السورة أمرت النبي بالطاعة الخالصة لله دون سواه:

[يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ].

وأنت آيات كثيرة بنفس المعنى: [وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ] (48).

والآية الرابعة تركز على إخلاص الطاعة لله دون غيره: [مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ] لأن من يطيع العباد من دون الله، فسوف يكون مصيره في الآخرة مع من يقول: [وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا] (67).

وتثبت لنا السورة أن هذا الأمر لم يكن مختصاً بالنبي وحده، بل شمل كل الأنبياء:

[وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا] (7).

استسلام السماوات والأرض

وتختتم السورة بمعنى لطيف، وهو قوله تعالى:

[إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] (72).

فلاستسلام لله تعالى نوعان: إما أن تستسلم لربك جل وعلا باختيارك وإيرادتك، وإما أن تكون عبداً له دون أي اختيار... والنوع الأول هو الذي أشفقت منه السماوات والأرض لما يعلمن من صعوبة حمل الأمانة، أمانة التكليف، ولذلك فضلن النوع الثاني من الاستسلام، وهو الخضوع لله تعالى دون أن يكونوا مخيرين في فعل الطاعات..

أما الإنسان، فقد حمل هذه الأمانة [إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا]، والآية لا تعني أنه كان ظلوماً جهولاً لأنه حمل الأمانة، لكنه يكون كذلك إذا لم يستسلم لله بعد

حملة لهذه الأمانة.

لذلك كان ختام سورة الأحزاب: استسلم لله تعالى، واعلم أن الله تعالى استأمنك على مسؤولية كبيرة، خافت منها مخلوقات عظيمة من مخلوقات الله، وفضلت الاستسلام لله دون أن يكون عندها خيار في ذلك...

سبب تسمية السورة:

ونصل إلى سبب تسمية السورة، وهو طبعاً يرجع إلى غزوة الخندق، حين أحاط الأحزاب بالمدينة من كل جانب... فماذا كان قول المسلمين في هذا الموقف الصعب؟ [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا] (22).

أرأيت كيف أن التسليم لله يتكرر دائماً معنا في هذه السورة؟ لكن هناك سبباً آخر لهذا الاسم بالذات غير أحزاب الخارج. فالمدينة المنورة قد انقسمت من الداخل أيضاً إلى أحزاب: من حزب المنافقين، إلى حزب المترددين الخائفين، إلى حزب ثالث لا يجب أن ننساه، وهو حزب النساء اللواتي نصرن الإسلام، ولهذا أتت آيات كثيرة عنهن، مثل الآية 35: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...]. وهناك حزب المؤمنين الواثقين بالله، والذين نالوا شهادة رائعة من الله تعالى في استسلامهم: [مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا] (23).

أصلح الأحزاب... لتقوم الحضارة

لقد سميت السورة بالأحزاب بسبب كثرة الأحزاب خارج المدينة وداخلها. ولا ريب أن إصلاح أحزاب الداخل والانتصار عليها أصعب بكثير من الانتصار على أحزاب الخارج. فالأولى قضى الله عليها بريح أرسلها عليهم، [فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا] (9). وأما أحزاب الداخل، فإن تم إصلاحها، فستصبح أمتنا

ذات حضارة قوية، كحضارة سبأ التي تحدثت عنها السورة التالية، وكأن العلاقة بين السورتين تختصر بالرسالة التالية: يا أحزاب الداخل انصهروا واستسلموا لله، لأن انصهار الداخل واستسلامه له تعالى هو سبيل بقاء الحضارات

سورة سبأ

استسلام الحضارات لله

سورة سبأ من السور التي تتناول قضية التفوق الحضاري، كسورة النمل، لكنها تأتي مكملة لها في المعنى؛ فبينما ركزت سورة النمل على الأخذ بمقومات الحضارة، من علم وتفوق تكنولوجي وإدارة، تأتي سورة سبأ لتسأل كل من يريد بناء أمة وحضارة: على أي شيء تقوم هذه الحضارة؟ وعلى أي أسس؟ فهدف السورة هو: حاجة الحضارة للإيمان

والسورة تتحدث عن نموذجين متناقضين للحضارات: حضارة مؤمنة مستسلمة لله، وهي حضارة داوود وسليمان عليهما السلام، وحضارة عاصية رافضة لطريق الله وهي حضارة سبأ.

ومجيء هذه السورة في ترتيب المصحف بعد سورة الأحزاب يشير - كما ذكرنا - إلى أن إصلاح أحزاب الداخل بالإيمان هو السبيل لبناء حضارة قوية.

حضارتان في الميزان:

فالنموذج الأول، والذي يتمثل بالحضارة المؤمنة، هو نبي الله داوود الذي آتاه الله الملك:

[وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْأَحْيَادَ]

(10)، فلما استسلم لله تعالى وعبده حق عبادته، طوع الله له الحديد، وسخر له الكون كله بين يديه: [وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ] (12). لاحظ كلمات [أَوْبَى] و[وَأَلْنَا] و[وَأَسَلْنَا لَهُ]، فكلها تصور

كيف سخر الله تعالى الكون كله لهذه الحضارة المؤمنة. لذلك فإننا نرى في سورة أخرى من سور الاستسلام لله، سورة "ص"، كيف ثبت الله ملك سيدنا داوود: [وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ & وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ...] (ص: 19 - 20).

أما النموذج الثاني، فهي الحضارة التي لم تستسلم لله فعوقبت وانتهت، وسميت السورة باسمها لتكون عبرة لمن يعتبر: [لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ & فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِنِ أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٌ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ & ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ] (15 - 17).

الجن في السورة

وبين هاتين الحضارتين، تأتي السورة على ذكر الجن، وكيف كانت حضارتهم مستسلمة إلى حضارة سليمان بشكل كامل: [وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ] (12). هذه الحضارة لم تؤت قوة ولا سلطاناً ولا علماً، بدليل قوله تعالى [فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَائِغِهِ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ] (14).

فهم كانوا يعملون بجد خوفاً من سليمان الذي كان يراقبهم، لكنه - عليه السلام - مات وهو متكئ على كرسيه دون أن يلاحظ الجن ذلك، ولم يعرفوا هذه الحقيقة إلا بعد أن أكلت حشرات الأرض من عصا سليمان... حادثة بسيطة تظهر هذه الحضارة المستسلمة لكن دون أي علم أو معرفة...

سنة كونية

وتصل بنا السورة، بعد عرض المثالين، إلى تعميم القاعدة بأن تكذيب

الحضارات وكفرها بالله تعالى هو سبب هلاكها: [وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ] (45) فبعد الحديث عن الأمم الغابرة، بينت السورة أن هناك أمماً كانت أقوى عشر مرات من قريش، ومع ذلك فقد انتهت حضارتها لأن القاعدة العامة قد جرت عليها. ولذلك تأتي موعظة شديدة لكل من يريد أن ينشأ حضارة أو يبني أمة، افهموها يا مسلمين،

واحفظوها يا من تريدون بناء مجد الإسلام:

[قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ] (46).

سورة فاطر

الاستسلام سبيل العزة:

وتكمل سورة فاطر محور الاستسلام لله تعالى. فبعد أن رأينا في سورة سبأ أن الاستسلام لله هو سبيل بقاء الحضارات، تأتي سورة فاطر لتقول: بل أكثر من ذلك، فهو سبيل العزة والرفعة في الدنيا. فبعض الناس يعتقدون أن استسلامهم لرب العاملين وخضوعهم له هو مذلة وانتقاص من قدرهم، لكن السورة توضح أن العزة الحقيقية لا تأتي إلا من الله: [مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ] (10).

كيف لا تستسلم؟

ثم تنتقل السورة إلى ما هو أقوى من ذلك: كيف لا تستسلمون لله وأنتم فقراء إليه فقراً مطلقاً، وهو الغني عنكم وعن العالمين: [يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ & إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ & وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ] (15 - 17).

والسورة ابتدأت أصلاً بذكر الملائكة، وأنهم رغم عظم خلقهم وقوتهم، خاضعون لله مستسلمون له في كل أمورهم [أَلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبُعًا] (1).

فاطر السماوات والأرض

فلماذا سميت السورة بأحد أسماء الله الحسنى، "فاطر"؟

إن سورة فاطر ترينا آيات الله في كونه، حتى نعرفه حق المعرفة، ونوقن أن العزة لله جميعاً، فنستسلم له ولا نخضع لسواه. فلماذا كان التركيز على اسم الله "فاطر"؟ إن مرادف كلمة "فاطر" هي كلمة "خالق". وفي اللغة، نقول "فطر الشيء" أي شقّه إلى نصفين. لذلك فإن الآيات الكونية في السورة تركز على عظمة الله من خلال ازدواجية الكون:

[أَلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ & مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ] (1-2)، [وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ] (12)، [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ & وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ] (27-28). وتأتي آيات أخرى بذكر الأضداد: [وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ & وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ & وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ & وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ...] (19-22).

وكأنها تقول لنا: من يستطيع أن يقيم الكون على هذه الأضداد إلا الله؟

فاخضعوا له واستسلموا لعظمته...

لذلك ترينا السورة في أكثر آياتها قدرة الله تعالى في الكون، حتى نعرف ربنا حق المعرفة ونوقن أن العزة لله جميعاً، ومنها قوله تعالى [إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ]

(41).

سورة يس

الاستسلام في الدعوة إلى الله:

وسورة يس تظهر أن هناك نوعاً آخر من الاستسلام لا بد للمسلم من القيام به، وهو الاستسلام لله تعالى وتفويض الأمر إليه أثناء الدعوة إلى الله، بأن يبقى المرء مصراً على الدعوة إلى الله سواء اهتدى الناس أم لم يهتدوا، لأن الدعوة إلى الله عبادة لله، وأنت تتقرب إلى الله بهذه العبادة سواء أرايت النتائج أمامك أم لم ترها...

ولذلك فإن سورة يس تصوّر لنا نموذجين من الناس: نموذج لأشخاص ما تزال قلوبهم تنبض بالحياة، ونموذج آخر لأشخاص ماتت قلوبهم. ولأن المرء لا يعلم ما في قلوب الناس فهو بالتالي لا يعلم من يرجي هدايته ممن لا يرجي فوجب عليه دعوة الجميع سواء اهتدوا أو لم يهتدوا.

سبب نزول السورة:

فتبدأ السورة بذكر الذين لا ترجى هدايتهم [وَسَوَاءَ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] (10) ثم مباشرة تذكر من ترجى هدايته [إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ] (11). فالسورة تصوّر الفئتين كما ذكرنا، مما يوضح لنا سبب نزولها على النبي ﷺ قبل الهجرة مباشرة، عندما توقف انتشار الإسلام وبدأ المسلمون يشعرون باليأس من دعوتهم. لذلك نرى آيات كثيرة تثبت النبي بأنه على الحق وتقوي عزيمته للاستمرار في طريق الدعوة.: [إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ & عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ & تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ & لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ] (3 - 6).

فالسورة تسأل الدعوة إلى الله، وتسالنا أيضاً: هل ستطيعون الله وتستسلمون له وتستمرون بدعوتكم؟ فالله وحده هو الذي يعلم ما في صدور الناس، ولذا

وجب عليكم الاستمرار بالدعوة حتى لو كان ظاهر الناس لا يبشّر بالخير.

نموذج للاستسلام:

ونرى في هذه السورة القصة الشهيرة، قصة القرية التي أرسل الله لها ثلاثة من المرسلين [وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ & إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ] (13 - 14). فهذه القرية قد أرسل إليها ثلاثة أنبياء، لكن هناك رجلاً أحس بمسؤوليته عن هذا الدين وكان موقفه رائعاً:

[وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ & اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ & وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] (20 - 22) إنها قصة رجل لم يقف مكتوف اليدين دون أن يدعو إلى الله، بحجة وجود الأنبياء في هذه القرية، لكنه أصر على الاستمرار في دعوة قومه رغم أنهم لم يستجيبوا للأنبياء الذين هم أفضل منه بكثير... وهكذا نرى أن هذه القصة تصب في محور السورة مباشرة: إياك واليأس من دعوة الناس إلى الله.

الآيات الكونية ونهاياتها

وقد ركزت السورة على الموت والبعث، حتى نتذكر أننا جميعاً سنموت، مؤمنين وكافرين، طائعين وعاصين.. لذلك ينبغي الاستمرار في الدعوة، لعل الله تعالى يجيي قلب رجل عاص قبل الموت. وهذا المحور يأتي مقروناً بالآيات الكونية المذكورة في السورة، التي ركزت على نهايات الأمور، وكأنها تذكر الكافرين بالموت الذي هو نهاية التكذيب ونهاية كل الخلائق. إسمع قوله تعالى: [وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ & وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ] (38 - 39). أي أن للشمس والقمر نهاية، كما لكل المخلوقات.

إقرأوا يس على موتاكم:

ومن هنا نفهم حديث النبي ﷺ: "إقرأوا يس على موتاكم". وليس المقصود من الحديث أن تقرأ في المقابر كما يفعل الكثير من الناس، بل أن تقرأ على الميت حال احتضاره. وكأن المعنى: إقرأ هذه السورة على كل حي، حتى أولئك الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة، لأن الحياة لا تزال موجودة فيهم فإذاً لا بد من توجيه الدعوة إليهم وعدم اليأس منهم... معنى جميل ومهم لكل الدعاء إلى الله.

سورة الصافات

سورة الصافات تسلط الضوء على معنى واحد: استسلم لأوامر الله حتى لو لم تدرك الحكمة منها. لذلك تأتي السورة بمثل رائع: سيدنا إبراهيم، لما طلب منه ذبح ابنه إسماعيل، فتلقى الأمر دون أي تردد أو سؤال عن الحكمة والغاية من هذا الطلب، وكان السورة تقول لنا: سيأتيكم يا مسلمون عدد من الأوامر التي لن تفهموا الحكمة منها، فاقتدوا بسيدنا إبراهيم في تنفيذه للأوامر الربانية...

استسلام الأب والابن:

وبالعودة لسيدنا إبراهيم، فإننا نرى في قصته استسلاماً كاملاً لله تعالى. فهو قد ترك قومه وهاجر إلى الغربة في سبيل الله [وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئُهُدِينَ] (99).

ثم تصوّر لنا السورة اشتياقه وحاجته للولد: [رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ] (100).

فاستجاب الله لدعائه [فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ] (101).

تخيل فرحة قلبه...! رجل كبير عجوز مهاجر وبعيد عن بلده... تخيل تعلقه بهذا الولد، الذي ليس غلاماً عادياً، بل أنه "غلام حلیم"... فماذا بعد؟ نرى في الآية (102).

[فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ] لما كبر الولد أمام عيني والده، رأى إبراهيم في منامه رؤيا صعبة [قَالَ يُبَيِّنُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ] ليس أمراً مباشراً من الله أو عن طريق جبريل، بل عن طريق الرؤيا. ومع ذلك لم يتذرع إبراهيم بذلك، لأنه يعلم أن رؤيا الأنبياء حق...

ولم يطلب إبراهيم معرفة الحكمة من هذا الطلب، بل لم يسأل عنها أصلاً، لكنه قال لابنه بكل استسلام: [إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى] وهذا السؤال ليس تردداً لأنه سيذبحه أصلاً، لكن إبراهيم، ذاك النبي المستسلم لله تعالى في كل أومره، أراد أن يشارك ابنه في الأجر. فماذا قال إسماعيل؟ إن أباه تركه وهو طفل في صحراء قاحلة، ويأتي اليوم ليخبره أنه سيذبحه..

[قَالَ يَا بَنِيَّ أَفْعَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ].

وهنا تأتي الآية المحورية: [فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ] (103)، وهنا يأتي سؤال: ألم يكونا مسلمين قبل هذا الطلب؟ طبعاً، لكن [أَسْلَمَا] هنا تصور معنى الإسلام الكامل، وهو الاستسلام لله تعالى دون أي تردد...

لماذا سميت السورة بالصفات؟

ما هي الصفات؟ هي الملائكة التي تصطف بين يدي الله تعالى استسلاماً له. لذلك بدأت السورة بداية رائعة بذكر هؤلاء العباد المخلصين. وإننا نلاحظ في القرآن أن بدء كل سورة بالحديث عن الملائكة يعني أن محور هذه السورة يتعلق بالاستسلام لله أو الخضوع له، لأن الملائكة هم قدوة ورمز في هذا المعنى.

الاستسلام لله طوعاً أو كرهاً:

فإذا أوى المرء الاستسلام في الدنيا، فإن السورة تحذرننا من هول يوم القيامة: [وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ] & [مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ] & [بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ]

(24 - 26).

كأنها تقول: استسلم في الدنيا طوعاً قبل أن تستسلم في الآخرة كرها..
أرأيت كيف أنك ستستسلم لله رغماً عنك يوم القيامة دون أن يفيدك ذلك في شيء؟

فاخضع له بإرادتك في الدنيا، واستسلم لأحكامه وشرعه حتى لو لم تعلم الحكمة منها. فلا ينبغي لأحد أن يمتنع عن تنفيذ حكم ما إلا إذا اقتنع أولاً... ومع ذلك فإن من كرم الله أنه جعل للغالبية الكبرى من أوامره تعليقات وحكم مقنعة، لكنه أبقى بعض الأوامر دون أن يطلعنا على الحكمة منها، حتى يعلم من سيطيع ويستسلم ومن سيعصي ويتكبر...

سورة ص

وبعد أن عرضت كل سور الجزئين 22 و 23 محوراً واحداً وهو الاستسلام لله تعالى، تأتي سورة ص بمعنى جميل: رغم أنك أيها المسلم مستسلم لأوامر الله، لكنك قد تخطفى وتعصي، والسؤال هو: هل ستعود إلى الله؟ أم أنك ستتكبر وتصر على رأيك.. وهكذا يكون محور السورة: الاستسلام لله بالعودة إلى الحق دون عناد.

العودة إلى الحق بلا عناد

ولذلك تتحدث السورة عن ثلاثة أنبياء، حصلت أمامهم خصومات أو تسرعوا في اتخاذ قراراتهم، لكنهم عادوا إلى الحق بسرعة. وهذه العودة إلى الله من أهم أنواع الاستسلام لله تعالى، لأن المتكبر لا يعود إلى الحق، وإذا رأى نفسه على خطأ فسوف يصر على موقفه عناداً واستكباراً. ولذلك فإننا نرى في ختام السورة قصة إبليس، الذي كان رمزاً للاستكبار والعناد وعدم العودة إلى الله.

عودة داوود

وأول قصة ذكرت في السورة هي قصة سيدنا داوود حين اختصم أمامه

خصمان، وقالوا له: [... فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ] (22) فتعجّل سيدنا داوود في الفتوى وحكم لأحدهما. لكن عودته كانت سريعة [وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّهَا فَتْنَةٌ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ & فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاجٍ] (24 - 25).

عودة سليمان

والقصة الثانية هي قصة سليمان بن داوود عليهما السلام: [وَوَهَبْنَا لِداوودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (30).

وترينا الآيات أيضاً سرعة إنابته: [إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِينَتُ الْجِيَادُ & فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ] (31-32) فلما رأى أن الخيل ألهته عن ذكر الله حتى غابت الشمس، قال: [رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ] (33) فقرر ذبح الخيل كلها لهذا السبب. وترينا الآيات مشهداً آخر من مشاهد إنابته عليه السلام: [وَوَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ] (34).

عودة أيوب:

وأخيراً قصة أيوب عليه السلام حين أقسم أن يضرب زوجته مئة ضربة فقال تعالى [وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ...] (44) فعاد إلى الحق، وأوجد الله تعالى له مخرجاً لكي لا يحنث، وأمره أن يأخذ مئة عود وأن يضرب بها زوجته ضرباً خفيفاً حتى يبر بقسمه دون أن يمنعه ذلك من العودة إلى الحق.

والملاحظ أن قصص الأنبياء في هذه السورة ركزت على عبودية الأنبياء وإنابتهم لله تعالى:

- داوود [وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (17) أي كثير الرجوع إلى الله وسريع العودة إلى الحق.
- سليمان: [نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (30).

- أيوب: [نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ] (44).

وهكذا نلاحظ أن معاني العبودية لله والإنابة إليه قد تكررت في السورة بشكل واضح...

إبليس والاستكبار

وفي مقابل الأنبياء الذين أنابوا لرهم، تعرض السورة نموذجاً عكسياً لإبليس: [فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ & إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ] (73-74) فكان استكبار إبليس هو السبب الأساسي لكفره وضلاله. لذلك يواجهه رب العزة بذلك: [قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيٍّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِينَ] (75). فماذا كانت نتيجة ذلك المتكبر؟ [قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَٰحِيمٌ & وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ] (77-78). هذا النموذج الرهيب لإبليس أتى في ختام سورة "ص"، وفي ختام سور الاستسلام لله تعالى، حتى نقارن بين من كان قدوة في الاستسلام لله، وبين إبليس عدو الله الذي قاده تكبره وعدم خضوعه إلى الكفر والطرده من رحمة الله...

سورة الزمر

سورة الزمر (مكية)، نزلت بعد سورة سبأ، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة (ص)، وعدد آياتها 75 آية.

سر بين العبد وربّه

سورة الزمر من أجمل السور التي يحبها أهل القرآن ويحفظونها، لما تتضمنه من معان وآيات رائعة. هدفها واضح جداً: أهمية الإخلاص لله، وأن نبتغي بأعمالنا وجه الله تعالى، ونبتعد عن الرياء. فمن أراد أن يختبر نفسه ويعرف مدى إخلاصه في عمله، وهل يدخل الرياء (أو الشرك الخفي) في عمله أم لا... فعليه أن يقرأ سورة الزمر، ويعرض قلبه على آياتها...

ميزان الإخلاص

إياك أن يكون في عملك نية لغير الله. إياك أن تقول: فلان يراني، والناس تشير إلي وتقول: هذا يحفظ القرآن، هذا يداوم على الصلاة في المسجد... أخلص لله تعالى في عبادتك. أخلصي لله تعالى في إرضائك لزوجك وطاعتك له. أخلصوا أيها الآباء والأمهات في تربية أولادكم على طاعة الله تعالى ونصرة الإسلام.. أخلصوا في حياتكم كلها لله، تضمنوا زمرة المؤمنين في الجنة، وتكونوا ممن فهم سورة الزمر وحقق مراد ربنا من هذه السورة.

ألا لله الدين الخالص

ومن أول آيات السورة نرى هذا المحور واضحاً: [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ & أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...] (2 - 3).

وتتوالى كلمات الإخلاص والآيات التي تشير إليه بشكل متواصل...
 فنقرأ قوله تعالى: [قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ & وَأُمِرْتُ
 لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ] [قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ & قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي & فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ...]
 (11 - 15).

فتؤكد الآيات على نفس المعنى: الإخلاص الكامل لله تعالى في العبادة
 والعمل.

ليكن عملك خالصاً كاللبن

ومن روعة القرآن في توضيح معنى الإخلاص، آية في سورة النحل، حيث
 يقول تعالى:

[وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
 لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ] (66).

فهذا اللبن الأبيض، يخرج من بين الفضلات والدم، لبناً نقياً خالصاً، ولو أن
 قطرة واحدة من الدم وقعت فيه لفسد... هل تقدر أن تخلص في عبادتك وتنقيها
 من الشوائب؟ هل تستطيع أن تجعل كل سكنة وكل همسة في حياتك خالصة لله
 تعالى... وأنت تكلم الناس في الدين، وأنت تصلي، وأنت تقرأ القرآن، وأنا عندما
 أكتب هذا الكتاب... لا بد من الإخلاص الشديد لله، حتى يتقبل منا أعمالنا..

أيهما أصلح لك؟

وبعد ذلك يضرب الله لنا مثلاً جميلاً يناسب معنى الإخلاص:

[ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
 يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (29).

فهل يستوي من يعمل عند سيد واحد ومن يعمل عند عدة أسياد؟ وهل
 يكون الموظف الذي عنده مدير واحد كالموظف الذي يتلقى أوامره من عدة مدراء،

بآراء ووظائف مختلفة؟

لذلك تأتي بعد هذا المثل مباشرة [الْحَمْدُ لِلَّهِ]، لأن التوحيد نعمة تريح القلب وتصون العبد من الزلزل. الحمد لله على نعمة التوحيد، وأنه إله واحد، لأن إخلاص العمل لله أنفع لقلبك وأجمع لهمتك وأدعى لقبول العمل، تعود عليك بركته في الدنيا، وأجره مضاعفاً في الآخرة.

أنواع الإخلاص

وقد تناولت آيات السورة كل أنواع الإخلاص، وأولها إخلاص العبادة، حيث يقول تعالى [أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ] (9)...

نموذج مضىء، لإنسان مخلص في عبادته لله تعالى، لا تهمه إشارات الناس له بالطاعة ومدحهم إياه بالعبادة، ولذلك فإنه يستعين في إخلاصه بقيام الليل، ويجتهد في العبادة حين لا يراه أحد من الناس...

ويأتي نوع آخر من أنواع الإخلاص، أهم من الأول بكثير: الإخلاص في التوبة، حتى وأنت تعود إلى الله وتتوب إليه:

[قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ & وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ] (53 - 54)...

أنظر إلى كلمة [وَأَنبِئُوا] ما أروعها... فهي تمثل سرعة العودة إلى الله والتوبة إليه...

وهكذا نرى أن الإخلاص يعين على الاستمرار في الطاعة، كما يعين على التوبة من الذنوب ومن التقصير...

لو استعانوا لأعانهم

وفي أواخر السورة تعود الآيات لتحدثنا عن الإخلاص وتحذرننا من الإشراك بالله تعالى [قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ & وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ & بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ] (64 - 66)...

فكيف لا يخلص المرء لله؟ وله ما في السماوات وما في الأرض...

إن الشرك بالله وعدم الإخلاص له إنما هو إساءة في تقدير حق الله وعظمته، والعباد بالله. ولهذا جاء في الآية التالية مباشرة [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ] (67)، فكل من يشرك بالله تعالى - سواء أكان هذا الشرك ظاهراً أم خفياً - فإنه لا يعلم قدره سبحانه وتعالى...

ختام يشحذ الهمم

ونصل إلى آيات خاشعة، تهز القلوب، وتنقل لها مشاهد من يوم القيامة، وأحوال أهل النار وأهل الجنة. هذه الآيات تنقيك من الشرك والرياء تنقية تامة، وتزيدك خوفاً من الله ورهبة منه ورغبة إليه، وبالتالي تعينك على كل من إخلاص التوبة وإخلاص العبادة...

[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ..] (68).

ويأتي بعدها قوله تعالى: [وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...] (71).

وبالمقابل نرى أهل الجنة [وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا...] (73).

إنه فرق كبير بين مصير المشركين الكافرين وبين مصير المؤمنين المخلصين...

بين [.. فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..] و [.. وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..].

ومن روعة القرآن، أن الآيات عبّرت عن الفرق الرهيب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار بحرف واحد: الواو.

فكلا الفريقين يساق إلى مصيره الذي أعده الله تعالى له، وكلاهما يساق مع الزمرة أي مع المجموعة التي كان معها في الدنيا [وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا] (71-73). لكننا نرى في مصير الكفار قوله تعالى: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا] (73).

بينما عن المؤمنين، تقول الآيات: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا]، ومثل هذه الملاحظات الدقيقة واللطيفة لا يتنبه لها إلا من يهتم بحفظ القرآن... فما الفرق بين الآيتين؟

فالكفار يساقون إلى جهنم خائفين، دون أن يعرفوا إلى أين تقودهم خطاهم وفجأة، تفتح أمامهم أبواب جهنم والعياذ بالله، ويفاجئون بعذاب الله تعالى. أما المؤمنون، فهم يسيرون في موكب واحد، زمراً أيضاً، مطمئنين إلى مصيرهم، يترقبون الجنة وينظرون إليها من بعيد وهي تفتح أبوابها (لذلك قالت الآية وفتحت أبوابها)...

فحُرِّمَ الكفار من الواو لهول المفاجأة ووطأتهما عليهم، بينما أعطى الله حرف الواو للمؤمنين حتى يستمتعوا بمراقبة أبواب الجنة وهي تفتح... تصوير رائع ومعاني رائعة فقط من حرف واحد من أحرف القرآن، إذ لا يوجد أي حرف زائد في القرآن، وهذا من إعجازه البياني..

ألا تريد اللحاق بهم؟

وتختتم السورة بأروع ما يكون، آيات رقيقة ترقق القلب وتشوّقه لطلب الجنة...

[وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ & وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مَنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ & وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] (73 - 75).

لماذا (الزمر)؟

وكالعادة، يبقى سؤال مهم: وهو الحكمة من تسمية سورة الإخلاص لله باسم سورة الزمر...

والسبب - والله أعلم - هو أن أكثر ما يعينك على إخلاص العمل لله تعالى، أن تكون في زمرة صالحة، أي صحبة صالحة. وبالمقابل، فإن جزاء الإخلاص أن تنال صحبة المؤمنين. وكما يقول العلماء، يأبى الله أن يدخل الناس الجنة فرادى، فكل زمرة وكل صحبة يدخلون الجنة زمرة أي سوية...

فسميت السورة بهذا الاسم حتى تتذكر الزمرتين، زمرة أهل الجنة وزمرة أهل النار، كلما قرأت السورة، وتختار بنفسك من يعينك على الإخلاص ويكون رفيقاً لك في الدنيا، ومرافقاً لك عند دخول الجنة.

سورة غافر

سورة غافر (مكية)، نزلت بعد سورة الزمر، وهي بعدها أيضاً في ترتيب المصحف، عدد آياتها 85 آية..

أدع إلى الله وفوض الأمر إليه

إن المحور الأساسي الذي نتحدث عنه سورة غافر هو أهمية الدعوة إلى الله وتفويض الأمر لله أثناء الدعوة... فما علاقة الدعوة بتفويض الأمر إلى الله؟...

إن الداعي إلى الله تعالى سيواجه مشاكل ومصاعب خلال دعوته، فإذا أردت أخي المسلم أن تختار طريق الدعوة إلى الله، طريق أنبياء الله تعالى، فاعلم أن هناك عقبات كثيرة فيه، وعليك أن تفوض الأمر كله لله وتتوكل عليه. لذلك جاء في هذه السورة آية محورية، [إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] (51). هذه الآية موجهة إليك أخي المسلم كما هي موجهة للأنبياء [رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا]، وتعدك بالنصر الرباني في الدنيا قبل الآخرة [فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ]، فتوكل على الله، وفوض الأمر إليه...

خير القول وخير العمل

وسورة غافر تنضم إلى سور كثيرة في القرآن في حثها على أشرف مهمة في التاريخ: الدعوة إلى الله، لأنها طريق الأنبياء والمرسلين، فلا بد أن يحرص الإنسان عليها ويهتم بها لا بل ينذر حياته كلها لإيصال الخير إلى الناس.

والدعوة ليست صعبة، إذ لا يشترط أن يكون المرء علامة حتى يدعو إلى الله

تعالى.

حدّث أصدقاءك عن الإسلام وعظمته ورحمته، أو على الأقل انشر الشريط الإسلامي المفيد أو الكتب النافعة التي تعلّم الناس أمور دينهم وتقرّبهم إلى الله.. حدّثي رفيقاتك عن الحياء والعفة بأي وسيلة تؤثر في القلب. وليس عليكم النظر إلى النتائج، إذ أن المطلوب منا هو العمل فقط، والله وحده هو الذي يهدي من يشاء...

إني عذت بربي وربكم

ولأن السورة تحدثنا عن الدعوة وتفويض الأمر إلى الله، فإننا نرى هذه المعاني مرتين في قصة موسى عليه السلام: [وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ] (26).
 وحين وصل الأمر إلى التهديد بالقتل، استمر موسى عليه السلام بالدعوة إلى دين الله تعالى وفوض أمره إلى الله تعالى: [وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مَنِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ] (27).

وأفوض أمري إلى الله

ونموذج التفويض الثاني، لرجل مؤمن من آل فرعون، كان يكتنم إيمانه، لكنه حين رآهم يكيّدون لموسى ليقتلوه، قال: [أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...] (28)، فكانت صدمة لفرعون أن يقف رجل من حاشيته ويدافع عن موسى، وكان مؤكداً عند الجميع أن فرعون سيبطش به، لكن المؤمن الصادق انتقل من الدعوة إلى التفويض: [فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] (44).

فماذا حدث بعد ذلك؟ [فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا] (45)..

وكأن المعنى: أَدع أيها المسلم إلى الله، ولا تخش في الله لومة لائم. وتوكل على من يحفظك وفوض أمرك إليه، ليحميك من أعدائك. واستعد دوماً بالله تعالى، كما قال سيدنا موسى: [إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ] (27).

عقبات على الطريق

طريق الدعوة صعب ومليء بالمشاق والمتاعب، لكنها ستكون أحف بكثير من تلك التي واجهت موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون، كأن يستهزأ بك أحد، أو يشتمك أو يضيق عليك حياتك... لهذا، عليك أن تفوض أمرك إلى الله وتستمر في الدعوة، لأن الأمة المحمدية كلها مطالبة بالدعوة، كما جاء في سورة آل عمران: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..] (آل عمران: 110). فما الذي جعلنا خير أمة أخرجت للناس؟ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أولاً، ثم الإيمان بالله، إشارة إلى أهمية هذه الفريضة العظيمة في تمييزنا عن باقي الأمم...

أقصر طريق إلى القلوب

والسورة لا تحث المؤمنين على الدعوة إلى الله وحسب، بل إنها ترشدنا إلى أفضل الوسائل في الأخذ بيد الناس. وهذا ما نراه في قصة مؤمن آل فرعون، وعرض السورة للوسائل التي استخدمها هذا الداعي الرباني في دعوته لقومه. تعالوا معاً أيها الدعاة، لتتعلم دروساً قرآنية رائعة في الدعوة إلى الله:

الإقناع العقلي

[وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ...] (28).. فهو يقول لهم: "اسمعوه وبعد ذلك قرروا القبول أو الرفض. مع العلم أن كذبه سيرتد عليه وحده، أما صدقه فيرتد عليكم ويهلككم". كلام عاقل وهادف، يعتمد على تبسيط الأمور والحقائق.

التواضع مع الناس

وبعد أن أنهى المنهج العقلي، انتقل هذا المؤمن إلى منهج آخر، فقال: [يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا...] (29).

لاحظ الذكاء وحسن اختيار الألفاظ: فحين تحدث عن الملك قال: **[لَكُمْ أَلْمَلِكُ]** فعظّمهم وأنزلهم منازلهم، لكنه حين أراد تحذيرهم من عذاب الله، قال: **[فَمَنْ يَنْصُرُنَا]**، فأدخل نفسه معهم حتى يشعرهم أنه واحد منهم، لا يتكبر عليهم بالتزامه وتديّته، وأنه يخاف عليهم كما يخاف على نفسه.

وهكذا نتعلم درسين في الدعوة إلى الله من آية واحدة:

- إنزال الناس منازلهم، ومخاطبتهم بما يجبون من الألقاب **[لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرِينَ فِي الْأَرْضِ]**.

- عدم التكبر على المدعوين، وإحساسهم أن الداعي واحد منهم **[فَمَنْ يَنْصُرُنَا]**.

صدق العاطفة

وبعد ذلك ينتقل الداعي إلى الناحية العاطفية في الدعوة **[وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ]** (32) فإذا أردت أن تؤثر في الناس، فعليك أن تحب الناس وتشعرهم بحبك لهم ورحمتك بهم وخوفك عليهم من العذاب... **[يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَثَلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ]** (30).

استخدام التاريخ في الدعوة

وبعد الاستعانة بالمنهج العقلي والمنهج العاطفي، يأتي الاستشهاد بالتاريخ في الدعوة إلى الله:

[يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَثَلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ & مَثَلِ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ] (30-31).

فالداعية إلى الله تعالى لا بد أن يكون موسوعي الثقافة والمعرفة، على علم بالتاريخ، وبأحوال الأمم السابقة، ليحث الناس على الاعتبار ممن سبقوهم.

التذكير بيوم القيامة

وأخيراً، بدأ يتحدث عن يوم القيامة، لأن التذكير باليوم الآخر هو من أقوى

الوسائل التي يجب على الدعاة أن يستعينوا بها في دعوتهم إلى الله: [وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ] (32) - أي يوم القيامة - [يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ] (33).

ثم يعود بعد ذلك إلى التاريخ [وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ...]. ثم (34) ثم إلى استخدام العاطفة [يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ] (38). ثم التذكير بيوم القيامة [يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ] (39) ثم المنهج العقلي [وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ & تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ] (41 - 42).

ويختتم دعوته لقومه بتفويض الأمر إلى الله كما ذكرنا [فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ] (44)...

موقف رائع، وحجة باهرة، يستعملها هذا الداعي إلى الله، الذي ليس بنبي مرسل، لكن غيرته على دين الله وحبه للإسلام، كانا سبباً في أن يذكر في كتاب الله تعالى، ويكون قدوة للدعاة إلى يوم القيامة، في استخدام الوسائل المناسبة للدعوة إلى الله.

الدعاء عنوان التفويض

والدعاء هو من أهم مظاهر تفويض الأمر إلى الله، لذلك ركزت السورة كثيراً على الدعاء، فنرى أن السورة في بدايتها ذكرت دعاء الملائكة للمؤمنين: [الَّذِينَ يَخْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ] (7).

وختمت السورة بالآية المشهورة في الحث على الدعاء: [وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذُحْرِينَ] (60).

وخلال السورة، وردت آيات كثيرة في نفس المعنى: **[فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ]** (14).

ومن لم يدع ربه في الدنيا سيندم على ذلك كثيراً في الآخرة **[قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً]** (74). فيحاولون الدعاء، لكن ذلك لن يفيدهم شيئاً، بعد أن تركوا الدعاء في الدنيا **[قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ]** (50).

فإذا أردت العون خلال دعوتك إلى الله، والتفويض والتسليم إليه سبحانه في هذا الطريق، فاقراً سورة الدعوة والتفويض، اقرأ سورة غافر بهذه النية.

سور فصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف

هذه السور الست تجمعها خصائص عديدة، أولها أنها تبدأ بـ (حم)، ولذلك
تعرف بالحواميم.

حم... والأحرف المقطعة

هذه السور تبدأ جميعاً بـ [حم]. فما المراد من هذه الحروف؟ سبق وقلنا في
سورة آل عمران أن الله تعالى يتحدى العرب في هذه الحروف المقطعة. وكأن المعنى:
هذه الحروف هي المادة الأولية التي تستعملونها في الكتابة، فتنظّمون منها نثرًا
وشعرًا... وأنتم في حياتكم العادية تأخذون المواد الأولية الأساسية في الكون (من
حديد ومعادن وخشب..). وتصنعون منها سيارات ومفروشات ومبان... لكن
التحدي هو: هل تقدرّون أن تصنعوا من هذه المنتجات إنساناً فيه روح؟

وبالتالي، يكون التحدي في الحروف المقطعة: هذه هي المادة الأولية للغتكّم،
فهل تستطيعون أن تأخذوا هذه المادة الأولية وتأتوا منها بقرآن... هل تستطيعون
أن تنفخوا الروح في هذه الحروف؟ اسمع قوله تعالى عن القرآن [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا] (الشورى، 52)، فهل تقدرّون على أن تأتوا بمثل هذا
القرآن، (ومن اللطائف أن هذه الآية أيضاً موجودة في الحواميم).

مفتاح واحد لهدف واحد

إنّ السور التي تبدأ بنفس الأحرف المقطعة لا بد أن يجمعها قضيّة

مشتركة... وكان [الم] أو [حم] هم 34 رمز (أو code) لموضوع السورة وفكرتها

المحورية. وكل السور التي تبدأ بهذا الرمز ترتبط مع بعضها في مواضيعها وأهدافها (كما رأينا في سور البقرة وآل عمران والعنكبوت).

وسور الحواميم - كما هو واضح - ابتدأت جميعها بنفس الحروف المقطّعة [حم] لأن هناك هدف مشترك يجمعها، وحتى نعرف هذا الهدف، لا بد أن نستعرض النقاط المشتركة التي تجمع هذه السور:

1. كلها سور مكية

2. كلها تبدأ ببيان قيمة القرآن وعظمته.

3. تذكر قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

4. تبين انتقال الرسالة من بني إسرائيل إلى أمة محمد

5. تحت على الوحدة والتحذير من الفرقة..

6. تحتتم بالصفح والإمهال...

ولنبداً بملاحظة هذه المعاني، ونربط بينها، في طريقنا لفهم مراد ربنا من هذه السور الكريمة.

1. قيمة القرآن:

تبدأ هذه السور جميعاً بالحديث عن قيمة القرآن وعظمته:

وفي سورة فصلت: [حم & تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] (1 - 2).

وفي الشورى: [حم & عسق & كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (1-2-3).

وفي سورة الزخرف: [حم & وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ] (1 - 2).

وسورة الدخان: [حم & وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ] (1 - 2).

وسورة الجاثية: [حم & تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ

الْحَكِيمِ] (1 - 2).

وسورة الأحقاف: [حم & تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ] (1 -

(2).

2. موسى عليه السلام وبنو إسرائيل:

سورة فصّلت: [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ... (45)].

سورة الزّحرف: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ (46)].

سورة الدخان: [وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ & أَنْ أَدُّوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ (17-18)].

[وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (31)].

سورة الجاثية: [وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ... (16)].

سورة الأحقاف: [وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً (12)].

وأكثر قصص الأنبياء تكراراً في القرآن الكريم هي قصة موسى عليه السلام، لدرجة أننا نرى حديثاً لطيفاً للنبي ﷺ في المسألة، حيث يقول: "رحم الله أخي موسى لقد كاد يذهب بثلاث القرآن". فما الحكمة من ذلك؟

لأن قصة موسى احتوت على محورين أساسيين: علاقة موسى مع فرعون (والتي كانت من أقوى المواجهات في صراع الخير والشر)، وعلاقة موسى مع بني إسرائيل، التي كانت آخر أمة قادت الأرض قبل أمة محمد ﷺ، فكانت هذه التجربة مهمة للأمة المسلمة حتى يتعلموا من أخطائها في استخلافهم وقيادتهم للأرض...

3. انتقال الكتاب من الأمة السابقة (بني إسرائيل) إلى أمة محمد p:

[شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] (الشورى، 13) هذه الآية [أَقِيمُوا الدِّينَ] هي آية محورية بين كل سور الحواميم، كيف؟ هذا ما سنراه بعد أن نفهم أهداف السور. وهناك آيات أخرى تفيد نفس المعنى:

[ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا] (الجاثية: 18).

[وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ] (الزحرف: 44).

[وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...]

(الأحقاف، 12).

4. الوحدة وخطورة الفرقة:

سورة فصّلت: [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ

فِيهِ...] (45).

سورة الشورى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا

فِيهِ & وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ..] (13-14).

سورة الزحرف: [فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ

عَذَابٍ يَوْمَ الِئِمِّ] (65).

سورة الجاثية: [وَأَتَيْنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا آخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...] (17).

5. الصفح والإمهال

والجميل أن كل هذه السور قد اختتمت بالعفو والصفح والأمر بالصبر:

سورة الشورى: [قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...] (23).

[وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] (43).

سورة الزخرف: [فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ] (89).

سورة الدخان: [فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ] (59).

سورة الأحقاف: [فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ] (35).

بعد أن عرضنا العوامل المشتركة بين هذه السور، يبقى السؤال: ما هو الهدف

والمحور المشترك بين هذه السور؟

بين الدعوة والمواجهة

هذه السور موجودة في المصحف بعد سورة غافر وقبل سورة محمد، وهو نفس ترتيب نزول هذه السور (إذ أنها جميعاً سور مكية نزلت بعد غافر، وطبعاً كلها نزلت قبل سورة محمد التي هي سورة مدنية). وإذا تأملنا أهداف السورتين اللتان تحيطان بسور الحواميم، وجدنا أن سورة غافر تتحدث عن أهمية الدعوة إلى الله، بينما سورة محمد تتحدث عن أهمية القتال في سبيل الله ونصرة الدين... أي أن هذه السور بمحملها هي بمثابة مرحلة انتقالية بين الدعوة والمواجهة.

فما علاقة ذلك بالمحاور الأربعة التي ذكرناها، والتي تشمل قيمة القرآن وبني إسرائيل ووراثة الكتاب منهم وأهمية الوحدة والصفح والإمهال؟

واجبات ومحاذير

إن محور هذه السور هو تنبيه الأمة إلى أنها أصبحت مسؤولة عن القرآن، عن منهج الله تعالى على هذه الأرض، وبالتالي هناك واجبات ومحاذير، وهناك نقاط أساسية وخطيرة تؤهلك لتكون مسؤولاً عن هذه الأرض...

ولهذا بدأت كل السور بالحديث عن قيمة هذا القرآن، كما تحدّثت عن موسى وبني إسرائيل وانتقال الكتاب منهم إلى أمة محمد ﷺ. وكذلك، كل سورة من هذه السور تحدّثت عن الوحدة وعدم الفرقة، لأنّ ضياع بني إسرائيل والأمم السابقة كان سببه الفرقة. وتحدّثت عن الصفح والإمهال لأنّها في مرحلة عرض الكتاب والتمسك بالكتاب، (بين الدعوة والمواجهة)، فكان الصفح عن الآخرين مطلوباً حتى يعرض عليهم الكتاب عرضاً صحيحاً... بعد أن استعرضنا المحاور العامة والأهداف المشتركة لسور الحواميم، تعالوا نعيش مع كل سورة من هذه السور، لنرى كيف تخدم كل واحدة منها الهدف المشترك:

"أنتم مسؤولون عن هذه الأرض، فهناك واجبات ومحاذير".

سورة فصّلت

وأول هذه الواجبات المطلوبة من الأمة المحمدية: أن تعي هذا القرآن، وأن تتلقاه بالحفظ والرعاية والفهم... فما علاقة هذه السورة بالهدف العام الذي ذكرناه؟

إن سور الحواميم - كما رأينا - تمثّل مرحلة انتقالية من الدعوة إلى المواجهة، ولذلك كانت أول سورة في هذه السلسلة تبين وضوح رسالة الله تعالى إلى البشرية، وتفصيلها وتيسيرها للناس. وهذا ما نستنتجه من اسم السورة [فصّلت]، الذي أشارت إليه الآية المحورية في بداية السورة: [كِتَبٌ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (3).

حسن الاستقبال

سورة فصّلت تتحدث عن أهمية الاستقبال السليم لأوامر الله تعالى. فلكي تنتقل أي رسالة إلى مستمعيها بشكل سليم، لا بد من سلامة جهازي الإرسال والاستقبال، بالإضافة إلى وضوح اللغة المستخدمة. وهذا ما بينته الآية الأولى من

السورة: [كِتَبُ فَصَلَّتْ ءَايَتُهُ].

ونرى هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى (الآية 44): [وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فَصَلَّتْ ءَايَتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ]... لتوضح لنا السورة من
سيستفيد من هذا القرآن: [قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً]. وكأنها تقول
للكفار: ألا تفهمون أن المشكلة فيكم وفي جهاز استقبالكم [وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى].

لذلك تأتينا السورة بعد ذلك بصفات المستقبل السليم لأوامر الله تعالى [إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا]
(30) فحسن الاستقبال يتطلب إيماناً بالله أولاً ثم استقامة على طاعته ويعينك
على حسن استقبال أوامر الله، الدعوة إلى الله والأخذ بيد الناس إلى طريق الله:
[وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ] (33).

سوء استقبال الوحي

وبالمقابل، ترينا السورة كيف أن الكثير من الناس يهتمون لمصلحتهم فقط، حتى في
علاقتهم مع الله تعالى، وهذا من أخطر الأمور التي تصرف عن الاستقبال السليم
لآيات الله وقضائه وقدره: [لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ
فَيُؤَسِّ قَنُوطٌ & وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي...]
(49-50) [وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ..] (51).

ورغم كل هذه الشواغل التي هي من طبيعة البشر، سيبقى جهاز الإرسال
سليماً، وستبقى آيات الله الدالة على عظمته واضحة للأعين، فتأتي الآية الرائعة في
بيان ذلك [سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ..] (53). من فضلك، قبل أن تكمل قراءة سور الحواميم، أصلح نفسك
وجهاز استقبالك، حتى تستفيد من هذه الواجبات والمحاذير التي تحتاجها خلال
مسؤوليتك عن أرض الله...

سورة الشورى

في سورة الشورى، نرى أن المحذور هو الخلاف والفرقة، والواجب الذي يحمي من الوقوع في الخلاف هو الشورى. هذا هو محور سورة الشورى ببساطة شديدة...

نعم للاختلاف... لا للخلاف

ومن لطف السورة، أنها تحدثت عن الاختلاف بواقعية، وقررت أن الأصل في الناس أنهم سيختلفون ولا مشكلة في ذلك، كما نرى في قوله تعالى: [وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ] (10)... لكنها حين تحدثت عن الفرقة، حذرت منها بشدة [أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] (13) وعابت على من وقع فيها من الأمم السابقة [وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ] (14).

فالسورة تقرّر أن الخلاف أمر طبيعي ومنطقي لأنه من المستحيل أن يجتمع الناس على رأي واحد في كلّ المسائل، لكن المرفوض هو الفرقة والنزاع، لذلك تكرر ذكر كلمة الفرقة في السورة أربع مرات). فما هو الحل لضمان الوحدة رغم تعدد الآراء؟ إنها الشورى، التي إن حافظنا عليها في كل أمور حياتنا، في بيوتنا ومع أولادنا، وفي شركاتنا ومؤسساتنا، حافظنا على أمتنا من التفرق كما جرى مع الأمم السابقة..

سورة الزخرف

سورة الزخرف تؤكد على المعاني الأساسية في الحواميم، وتنبه من أحد المحاذير التي تضيع مسؤوليّة الحفاظ على الكتاب. هذا المحذور واضح من اسم السورة: الزخرف، أو الاغترار بزخرف الدّنيا ومظاهرها الخادعة...

لذلك فالسورة تسلط الضّوء على المظاهر المادّية وعلى الناس الذين يبنهون بها، لأنها من أخطر أسباب ضياع الرّسالة... وبالمقابل تؤكد على أن الزخرف الحقيقي والنعيم الحقيقي ليس في الدنيا، بل في الجنة التي وعد بها المتقون.

متاع الحياة الدنيا

ولذلك تكرر في السورة ذكر الذهب والفضة أكثر من أي سورة أخرى. هذه المظاهر لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة لحرم منها أهل الكفر... لكن لهوائها على الله كان من الممكن أن يمنح أهل الكفر منها الكثير، لكن الله لم يفعل ذلك لكي لا يفتن المؤمن بهم ويسلك سبيلهم. اسمع معي الآيات:

[وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ & وَلِیُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ & وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ] (33 - 35).

الزخرف الحقيقي

وفي مقابل حديث السورة عن متاع الدنيا وتزهد الناس منها، تأتي السورة بالزخرف الحقيقي: الجنة وما أعد الله فيها للمتقين: [أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ & يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (70 - 71).

وكان المعنى: لا تنبهروا يا مؤمنين بزينة الدنيا ولا تنخدعوا بمتاعها، لأن متاع الآخرة الذي أعد الله للمتقين أهم وأعظم.

قصور النظر

وتمضي السورة في انتقادها لمن يقيس الأمور اعتماداً على الأشكال والمظاهر، فتقول عن المشركين: [وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ] (31) فهم رفضوا القرآن لا لذاته وإنما لأنه لم ينزل على الأشراف الأغنياء وأصحاب الجاه، لذلك ترد عليهم الآية التالية: [أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ...] (32)

ولأسف نرى كثيراً من الناس يستعملون نفس المنطق الذي استعمله الكفار في الآية السابقة، فيرفضون التدين خوفاً على بعض المظاهر التي اعتادوا عليها، أو

يأنفون من التعامل مع المتدينين... لكل هؤلاء نقول: إقرأوا سورة الزخرف، ولا تجعلوا زخرف الدنيا حاجزاً بينكم وبين التدين...

وتمضي الآيات في عرضها لمتاع الدنيا: [أَوْ مَن يُنَشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ] (18) ثم الآية التي بعدها: [وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا] (19) والإناث هي إشارة إلى الأمور المادية التي يسعى المرء وراءها...

فرعون والمظاهر المادية

وهذا فرعون، أراد تكذيب موسى عليه السلام، فاغتر بقوته المادية [أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ] (51). وكانت نظرته إلى سيدنا موسى نظرة مادية [أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ & فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ...] (الزخرف: 52 - 53). فلقد غرق فرعون في المظاهر المادية، حتى أنه طلب أن يأتيه موسى بأسورة من ذهب من السماء، وكأن هذه الأسورة هي التي ستجعله يؤمن بالله...

عيسى بن مريم: رمز الزهد

وفي مقابل نموذج فرعون، ذلك الرجل الذي أعمته الحياة الدنيا بماديتها، يأتي نموذج معاكس تماماً، سيدنا عيسى عليه السلام: [وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ] (57).

كان هذا النبي الكريم قدوة لبني إسرائيل في الزهد والتخفف من زخرف الدنيا:

[إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ] (59).

فماذا كانت رسالته؟ نلاحظ أن هذه الرسالة شملت محورين متعلقين بسور

الحواميم:

- [وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ...] (63) هذه

الحكمة هي البديل عن كل هذه المظاهر التي كان قومه يهتمون بها. (موافقة لهدف سورة الزخرف).

- [وَلَا بُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ] (63) (موافقة لهدف سورة الشورى في الوحدة وعدم التفرق).

حذار من الزخرف

إنّ سورة الزّخرف - من خلال إرشاد المسلمين إلى مسؤوليتهم عن القرآن - تحذّرهم من أنّهم لو تعلّقوا بالمظاهر المادّيّة فلن يفلحوا... وهل تخلّفت أمّتنا في هذا العصر إلّا بسبب تعلّقها بالمظاهر المادّيّة وانبهار أفرادها بحضارة الغرب المادّيّة!

وتحذر السورة أيضاً كل من يختار أصدقائه وفقاً للمظاهر المادّيّة: [الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ] (67).

ويأتي التعقيب بعد كلّ هذه الآيات بقوله تعالى [وَأِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ] (44). فهذا هو الشرف الحقيقي والعز الرباني، إنه في التمسك بالقرآن والعمل بتعاليم الإسلام. وهذه الآية ترينا تماماً كيف ينضوي هدف سورة الزخرف تحت الهدف العام للحواميم: "إياكم وطلب العزة بالمظاهر المادية، واستمسكوا بالقرآن الذي هو رفعتكم وعزّتكم".

سورة الدخان

بعد أن حذرت سورة الزخرف من متاع المظاهر المادية، وخطورة الانبهار به على مسؤولية الأمة عن القرآن وعن الدين، تأتي سورة الدخان بمعنى مماثل: التحذير من المظاهر المادّيّة، لكن من ناحية السّلطة والتمكين..

فناء الظالمين في الدنيا

فترى فيها آيات شديدة، تعقب على فناء الظالمين وكل من سار سيرهم:
**[كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ & وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ & وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا
فَكَهِينٍ & كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ & فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ]** (25 - 29).

وبينما بيّنت سورة الزخرف أن سبب تكذيب فرعون كان المظاهر المادية،
حددت سورة الدخان سبباً آخر لتكذبه: اعتماده على الجاه والسلطة، **[إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ]** (31).

عذاب الظالمين في الآخرة

وتصوّر لنا السورة مشهداً رهيباً من مشاهد القيامة: عذاب كل من أهته القوة
والسلطة فأنسته طاعة الله: **[إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ & طَعَامُ الْأَثِيمِ & كَالْمُهْلِ يَغْلِي
فِي الْبُطُونِ & كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ..]** (46).

إلى أن نصل إلى قوله تعالى: **[ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ]** (49)، آية
رهيبة تحدد بوضوح أن هذا العذاب هو لمن اعتز بقوته وجبروته في الدنيا وحاد عن
طريق الله.

سورة الجاثية

ثم تأتي سورة الجاثية إلى المسلم الذي حمل الأمانة وحمل القرآن، لتحذّره من
التكبر والتعالي.

**[وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ & يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلِّيٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ & وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ]** (7 - 9).

فالتكبر يضيع الرسالة في الدنيا، ويحرم صاحبه من التعرف
على الحق:

[وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ] (31).

لذلك يقول النبي ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".
ولذلك سميت السورة بسورة الجاثية، لتذكرنا بالأمم التي استكبرت في الدنيا،
والتي تعلقت بالمظاهر والتي اعترت بالسلطة، وتصف لنا ذلها يوم القيامة: [وَتَرَىٰ
كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (28).
ولأن المتكبر ينازع الله تعالى في صفة من صفاته، تختم السورة بآية تَهَزُّ كل من
في قلبه هذه الصفة الخطيرة: [وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ] (37).

سورة الأحقاف

وتأتي سورة الأحقاف لتختتم الحواميم بطريقة رائعة:

فبعد أن عرضت السور السابقة المنهج القرآني، تأتي سورة الأحقاف لتقول أن
هناك من سيستجيب لهذا المنهج، وهناك من سيرفض. فتعرض نماذج متناقضة:
فهناك أناس لم يستجيبوا لله تعالى، وهم قوم عاد [وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ
قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ..] (21).

فكان تكذيبهم شديداً [قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنِ آلِهَتِنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا...] (22) وحتى لما رأوا العذاب: [قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا]
(24).

حتى الجن ... استجابوا

أما الذين سمعوا النداء واستجابوا له، فهم ليسوا حتى من البشر، إنهم من
الجن: [وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ] (29) أمر عجيب،
يعلمنا أن الاستجابة والهداية ليست بيد أحد من البشر، إنما هي من الله تعالى.

فماذا قالوا لما سمعوا النداء؟

[... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ] (29) ثم [قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى...] (30) حتى الجن أتوا على ذكر موسى، وأكدوا على قيمة القرآن ووراثته للمسلمين له، (أرأيت الترابط بين السور؟).

ثم يقول الجن: [يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ..] (31)، بعد الإمهال والأمر بالصفح في كل سور الحواميم، تأتي سورة الأحقاف في ختامها لتقول: [يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ].

الاستجابة للوالدين

وتعرض السورة نموذجين لنوع آخر من أنواع الاستجابة: بر الوالدين. فنرى نموذجاً صالحاً:

[.. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ...] (15) وبالمقابل، يأتي نموذج رهيب للعقوق وعدم الاستجابة [وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبَلَغَ مِنْهُ إِتْمَانًا وَوَعْدَ اللَّهِ حَقًّا] (17).

تدرج السور وعلاقتها ببعضها

في الختام، لا بد من التأكيد على الإمهال والصفح في سور الحواميم. فهذه السور - كما قلنا - أتت بين سورة غافر التي ركزت على الدعوة إلى الله، وبين سورة محمد التي هي سورة القتال، لذلك نرى أن آيات الصبر والإمهال تزداد في السور كلما اقتربنا من نهايتها.

فسورة الزخرف كان فيها قوله تعالى: [فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ] (89)، بينما نرى المعنى أوضح في سورة الدخان، ففي بدايتها: [فَارْتَقِبْ
يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ] (10) بينما في نهايتها: [فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ]
(59).

صبر... مواجهة... ثم فتح وانتصار

وكأن الحواميم كانت آخر سور الإمهال للكافرين [فَاعْتَرِلُونِ]... [قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] (الشورى، 23)... [يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا
دَاعِيَ اللَّهِ] (31).

إلى أن تأتي آخر آية في سورة الأحقاف: [فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ
الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ] (35) التي كانت آخر أمر بالتحمل.

ثم السورة التي تأتي بعدها هي سورة محمد التي تعرف بسورة القتال، ثم تأتي
سورة الفتح لتقول: أتى الانتصار أخيراً: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا].

نسأل الله تعالى أن يكون قراء القرآن قد أحبوا هذه السور الست، سور
الحواميم، وأن يبدأوا بحفظها وملاحظة ترابط آياتها وأهدافها...

سور محمد، الفتح، الحجرات

هذه السور الثلاث، سور مدنية، تدور كلها حول محور واحد، هو النبي ﷺ ... الإيمان به وطاعته والأدب معه عليه الصلاة والسلام.

سورة محمد

عدد آيات هذه السورة الكريمة 38 آية، يتكرر الحديث عن قبول العمل أو إحباط العمل اثنا عشر مرة، وفي كل مرة من هذه المرات، تربط الآيات هذا المعنى بطاعة الله وطاعة الرسول، كقوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ...] (33).

ومن هنا نستخلص محور السورة: "طاعة النبي ﷺ واتباعه هما مقياس قبول الأعمال وإحباطها". معنى غالي ومهم، استشعره وأنت تقرأ هذه السورة الكريمة، واسأل نفسك: أين أنا من سنة النبي ﷺ وعبادته وأخلاقه...

الطاعة ميزان الإتياع

ولهذا سميت السورة باسم النبي ﷺ، حتى تعلم أيها المسلم أن اتباعك لسيد الخلق محمد ﷺ هو مقياس قبول الأعمال أو ردها، لأن كل طريق غير طريق النبي ﷺ (أي غير سنته) مغلق ومظلم. فإذا أحببت الاطمئنان على عملك، فاختر طاعتك للنبي ﷺ واتباعك لسنته، لأن هذا هو ميزان الإتياع.

تعالوا نعيش مع آيات السورة، ونتعلم اتباع نبينا ﷺ...

[الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ & ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ] (1) - (3) ...

ثم: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ & ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] (8 - 9) ...

أرأيت الترابط والتلازم بين المعنيين؟

ويأتي قوله تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] (19) لأن الاستغفار وكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هما ضمان قبول الأعمال إن شاء الله.

فأولى لهم طاعة وقول معروف

لذلك تأتي آية محورية في وسط السورة: [فَأُولَى لَهُمْ & طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ] ... (20 - 21)، فأولى لهؤلاء الكفار - حتى تقبل أعمالهم - طاعة النبي ﷺ، والقول المعروف.

ثم: [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] (28) ...

وتأتي آيات كثيرة لتكرر نفس المعنى:

[وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ] (30) ...

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ] (33).

[فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ] (35) ...

فكأن السورة تقول لنا: يا أمة محمد، اعلّموا أن كل طريق غير طريق محمد ﷺ هو ضلال. يقول الإمام أحمد بن حنبل: "نظرت في القرآن، فرأيت أن طاعة الرسول قد أتت في القرآن 33 مرة". ثم قرأ قوله تعالى: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ].

أين أنت من قوله تعالى: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...] (الأحزاب، 36) أين أنت من قوله تعالى: [فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] (النساء، 65).

وهكذا نرى أن آيات سورة محمد تنضم إلى الكثير غيرها من آيات القرآن في تأكيد إتباع النبي ﷺ...

الطاعة في الجهاد

هذه السورة الكريمة سميت بسورة القتال، لذكر القتال فيها، فما علاقة ذلك بهدف السورة؟

إن أصعب ما يطاع فيه النبي ﷺ هو القتال، وكأن السورة تؤكد أن الجهاد في سبيل الله هو من أهم دلائل الإتياع... وليس هذا فحسب، بل أن الأمر بالقتال هو ابتلاء وامتحان رباني [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ] (31). لذلك تذكر لنا مواقف مختلفة (المؤمنين والمنافقين) من هذا الابتلاء: [وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ] (20).

الطاعة في الإنفاق

وهكذا تكون رسالة السورة واضحة: اتبع نبيك ﷺ في كل أمور حياتك، خاصة الجهاد في سبيل الله. سواء أكان هذا الجهاد قتالاً في ساحة المعركة، أو

جهاداً للنفس في سبيل إصلاحها ومحاربة شهواتها.

ولأن الإنفاق هو من أول متطلبات الجهاد، نرى أن آخر آية في السورة تحث على الإنفاق وتحذر من البخل بشكل شديد: [هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ] (38).

الختام: إياكم والاستبدال

بعد أن وجهت السورة للكفار كلاماً شديداً في تحذيرهم من عصيان أمر النبي، اختتمت بخطاب المؤمنين، فماذا قالت لهم؟

وجهت لهم خطاباً مختصراً لكنه صعب على النفوس المؤمنة [وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ] (38).

هذا القانون هو من أخطر القوانين وأقساها، فإن تولى المؤمنون عن نصره النبي واتباع أوامره، فإن العقاب شديد، والنتيجة خطيرة: "الاستبدال"، فيأتي الله تعالى بقوم آخرين لينصروا هذا الدين، وتكونوا قد خسرتم خساراً كبيراً. هؤلاء لن يكونوا مثلكم، بل سيكونوا أفضل منكم [... ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ] (38).

سورة الفتح

وتجسد سورة الفتح هذا الإتيان، فهي نزلت بعد صلح الحديبية، في ظروف إحباط شديد للصحابة.

نزلت والنفوس جريحة

ففي السنة السابعة، وبعد غزوة الأحزاب، كان الصراع على أشده بين المسلمين والمشركين.

ورأى النبي في الرؤيا أنه يدخل المسجد الحرام، فتجهّز مع الصحابة للذهاب

إلى مكة معتمرين غير مقاتلين. لكنهم لما وصلوا إلى الحديبية، رفض المشركون السماح لهم بالدخول إلى مكة، فقرر النبي ﷺ عقد صلح مع مشركي مكة، والذي عرف فيما بعد بصلح الحديبية.

لكن بنود هذا الصلح كانت مجحفة بحق المسلمين، فحزن الصحابة حزناً شديداً لقبول النبي بها، وزاد من حزنهم أنهم منعوا من دخول البيت الحرام لأداء العمرة، ومنعوا من قتال المشركين..

وشعروا أنهم يعطون الدنيا في دينهم... في مثل هذا الوقت العصيب، نزلت سورة الفتح...

تَحِيلَ نَفْسَكَ مَكَانَ الصَّحَابَةِ.. تَمَيِّ النَّفْسِ بِالْعِمْرَةِ...

سعادة النبي بها

وهدف السورة نعرته من اسمها، فهي سورة الفتوحات والتجليات الربانية والكرم الرباني على هذه الأمة، نزلت لتعدد الفتوحات التي سيفتح الله بها على المسلمين... حتى أن النبي فرح بها فرحاً كبيراً، وقال: "نزلت عليّ سورة هي خير عندي من الدنيا بما عليها". قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: "سورة الفتح"... تعال معنا لنقرأ هذه السورة ونفرح بها كما فرح حبيبنا محمد ﷺ.

سورة الفتوحات الربانية

سورة الفتح هي عبارة عن 29 آية، لكن عدد الفتوحات الربانية التي جاءت في السورة كبير بالمقارنة مع عدد آياتها، إحدى عشر فتحاً ونعمة وفضلاً من الله بها على المؤمنين في هذه السورة:

1. مغفرة الذنوب: [إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا] [لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...] [(1 - 2).

2. إتمام النعمة: [... وَيُتِمِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ...] (2).

3. الهداية: [... وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا] (2).

4. النصر: [وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا] (3) (فأتت المغفرة قبل النصر).
5. إنزال السكينة في قلوب المؤمنين: [... أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ...] (4).
6. دخول الجنة: [لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا...] (5)
7. فضح المنافقين والمشركين وتعذيبهم: [وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوَاءِ...] (6).
8. رضى الله على المؤمنين: [لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ...] (18).
9. المعانم: [وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا...] (20).
10. الوعد بدخول المسجد الحرام: [لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ...] (27).
11. الأمن والسلام [لَا تَخَافُونَ] (27).
12. إظهار الإسلام: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ...] (28).

وهذه البشارة الأخيرة لم يبشر بها الصحابة من قبل، فكانت سورة الفتح هي التي حملت البشرية الغالية على المؤمنين، أن الإسلام سيظهر على الأرض كلها ويقود الدنيا كلها

الثناء على الصحابة

وهذه السورة هي أكثر سور القرآن ثناءً على الصحابة رضوان الله عليهم، بالرغم مما بدر منهم من عدم الرضا على صلح الحديبية في بادئ الأمر، لكن الله تعالى علم أن غضبهم لم يكن لأنفسهم، لكنه كان غضباً لله ولدينه.

إسمع معي الآيات: [إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...] (10).

فلم استحق الصحابة كل هذه الفتوحات وهذا الشاء؟

تجيب الآية 18 عن هذا السؤال: **[لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا]** (18)... وذلك أنه حين أشيع مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه، أخذ النبي البيعة من أصحابه على القتال ثأراً له، فبايعوا على الموت في سبيل الله. فحين وصلوا إلى هذا الإخلاص بأن يقدموا أرواحهم فداءً لدين الله، أنزل الله عليهم فتحاً قريباً.

من صور الفتح

وإذا تأملنا في كلمات السورة، نرى ملاحظات عديدة. فالآية السابقة سمت صلح الحديبية فتحاً، مع أن ظاهره كان غير ذلك، لدرجة أن سيدنا عمر بن الخطاب سأل عند نزول السورة: "أفتح هو؟ فأجيب: "يا عمر، إنه لفتح". وأعجب من ذلك، أن القرآن لم يسم غزوة بدر بأنها فتح.. بل سمى الصلح فتحاً..

وفوق ذلك كله، تكررت كلمة الفتح في السورة أربع مرات (لتكون هذه السورة أكثر سور القرآن ذكراً لكلمة الفتح، رغم أن عدد آياتها 29 آية فقط) وليس هذا فحسب، فقد وصف بصفات أخرى: **[نَصْرًا عَزِيزًا]** وسماه مرتين: **[فَتْحًا قَرِيبًا]**.

ولم تقتصر الآيات على الفتح، بل أعقبته بـ **[مَغَانِمَ كَثِيرَةً]** حيث ذكرت هذه المغانم مرتين.

أرى أنك بدأت تردد نفس سؤال سيدنا عمر: أين هو الفتح؟

كان هذا الفتح زيادة انتشار الإسلام بشكل قوي، لأن عدد الذين دخلوا في الإسلام بعد صلح الحديبية (في عامين فقط) كان أضعاف عدد الذين أسلموا قبل الفتح طوال عشرين سنة من الدعوة.

فمع أن الصحابة أرادوا القتال واستعدوا له، لكن الآيات أظهرت أن الفتح

الحقيقي كان انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، لأن أكثر جو ينتشر فيه الإسلام ويقتنع فيه الناس كلهم هو جو السلام، وهذا من عظمة هذا الدين، ومن شهادة التاريخ له بأنه دين السلام، وأن أكثر فترات انتشاره كانت فترات السلام لا الحرب، ومن هنا نفهم تكرر كلمة "السكينة" في السورة ثلاث مرات...

صفات أهل الفتح

وتأتي آخر آية في السورة، لتخبرنا صفات أولئك الذين استحقوا نزول الفتح

الرباني

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا] (29).

ومن أهمية الآية أنها عندما ذكرت الذين يستحقون الفتح في التوراة، مدحتهم بعبادتهم لله تعالى [... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ...]. أما في الإنجيل، فهم أولئك الذين يجتهدون في العمل وينجحون في الحياة [... كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ...]. وذلك لأن اليهود قد غلبوا الجانب المادي على الجانب الروحي، بينما غلب النصراني أمور الروح على المادة. فأتت هذه الآية لتظهر أن الأمة التي تستحق الفتح الرباني هي التي تجمع الجانبين الروحي والمادي ولا تغلب جانباً على آخر، وبهذه الصفات استحق الصحابة الفتح...

ومن روعة سورة الفتح، أن النبي قرأها عند دخوله مكة فاتحاً منتصراً، إلى أن وصل إلى آخر آية، فقرأها فرحاً بنصر الله، وقرأها معه الصحابة وهم يبكون، لما رأوه من تحقق نصر الله ووعدده لهم بالنصر والتمكين... سورة رائعة من أروع السور، تجعلنا نعيش مع النبي ومع الصحابة لحظات فتح مكة، ونستبشر بنصر الله لنا، إذا اتبعنا محمداً ﷺ وأصحابه بصفاتهم التي ذكرت في الآية الأخيرة...

بين سورتى محمد والفتح

هذه السورة - كما ذكرنا - هي تنمة طبيعية لسورة القتال (سورة محمد)، إذ أنها تحدثت عن النصر والتمكين، اللذان هما نتيجة القتال والجهاد في سبيل الله. واللطيف أننا إذا تأملنا ختام السورتين فإننا سنجد ترابطاً رائعاً:

فسورة محمد ختمت بقوله تعالى: [... وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ] (38)، فما هي مواصفاتهم؟ تأتي الإجابة في ختام سورة الفتح: [مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ...] (29).

وهكذا، نرى أن سورة محمد تحدثت عن إتباع النبي، بينما سورة الفتح بينت صفات أتباع النبي...

سورة الحجرات

تحدثت سورة الحجرات عن أدب العلاقات، وخاصة أدب العلاقة مع النبي .ρ

وهكذا نفهم تسلسل السور الثلاث وعلاقتها مع بعضها، وكيف أن النبي ρ هو محورها:

فسورة محمد تبين أن إتباع النبي هو دليل قبول الأعمال، وسورة الفتح: مواصفات الذين سينزل الله عليهم الفتح: [مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...]. وسورة الحجرات: يا من سينزل عليهم الفتح، تأدّبوا بالآداب الاجتماعية، خاصة مع النبي .ρ

وكأن الصفات التي ذكرت في آخر سورة الفتح، من تضحية وجهاد، وتوازن بين العبادة والنجاح في الحياة، لها تكملة في سورة الحجرات، وهي الصفات الأدبية الخلقية التي ذكرتها سورة الحجرات.

مع الشرع:

إذاً سورة الحجرات هي سورة الذوق والأدب مع كل الأطراف: وأول هذه الأدبيات هو مع شرع الله سبحانه وتعالى...

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (1).

فهذه الآية تقول للصحابة: لا تستعجلوا نزول الوحي، وتأدبوا مع الشرع ومع الله ورسوله.

وتطبيق الآية في حياتنا يقتضي منا الخضوع لشرع الله وسنة نبيه ﷺ ولا نتجاوزهما.

مع النبي

1. [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ] (2).

2. [إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى...] (3).

[إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ & وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ] (4 - 5).

مع الأخبار

وذلك بعدم نقلها وترديدها وبناء أحكام مسبقة عليها قبل التأكد منها:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ] (6).

مع المؤمنين

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...] (10) فأخوة الإيمان تقوي روابط الناس مع بعضهم وتوثقها كما تقوي الإيمان، وبغيرها تحصل الخلافات وينقص الإيمان..

إصلاح ذات البين

[وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...] (9).

مع العلاقات الاجتماعية

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (11).

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...] (12).

مع الإنسانية كلها

[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ...] (13).

امتثلوا حتى تفيضوا

والملاحظ أن أدب التعامل مع الإنسانية تأخر، مع أنه أعم وأشمل من الآداب الأولى. وكان المعنى: بعد أن تصلحوا أنفسكم وتضبطوا علاقاتكم مع نبيكم ومع إخوانكم، أخرجوا إلى العالم الخارجي، وانطلقوا إلى الأرض كلها وعرفوها على أخلاقكم، لأنكم بذلك تنالوا احترام الناس بهذه الصفات وهذه الأخلاق التي امتلأتم بها ففاضت على غيركم.

أدب التعامل مع الله

وهو آخر آداب السورة.. ويتحقق باستشعار نعمة الإيمان وأنه عطاء ومنحة من الله، فلا يظن أحد أن إيمانه تفضل منه على ربه، بل أن الله تعالى هو صاحب

الفضل والمنة: [يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْتُونَا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (17).

لماذا سميت السورة بالحجرات؟

لأن بعض الناس كانوا ينادون النبي من وراء الحجرات، وهذا من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ. وبما أن أهم محور في الآداب السابقة هو النبي ﷺ، سميت السورة بهذا الاسم، حتى يعلم المسلمون أنهم لا يقدرّون أن يخرجوا إلى العالم كله بأخلاقهم ويتعارفوا مع باقي الشعوب قبل أن يتأدبوا مع نبيهم..

لذلك بدأت السورة بالأدب مع النبي ﷺ، وانتهت بالأدب مع الله، وكأن المعنى: تأدبوا مع الرسول وأطيعوه، فتكون النتيجة أن يعينكم الله تعالى على ما بينهما من آداب، لتخرجوا بأخلاق سورة الحجرات وذوقياتها إلى الدنيا كلها.

إذا أردت أن تقوي صلتك برسول الله ﷺ، فاقرأ هذه السور الثلاث، محمد والفتح والحجرات، واسأل الله تعالى أن يمن عليك ويفتح لك بالمعاني الرائعة التي احتوتها هذه السور.

سور ق وسور الجزء السابع والعشرين

هذه السور هي بداية المفصل من القرآن، من أول سورة ق وحتى نهاية المصحف...

ونلاحظ أن الأجزاء الأربعة الأخيرة من المصحف تركز على إحياء الإيمان في نفوس المؤمنين، مما يساعدنا على فهم تسلسل السور في القرآن. ففي البداية، عرض القرآن هذا المنهج الرباني، من أول سورة البقرة إلى سورة الأنفال. وبعد ذلك، ركزت السور على الأدوات التي لا بد للمسلم من القيام بها حتى يحافظ على هذا المنهج، من الأخذ بأسباب التقدم والتطور، إلى التخلق بأخلاق الأنبياء، إلى الاستسلام لله تعالى... وأما ختام سور القرآن، فقد ركز - بشكل عام - على تقوية إيمان المؤمنين وإصلاح قلوبهم وتذكيرهم باليوم الآخر حتى يعينهم على الثبات على هذا المنهج والنهوض بأعبائه وحملها إلى البشرية كلها..

إختر بين هذين الطريقتين

وسور الجزء 27 من القرآن، بالإضافة إلى سورة ق، تجمعها قضية الاختيار، بين الهدى والضلال، وبين الجنة والنار. لذلك ترى في كل السور عرضاً للطريقتين، ودعوة إلى الاختيار بين طريق الجنة وطريق النار، بين النعم والنقم، بين الرزق وعطاء الله أو أن يجرمك الله، بين الغلو في المادية أو الروحانية أو التوازن بينهما... فكل هذه الطرق وهذه المتباينات التي ذكرناها تمثل سورة من سور هذا الجزء...

سورة ق (اليوم المشهود)

وأول سورة بين هذه السور، سورة ق، تركز على الآخرة والبعث تركيزاً شديداً، من الموت الذي هو أول منازل الآخرة: [وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ] (19) إلى النفخ في الصور، وهول هذه النفخة [وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ & وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ] (20-21).

ونرى مشاهد رهيبية من هذا اليوم وما فيه من جدال بين المفسدين وقرنائهم من الشياطين:

[وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ & أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ] (24)-

(25).

الآيات الكونية: كذلك الخروج

وحتى الآيات الكونية في السورة تخدم معنى البعث والخروج إلى أرض المحشر بوضوح... ومنها قوله تعالى [وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ & وَالنَّخْلَ بَسَقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ & رَزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا] (9-11) لماذا كل هذه الآيات؟ حتى نوقن أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يعث الموتى من قبورهم [كَذَلِكَ الْخُرُوجُ].

لصفاء قلبك

فإذا أردت أخي المسلم أن ترقق قلبك، فاقرا هذه السورة لأنها تذكر بالآخرة، ولذلك كان رسول الله ﷺ يخطب بها الجمعة وحدها دون أن يزيد عليها أي كلمة، ثم ينزل عن المنبر، بعد أن يتأثر بها الصحابة متأثراً شديداً، حتى أنهم كانوا ينتظرونها منه من وقت لآخر... ليتنا نرى هذه السنة النبوية في خطبة الجمعة تتكرر في مساجدنا...

مشاهد الفريقين

وبعد الحديث عن البعث وهول القيامة وخطر النار، ترينا السورة مصير

الفريقين، لأن هدفها هو الاختيار بينهما: [يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ] (30). آية خطيرة، فهل ترضى لنفسك أخي المسلم أن تسمع هذه الكلمات وتكون من مزيد جهنم؟ ثم تعرض الآية التي تليها مباشرة المشهد المقابل: [وَأُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ] (31). انتقال رائع، من صورة جهنم وهي تطلب المزيد من أهلها، إلى الجنة التي تقترب من أهلها وتتهيا لهم وتزين لاستقبالهم... لذلك يتردد السؤال مرة أخرى: مع أي الفريقين تحب أن تكون؟

أسباب الانحراف

وإذا تأملنا آيات السورة، نلاحظ أنها ركزت على النوازع الثلاثة التي تؤدي إلى الانحراف حتى نتجنبها ونضمن بقاء قلوبنا سليمة إن شاء الله:

1. وسوسة النفس

[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ] (16).

2. القرين (الشیطان)

[قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ بِعِيدٍ] (27).

3. الغفلة

[لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ] (22).

القلب المسلم

لذلك تركز السورة في ختامها على سلامة القلب من هذه الأمراض. فتأتي مثلاً كلمة (أواب حفيظ)، من هو هذا الأواب الحفيظ؟ [مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ] (33).. وتشير إليه مرة أخرى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ] (37).

أرأيت أهمية سلامة القلب في سلامة الاختيار بين الطريقتين؟
وتختتم السورة بأفضل وسيلة مساعدة لإصلاح القلب والاختيار: القرآن:
[فَدَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ] (45) فهذا القرآن، وبالأخص سورة (ق)
والسور التي تأتي بعدها، هو طريق سلامة القلب... فاقراً أخي المسلم هذه السور
واحفظها بنية سلامة القلب.

ومن هنا نفهم لماذا بدأت السورة بالقسم بالقرآن، لأنه أكبر معين على
سلامة القلب وبالتالي حسن الاختيار بين الطريقتين. وبالمناسبة، لا بد أن نذكر أن
سور ق والذاريات والطور والنجم قد بدأت كلها بالقسم، واللطيف أن أهداف
هذه السور متعلقة بالآيات التي فيها قسم، كما رأينا في سورة ق...

سورة الذاريات (ففرؤا إلى الله)

وتركز سورة الذاريات على أن الرزق بيد الله، وأن العطاء والمنع بأمر من الله،
وذلك في الدنيا والآخرة.. فإذا انحرفت عن طريق الله وطاعته، فأين ستذهب؟ أي
أرض ستقلك؟ وأي سماء ستظلك؟.. لذلك نرى في بداية السورة قسماً بأربعة
أمور:

والذاريات ذرواً: وهي الرياح الشديدة التي تفتت السحاب فتمنع نزول المطر
فالحاملات وقرأ: هي رياح شديدة أيضاً، لكنها تجمع السحاب فتسبب نزول
المطر، فهي عكس الذاريات تماماً. وهكذا نرى أن السورة ابتدأت بآيتين، تمثلان
العطاء والمنع في الرزق، وكأنها تقول لك أيضاً: اختر بينهما...
ففي سورة ق، كانت رسالة السورة: الجنة اقتربت، والنار تنادي على أهلها،
فاختر بينهما.

أما في سورة الذاريات فالرسالة واضحة: العطاء والمنع بيد الله تعالى، لذلك
سميت السورة بهذا الاسم حتى تتذكر أن الله تعالى سيمنعك الرزق ويرسل عليك
الذاريات إن أعرضت عن طريق الله.. أرأيت روعة القرآن ووضوح آياته؟

ونتابع مع القسم الذي ذكر في بداية السورة:

فالجاريات يسراً: هي السفن التي تجري في البحر بأرزاق العباد

فالمقسمات أمراً: هي الملائكة التي تقسم الرزق بين العباد

وكأن هذا القسم يسألك أيها الإنسان: من هو المعطي والنافع؟ ومن هو النافع والضار؟ إن الذي أمر الملائكة بتقسيم الأرزاق، وأمر الرياح أن تجمع السحب أو أن تفتتها، ودبر للعباد أقواتهم وحوائجهم، هو أولى بأن نختار طريقه على ما سواه، لأن وعده حق، ولقاءه حق، والجنة حق، والنار حق: [وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوْا & فَأَلْحَمِلْتِ وَقِرًا & فَأَلْجَرِيَّتِ يُسْرًا & فَأَلْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا & إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَدِقٌ & وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ] (1-6)..

ففرؤا إلى الله

وكما بدأت السورة بذكر أسباب الرزق التي هي بيد الله تعالى، فإنها تطمئن المؤمنين أن رزقهم محفوظ في السماء ولن يضيع منهم، [وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ & فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ] (22-23).. ألم تصدق بعد... حتى بعد كل هذا القسم من الله تعالى؟ اسمع إذا الآية [وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ & وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ & وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (47-49)... بعد أن أيقنت أن العطاء والمنع بيد الله، [فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ] (50) آية رائعة ومحورية في السورة... فرؤا إلى الله يا مؤمنين.. إجلأوا إليه واختاروا طريقه..

لذلك تأتي آيات كثيرة بنفس المعنى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] (56) هذا هو الهدف الأساسي من خلقك، أن تختار طريق العبودية لله. وبعد ذلك [مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ & إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ] (58).

أرأيت كيف تدور سورة الذاريات في كل آياتها حول نفس المحور: اختر طريق

الله لأن الله هو الرزاق...

كرم إبراهيم لثقتة بكرم الله

وحتى قصة إبراهيم التي أتت في السورة مناسبة لجو الرزق. ففي هذه القصة، نرى بشارة الملائكة لزوجته - رغم كبر سنها وعقمها - برزق من نوع جديد: الولد. وكان السورة تحدثت عن الرزق من جميع جوانبه، اسمع قوله تعالى: [فَأَقْبَلَتِ أُمْرَاتُهُ فِي صَرَوةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ] (29) فتعجبت أن تلد في هذه الظروف، لكن الملائكة قالت لها: [كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ] (30).

وحتى كلمات القصة نفسها تخدم هذا المعنى، فنرى فيها كرم سيدنا إبراهيم [هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ & إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ & فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ] (24-26) فتلاحظ من هذه الآية سرعة إبراهيم في إعداد الضيافة [فَرَاغَ] بالإضافة إلى كرمه في كلمة [بِعِجْلٍ سَمِينٍ] التي لم تأت في القرآن إلا هنا... فكأن المعنى: ثق بأن الله هو الرزاق، وثق بالكرم الإلهي، وكن كريماً...

سورة الطور (كل امرئ بما كسب رهين)

وامتداداً لقضية الاختيار، تركز سورة الطور على أن مصير كل إنسان في الآخرة رهن بما كسب وعمل في الدنيا، لذلك كانت الآية المحورية فيها هي قوله تعالى: [كُلُّ أَمْرٍءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ] (21).

فالملكذبون سيلاقون مصيرهم: [فَوَيْلٌ لِلْمُكْذِبِينَ & الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ & يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً & هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ & أَفْسَحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ & أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ] (11-16).

وبالمقابل نرى مصير المتقين [إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ & فَكِهِينَ بِمَا

ءَاتَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ & كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [(17-19). عكس صفات المؤمنين تماماً، لتقول لك الآيات: اختر لنفسك بينهما...

وهذه المقابلة المستمرة بين الفريقين في سور القرآن، لها في نفوس المؤمنين وقع شديد، وهي من أسرار تأثير آيات القرآن على المؤمنين. ثم ترينا الآيات لماذا فاز أولئك المؤمنون:

[قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ & فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ & إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ] (26-28) ألم تختار بعد...؟ ألم تتشوق لتكون مع هؤلاء...؟

سور تسلّم بعضها

ومن لطائف القرآن، أن سورة الطور ختمت بما يتناسب مع بدايتها وبداية السورة التي تليها. ففي قوله تعالى **[وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِذْ بَرَ النُّجُومِ] (49)** جو من التسبيح في الليل، الذي يناسب بداية السورة **[وَالطُّورِ]** وهو الجبل الذي كلم الله به موسى ليلاً وكلفه بالرسالة...

وختام سورة الطور كان في قوله **[وَإِذْ بَرَ النُّجُومِ]** بينما نرى في بداية سورة النجم: **[وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى]** وكأن سور القرآن تسلّم بعضها البعض.

سورة النجم (العلم والمعرفة من الله)

وتتحدث سورة النجم عن الاختيار أيضاً، لكن بين مصدرين من مصادر العلم والمعرفة: بين ما هو وحي من عند الله تعالى، وبين ما هو شكوك وأوهام..

وما ينطق عن الهوى

وأوثق علم وأحكم معرفة هو ما كان وحيّاً من الله إلى رسوله الكريم، لذلك

تقول الآيات عن رسول الله [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ & إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ & عِلْمُهُ شَدِيدٌ الْقُوَىٰ] (3-5) فطريق الوحي الذي ينقله جبريل عن رب العزة جل وعلا هو أوثق الطرق للعلم والمعرفة...

ثم تعرض السورة طرفاً من حادثة المعراج، لأنها حادثة كان فيها معرفة ورؤية حقيقية وليست مقتصرة على الإخبار والنقل

[ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ & وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ & ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ & فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ & فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ & مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ & أَفْتُمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ & وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ & عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ...] (6-14).

وكأنها تقول للكافرين: كيف تكذبون رسول الله، وقد رأى في هذه الحادثة من آيات ربه الكبرى [مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ & لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ] (17-18). كيف تكذبون رجلاً مصدر علمه ومعرفته رب العزة سبحانه وتعالى...؟!

ختام المنهج: العلم والتثبت سمة المنهج

علمهم أوهام

ويتكرر ذكر العلم في سورة النجم بشكل واضح، وأهمية التثبت فيه وأخذه عن مصادره الأصلية. فالسورة تعرض أماننا طريقتين: طريق الوحي الذي رأيناه في أول السورة، وطريق أولئك الذين يتبعون الظن والأوهام: [إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ] (23). فأى دليل أمام هؤلاء؟! إنهم يعتمدون على مصادر واهية جداً، كالتمني [أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ] (24).

وتمضي السورة في ذكر تحبطهم وشكوكهم: [إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ] (27). فهم يتحبطون في ربهم ووطنهم [إِنْ

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً [(28)، إلى أن تصل بنا
السورة إلى إثبات سطحيتههم ومعرفتهم الضئيلة: [ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى] (3)..

وكأن رسالة هذه السورة: وثق مصادرك قبل الحديث عن العلم وقبل إعطاء
الأحكام.

لماذا النجم؟

ويأتي سؤال: لماذا سميت السورة بسورة النجم؟ ولماذا بدأت بالقسم [وَالنَّجْمِ
إِذَا هَوَى] (1)؟ وما علاقة ذلك بالعلم؟

إن القسم بالنجم يوحي أن النجم يهوي ويسقط، لكن صاحبكم (p) أتى
بمنهج لا يهوي ولا يسقط أبداً، لذلك قال تعالى: [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى]
(2).. فهذا المنهج هو من عند الله وهو أقوى من السماوات والأرض، مقابلة
عظيمة ومعنى رائع، أن هذا الدين وهذا الوحي أقوى من الشمس وأرسخ من
النجوم التي نراها بأعيننا.

نعمة العلم الموثوق

ولا يشعر بنعمة تلقي العلم عن الوحي والقرآن إلا من جالس أناساً من
الغرب، ممن اقتصرت مصادر علمهم على الأمور المادية... فيرى أفكارهم المشوشة
وتحبطهم في أيسر القضايا وأبسط المسلمات التي أجاب عنها الإسلام... لذلك
عليك أخي المسلم، بعد أن قرأت سورة النجم، أن تختار مصدر معلوماتك، وأن
تبني علمك وعملك على هذا المصدر، حتى يجزيك الله عن ذلك خير الجزاء...
[وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى] (31).

ترابط السور

وتختتم سورة النجم [فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَعُْبُدُوا] (62) بما يتناسب مع بداية سورة القمر [أَفْتَرَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرَ] (1). وكأن العلاقة بينهما: أسجدوا لربكم واعبدوه، استعداداً لليوم الآخر وقدم الساعة التي دل على اقترابها نزول سورة القمر..

النعم... والنقم

وتأتي في الجزء 27 سورتان، تكملان بعضهما البعض بين سور الاختيار... سورتا القمر والرحمن. فسورة القمر هدفها: "تعرف على الله من خلال النقم" بينما سورة الرحمن "تعرف على الله من خلال النعم".

سورة القمر

ورسالة هذه السورة أيضاً: اختر بين الطريقين... أنظر إلى نعمة الله على الأمم الكافرة من قبلك واختر أن تتبع طريقهم أو أن تتعد عنه...
فقوم نوح مثلاً [كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ..] (9)، فدعا عليهم سيدنا نوح: [فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ] (10) فماذا كانت النتيجة؟ [فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ & وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ] (12).

ثم تنتقل إلى صورة أخرى من صور نعمة الله تعالى على المكذبين: [كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرٍ & إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ] (18-19).

أما قوم ثمود [كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ] (23) فكانت عاقبة تكذيبهم شديدة [إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ] (31).
وقوم لوط [كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ & إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَصَبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ] (34).

وقوم فرعون [وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ & كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ

أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٍ [(41-42).

ولقد تركناها آية فهل من مدكر

ونلاحظ في هذه الآيات التي تظهر نعمة الله تعالى على الأمم السابقة عوامل

مشتركة:

أن تكذيب الكافرين هو سبب هلاكهم، لذلك نرى أن ذكر العذاب كان مقروناً بكلمة [كَذَّبَتْ عَادٌ... كَذَّبَتْ ثَمُودٌ...]. وحتى كفار مكة قالت عنهم الآيات [وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ] (3)...

أن كل قوم يكذبون الله ورسله دون أن يتدبروا آياته، يأتيهم العذاب ويصيرون هم أنفسهم آية لقوم آخرين [وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] (15).

لذلك نرى أن السورة ركزت في بدايتها على آية قد رآها كفار مكة [أَفْتَرَبْتِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةَ الْقَمَرُ] (1) وكأنها تقول لهم: بعد أن رأيتم هذه الآية العظيمة، إياكم أن تكذبوا بها فتصيروا أنتم آية لمن يعتبر، لكنهم أعرضوا وكذبوا: [وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ] (2).

أن التعقيب على كل قصة من قصص الأمم السابقة قد احتوى على نفس الكلمات [فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ & وَلَقَدْ يَسْرَنَ الْفَرْعَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] (21-22).

سنة كونية

ثم تعقب السورة على قصص الأمم السابقة بالإشارة أن كفار مكة ليسوا أفضل من الأقسام السابقة: [أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ] (43) فالقاعدة واحدة، لكل من كذب واستكبر، كما في قوله تعالى: [وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] (51).

فإن لم تكفهم تلك الآيات، من انشقاق القمر إلى قصص الأمم السابقة،

فهناك آية أخرى تتوعدهم [سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ] (45). إنذار رهيب من الله تعالى، يشير إلى غزوة بدر، وما سيراقتها من هزيمة منكرة لكفار قريش، ثم إنذار أشد من بدر ومن كل ما في الدنيا من مصائب [بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ] (46).

ولقد يسرنا القرآن للذكر

والسورة، أثناء الحديث عن هلاك المكذبين، تبين أن القرآن هو السبيل للنجاة من العذاب، وأن هذا القرآن ميسر للناس، حتى يتدبروا آياته ويتعلموا منها. [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ] (17) وكأن المعنى: إلزم طريق الله، وتعهد هذا القرآن بالحفظ والرعاية والتدبر، حتى تتعرف على الله وتأمن عذابه وتختار طريق الرشاد...

سورة الرحمن

وسورة الرحمن تكمل محور سورة القمر في التعرف على الله تعالى من خلال نعمه، وبالتالي اختيار طريق الإيمان.

هم إخوانك في التكليف

هذه السورة احتوت على معنى جديد بين سور القرآن، وهو إشراك الجن مع الإنس في التكليف وفي توجيه الخطاب.. لذلك نرى فيها خطاباً مباشراً للجن في قوله تعالى [سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ] (31).. وكأنها تقول للجن أيضاً: "اختلفوا"، فقد وضع المنهج وهذه معالمه وآياته بين أيديكم.

ويأتي بعد ذلك خطاب آخر موجه للثقلين: [يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ] (32).

وحتى أكثر آية ترددت في السورة [فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ] تخاطب الإنس والجن على سواء [رَبِّكُمَا]، وتأمركلاهما أن يشكروا نعم الله تعالى ولا

يكذبوها. لذلك عندما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: "ما لي لا أسمعكم تقولون كما قالت الجن؟". قالوا: وما قالت الجن؟ فماذا كان قولهم: "لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد" .. معنى رائع وجواب لطيف على سؤال: [فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ]. من فضلك، تفكر فيها كلما قرأت سورة الرحمن واملأ قلبك وكيانك بنعم الله تعالى وشكرها.

لذلك من السنة أن تقول كما

نعم الله تعالى

وتمضي السورة في تعداد هذه النعم العظيمة التي نعيش معها دون أن نستشعر قيمتها [وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ & أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ & وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ] (7-9).

فمن أهم نعم الله تعالى أنه وضع ميزاناً للسموات والأرض وكل المخلوقات، لكن الإنسان لما بعد عن هذا الميزان وطغى، امتلأت بالظلم والفساد...

ثم تأتي نعم أخرى [مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ & بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ] (19-20) ووسط كل هذه النعم يتكرر نفس السؤال: [فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ].

إختر بينهما

وبنفس طريقة سور الجزء 27 في الاختيار بين الطريقتين، يأتي عرض لفئتين من الناس. فأولهما هي الفئة التي كذبت بنعم الله [فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ & فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ & يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ] مشهد رهيب [هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ & يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ] (39-44).

ثم يأتي ذكر أهل الجنة مباشرة حتى يقع أثر هذه الآيات في القلب بشدة فيسارع إلى الاختيار السليم: [وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ & فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ] (46-47).

وللحقيقة هذه السورة من أجمل السور التي يتعرف المسلم على نعم ربه بها، فتكون معيناً على اختيار طريق الحق والثبات عليه...

سورة الواقعة (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)

وسورة الواقعة هدفها بوضوح: اختاروا أن تكونوا بين أحد هذه الأصناف الثلاثة:

1. السابقون المقربون
2. أصحاب اليمين
3. أصحاب الشمال

هذه هي السورة باختصار شديد. لذلك نرى في بدايتها:

[وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً & فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ & وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ & وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ] (7-10).

ثم تمضي السورة في الحديث عنهم وعن مصير كل واحد منهم، إلى أن تحتتم أيضاً بنفس الأصناف الثلاثة: [فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ & فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ & وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ & فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ & وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ & فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ & وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ] (88 - 94).

تفكر في ملكه واختار

وبعد أن ذكرت لك السورة مصير كل فريق من الفرق الثلاثة، تدعوك أن تتفكر في خلق الله حتى تراجع قلبك وإيمانك وتحسن الاختيار. وهذا التفكير يشمل كل ما أنعم الله به على الإنسان: من أول خلقه والنطفة التي خلقه الله منها [أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ & أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ] (58-59) إلى الحرث

والزرع [أَفْرَعَيْتُمْ مَّا تَحْرُثُونَ & أَعْنَتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّرْعُونَ] (63-64).
 إلى الماء الذي نشربه [أَفْرَعَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ & أَعْنَتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ
 الْمُنْزِلِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ] (68-69).
 إلى النار [أَفْرَعَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ & أَعْنَتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
 الْمُنْشِئُونَ] (71-72).

فإذا تذكرت أخي المسلم كل هذه النعم، ورأيت أنها كلها بأمر الله وليس لك
 منها شيء، فبادر إلى التسبيح [فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ] (74) سبحان ربي
 العظيم..

إختر قبل الموت

ثم يأتي قبل الختام تذكير بالموت، حتى تختار أخي المسلم قبل أن يأتيك
 الأجل وتغادر هذه الدنيا، [فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ & وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ &
 وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ] (83-85). لحظات صعبة وشديدة،
 من منا سيكون من المقرّبين، فتخفف عنه تلك اللحظات، ومن منا سيكون من
 أصحاب اليمين، ومن سيختم له بالشقاء والعياذ بالله...

تذكرة بين تسبيحتين

وتختم سورة الواقعة بقوله تعالى: [فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ] (96)، بما
 يتناسب مع ختام سورة الطور بالتسبيح [وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ] وختام
 سورة النجم بالسجود [فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا]. فالتسبيح والعبادة هما أكبر معينين
 على اختيار طريق الحق والثبات عليه إن شاء الله.

وكما كانت السور السابقة تسلّم بعضها، بأن يكون هناك علاقة بين ختام
 سورة وبداية السورة التي تليها، نلاحظ أن سورة الواقعة ختمت بالتسبيح [فَسَبِّحْ
 بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ] لتبدأ سورة الحديد أيضاً بالتسبيح [سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ].

سورة الحديد (التوازن بين الروحانية والمادية)

وسورة الحديد تتحدث أيضاً عن الاختيار بين المادية والروحانية، لكنها لا تقول لك: اختر بينهما، لكنها تقول: وازن بينهما...

أمة الإسلام والحديد

وقبل أن نبدأ مع آيات السورة، لا بد أن نذكر حقيقة محزنة، أن أمتنا التي تقرأ في كتابها وفي دستورها سورة الحديد لا تعرف كيف تصنع الحديد... أن هناك آية محورية في السورة لكنها غائبة عن حياتنا وعن أمتنا: [وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ] (25).

فالحديد هو - بلغة اليوم - رمز للصناعات الثقيلة. واستخدام هذه الصناعات كما بينت الآية هو [بَأْسٌ شَدِيدٌ] أي الصناعات الحربية، [وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ] أي الصناعات التكنولوجية والمتطورة.. فهو محور أساسي في صناعات الأمم في حالي الحرب والسلام.. أين نحن من سورة الحديد، وأين نحن من التطور العلمي والصناعي والتكنولوجي؟

بعد هذه الحقيقة الصعبة، تعالوا نفهم مراد ربنا من هذه السورة، حتى نفهم توازن الإسلام وشموله ونمضي في ركب التطور والحضارة.

التوازن

فما هو هدف السورة؟ إن السورة تدعوك للاختيار بين المادية والروحانية... فهي تتحدث عن أناس تفرغوا للعبادة تماماً، وفي المقابل عن أناس قست قلوبهم من كثرة انصرافهم للعمل وانشغالهم بالدنيا على حساب الطاعة. والسورة توضح أن كلا الفريقين على خطأ، وكلاهما قد بعد عن طريق الله ومنهجه.

الغلو في المادية

وبالحديث عن النوع الأول، نرى آية رائعة تهز القلوب القاسية وتذكرها برها
جل وعلا:

[أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ...] أخذتهم الدنيا، فكانت النتيجة [فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ] (16).

عتاب رقيق من رب العزة جل وعلا، أحس به الصحابة مع أنهم من أكثر الناس خشوعاً، فقالوا في هذه الآية: "لما نزلت عاتبنا ربنا فيها لأن قلوبنا قست..."

والآية التي بعدها هي قوله تعالى: [أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا] (17) فما علاقة قسوة القلوب بالمطر؟ إن الذي يحيي الأرض بالمطر بعد أن أجدبت وماتت، قادر أن يحيي القلوب بذكره مهما قست وبعدت عن طريقه...

الغلو في الروحانية

وأما النوع الثاني من الناس، فهم الذين غالوا في الروحانية والبعد عن الدنيا، اسمع قول الله تعالى [ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً] (27) حتى الآن كل هذا جيد ومطلوب، لكن ماذا بعد؟

[وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقًّا رِعَايَتِهَا فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ] (27). والملفت أن الآيتين اللتين تحدثنا عن الغلو سواء في المادية أو في الروحانية قد ختمتا بنفس العبارة [وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ]. لماذا؟ لأن الفسق هو الخروج عن المنهج. (وفي اللغة: فسقت النواة أي خرجت عن قشرتها). والخروج عن المنهج الرباني في البعد عن الدنيا والتفرغ للعبادة هو تماماً كفسوسة القلب والبعد عن الروحانية، فسق بفسق...

أمة وسط

وكأن السورة تقول لنا: أنتم يا أمة محمد لستم أحد هذين النوعين، أنتم أمة

متوازنة، وأمة وسط بين رقة القلب والصلة بالله وبين النجاح في الحياة. لذلك تأتي الآية المحورية في السورة - الآية 25 - لتبين هذا المعنى بشكل رائع:

[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ] أي الإيمانيات، [وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ]. وهنا تأكيد على الجانب المادي والنجاح في الحياة [وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ] وهكذا نفهم أن هذا هو استخدام الحديد، نصره دين الله بالصناعات الحربية والصناعات التكنولوجية..

والسورة تبين أن هذه القاعدة لا تتغير عبر الأجيال [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ] (26) وهم الذين فهموا دين الله وعرفوا كيف يوازنون بين المادية والروحانية [وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] (26).

التوازن مفتاح النور

وهناك ملحوظة لطيفة في السورة، أن النور قد ذكر فيها 3 مرات، بشكل يفهما حقيقة التوازن في الإسلام:

- في الدنيا: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ] (28).

- على الصراط: [يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ] (12).

- في الجنة: [وَالشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ] (19).

أنظر بالله عليك إلى روعة هذا الدين وتوازنه، فالسورة تثبت لك أن التزامك بطاعة الله سيجعل لك نوراً في الدنيا وفي حركة حياتك مثلما سينور طريقك عند اجتياز الصراط في الآخرة... وليس هذا فحسب، بل أن السورة ذكرت نوراً خاصاً بفتحة من الناس: [وَالشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ] (19). لماذا؟ لأنهم

هم الذين استخدموا الحديد في الصناعات الحربية فكانوا قمة في النجاح في الحياة ونصرة دين الله. وبالمقابل ضحوا بحياتهم في سبيل الله فكانوا قمة في الروحانية والصلة بالله. توازن رائع وواضح في سورة الحديد...

التوازن في ملك الله

وحتى بداية السورة فهي ترينا بوضوح كيف أن الله تعالى يحكم الكون بتوازن عجيب، ففيها متناقضات عديدة: [هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهَرُ وَالْبَطْنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (3).

[هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا] (4) [يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ] (6).

وكأن المعنى: أنه لا يجمع بين هذه المتقابلات إلا الله تعالى. فسبحان من ملك الكون وجعله متوازناً، وأمر خلقه بالتوازن في حياتهم، حماية لقلوبهم من القسوة والبعد عن الله، وحماية لأنفسهم من التطرف في الحياة..

ألم تختبر بعد...

هذا كان الجزء السابع والعشرين، وسوره التي تحثك على الاختيار...
وتسألك:

تختار طريق الجنة أم طريق النار؟ (سورة ق وسورة الطور)

تختار أن تكون من السابقين وأصحاب اليمين، أم أن تكون من المكذّبين؟
(سورة الواقعة)

تختار النعم أم النقم؟ (سورتي الرحمن والقمر)

تختار أن تتلقّى علمك من طريق الوحي أم طريق الشك والظن؟ (سورة
النجم)

تختار رزق الله وعطاءه أم حرمانه؟ (سورة الذاريات)
تختار المادية أو الروحانية والغلو بأحدهما أم تتوازن بينهما؟ (سورة الحديد)
نسأل الله تعالى أن يعيننا على هذه الاختيارات، وأن ينفعنا بما قرأنا من آيات
الجزء السابع والعشرين..

سور الجزء الثامن والعشرين

ونصل مع خواطرننا القرآنية إلى الجزء الثامن والعشرين، الذي تدور سوره كلها حول محور واحد، كما رأينا في الجزء السابق.

جزء الإنتماء للإسلام

فبعد أن عرضت سور القرآن هذا المنهج الرباني بأدق تفاصيله - من مبادئ الأخلاق الاجتماعية في سورة الحجرات إلى قوانين التفوق الحضاري في سورة النمل، - جاء الجزء 27 ليضع أمامنا قضية الاختيار، كما رأينا، بين الجنة والنار وبين أهل الإيمان وأهل الكفر... أما الجزء 28، فمحوره الأساسي: الإنتماء لهذا الدين.

وكأن المعنى: بعد أن عرفتم أيها المسلمون هذا القرآن، وفهتمم المحاور الأساسية لدين الله، لا بد أن تنتموا إليه. وقد يقول البعض: أنا منتم للإسلام، فأنا أصلي وأصوم وأؤدي الفرائض... لكن هذا الفهم قاصر جداً، وهناك فرق كبير بين "أنا أصلي" أو "أنا أصوم" و"أنا منتم للإسلام".

فالإنتماء للإسلام يعني أن أحب الله ورسوله ولا أؤثر شيئاً على أمرهما، وأن أحب المؤمنين لأنهم منتمين مثلي لهذا الدين... والإنتماء يعني أن لا أنبهر بحضارة أخرى لأنني أعتر بانتمائي لهذا الدين...

إذاً الجزء 28 هو باختصار: جزء الإنتماء للإسلام والتبرؤ من الحضارات الأخرى ولا يجب أن يفهم من كلامنا أن المطلوب هو العداوة للآخرين، لكن المطلوب هو أن تكون لنا هويتنا وأفكارنا وقيمنا المستقلة، دون أي عداة لأي

طرف آخر... ومن روعة هذا الجزء أنه يبيّن هذا المفهوم - التوازن بين الإنتماء والعداء - بشكل واضح.

سلسلة الإنتماء

وهذا الجزء يحتوي على تسع سور، كلها مدنية، وكلها تدور حول قضية الإنتماء. وإذا تأملنا عناوين السور، رأينا أنها تكون سلسلة مترابطة يجمع بينها الإنتماء:

1. سور الجمعة والصف الحشر: وكلها تدعو إلى الوحدة والترابط والتجمع كما نرى في أسمائها.
2. سورة الممتحنة: امتحان الإنتماء (أناس يمتحنون في انتمائهم).
3. سورة المنافقون: التحذير من مرض النفاق الذي يضيع وحدة الأمة ويضيع الإنتماء.
4. سور التحريم والطلاق والتغابن: التحذير من شواغل الإنتماء، والتعلق بزينة الحياة الدنيا من الأولاد والزوجات والأموال...
والسور تركز على أهمية الأسرة وترابطها، كما في سور الطلاق والتحريم، للدلالة على أن الأسرة المسلمة هي بداية الإنتماء، وهي بداية الترابط المطلوب بين أفراد المجتمع..
فبداية الإنتماء أسرة قوية متماسكة، ونهايته وحدة قوية بين المسلمين.

دور المرأة في الإنتماء

ومن اللطائف في هذا الجزء أنه ابتداءً بالحديث عن امرأة اشتكت من سوء معاملة زوجها لها - في سورة المجادلة - واختتم بسورة التحريم، التي ضرب الله مثلاً في آخرها للذين آمنوا: امرأة فرعون ومريم بنت عمران.
والرابط بين هذه المعاني أن المرأة هي التي تصنع الرجال وهي التي تربي أبناءها

على الإنتماء. فلو عرفت المرأة قيمتها في الإسلام وتكريم الإسلام لها، فستنتهي إلى الإسلام بصدق، وسيكون لها دور أساسي في بناء الإنتماء للإسلام في نفوس الأمة.

ومن هنا نفهم لماذا بدأ الجزء بإعطاء المرأة حقها في سورة المجادلة، ولماذا انتهى الجزء بضرب المثل بالمرأة، حتى تلتفت نساء الأمة إلى حقوقهن ودورهن في هذا الدين، فيحصل منهن الإنتماء الكامل للدين، ومن ثم توزيع هذا الإنتماء على الناس وبنائهم في الأجيال القادمة فتحقق أهداف الجزء 28...

المرأة في سور القرآن

وقبل هذا الجزء، رأينا كيف أن أكثر سور القرآن ركزت على المرأة في محورها الأساسي. ففي سورة آل عمران (التي كان هدفها الثبات) كانت مريم عليها السلام وامرأة عمران رمزاً للثبات. وفي سورة النساء (سورة العدل) كان من أهم شروط العدل مع الناس أن تعدل أخي المسلم في بيتك ومع النساء... ورأينا في سورة النمل، التي تحدثت عن التفوق الحضاري، كيف أن ملكة بلقيس حكمت قومها بالعدل وقادتهم إلى الإيمان بالله تعالى...

أرأيت اهتمام الإسلام بالمرأة وكيف جعلها القرآن محوراً في العديد من سوره وأهدافه.. وللأسف فإننا نجد بعد ذلك من يشكك ويقول: أين نجد الاهتمام بالمرأة في القرآن؟ ولماذا نرى الخطاب القرآني دائماً موجه للرجال؟ ودائماً بصيغة المذكر؟

وإلى هؤلاء نقول: إذا كانت اللغة العربية تقتضي أن يكون الخطاب موجهاً لطرف واحد وهو الذكر، فلا يجب أن تكون كل كلمة في القرآن موجهة لطرفين، للذكر والأنثى. فاللغة العربية تقتضي ذلك، والقرآن كلم الطرفين بصيغة التذكير، مع التأكيد دوماً أنهما شريكان في المسؤولية عن الدين، لا بل أن المرأة لها دور خاص، لأنها صانعة الإنتماء للمجتمع، كما سنرى في الجزء 28.

سورة المجادلة

بداية الإنتماء: حق المرأة

وسورة المجادلة هدفها: التبرؤ من المناهج الأخرى والاتصال بالإسلام. فكيف كانت بدايتها؟

تبدأ هذه السورة ويبدأ الجزء الثامن والعشرين بقضية أسرة معرضة للتفكك: رجل خاصم زوجته وقال لها: "أنت علي كظهر أمي"، مما يؤدي إلى أن تحرم عليه فلا يقربها في الفراش ولا يعطيها حقها.. ظلم شديد للمرأة وعادة من أقبح العادات الجاهلية التي كانت لا تزال موجودة في مجتمع المدينة المنورة... فنزلت آيات السورة لتعطي للمرأة حقها من فوق سبع سماوات: [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (1).

تحيل قيمة المرأة في الإسلام: امرأة تجادل رسول الله - لا بل أن السورة سميت باسمها وهي تجادله - وينزل حكم الله من فوق سبع سماوات ليعطيها حقها... فما علاقة ذلك بالإنتماء؟

إن الجزء الثامن والعشرين ابتداءً بحماية أسرة كانت معرضة للتفكك والزوال، ودافع عن امرأة كانت تتعرض للظلم والتعسف في أحص خصوصيات حياتها الزوجية، وذلك لأمرين هامين:

- أن أول مقتضيات الإنتماء: أسرة متماسكة وقوية تحافظ على تعلق أفراد المجتمع بالدين

- أن إعطاء المرأة قيمتها وحقها يقوي في نفسها حب الإسلام والإنتماء إليه، وبالتالي يشجعها على نقل هذا الإنتماء وهذا الحب إلى المجتمع كله

لذلك جاءت الآية الخامسة - مباشرة بعد آيات الظهار - لتبين هذا المعنى: [إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ].

وقبل نهاية السورة أيضاً بنفس الكلمات: [إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

أُولَئِكَ فِي الْأَذْذَلِينَ] (20).

وكأن السورة تسألك: أنت مع من؟ ومن توالي ومن تحب؟ مع الشيطان وحزبه أو مع الحق وجنده؟ فتأتي المقابلة: [أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ] (19) ثم [أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ] (22). وحتى استعمال كلمة "حزب" هنا، يوحي أن المطلوب ليس العبادة والصلاة والصوم. فلا بد من التحزب والانتماء الكامل لحزب الله، والتبرؤ الشديد والصريح من حزب الشيطان، حتى نحقق هدف السورة ونكون من المفلحين إن شاء الله..

خطر النفاق

ولأن المطلوب هو إعلان الولاء الصريح لله والتبرؤ الصريح من الكفار، فإن السورة تحذر ممن يظهر أمام الناس بوجهين، وهم المنافقون، لأنهم أخطر ما قد يدمر الإلتواء ويضيع الوحدة بين المسلمين: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا مَنَّكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (14) فأول مشكلة عند هؤلاء المنافقين هي ولايتهم وتعلقهم بأعداء الله تعالى، لذلك [أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (15).

وتفضحهم آيات السورة بما يحول في قرارة أنفسهم: [وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَ الْأَمْصِيرُ] (8).

من مظاهر النفاق

وحتى سبب نزول السورة، وهو الظهار وتحذير المؤمنين من هذه الظاهرة، يعود إلى أن هذا المرض هو نوع من أنواع النفاق الاجتماعي، فكان لا بد من معالجة هذه الظاهرة وأكثر من ذلك، إن النجوى هي أيضاً من العوارض الخطيرة للنفاق، لذلك حذرت السورة منها أيضاً، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَاجُوا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَى] (9) وقوله تعالى [إِنَّمَا
الْتَّجَوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ]
(10).

قد سمع الله

ومن هنا نفهم سبب تركيز آيات السورة على علم الله وإحاطته بكل شيء،
حتى تعلم أخي المسلم أن الله تعالى يعلم السر وأخفى، فتمتنع عن موالاته غير
المسلمين ولو في قرارة نفسك:

فالسورة بدأت أصلاً بقوله تعالى: [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا].

ونرى فيها أيضاً قوله تعالى [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...] (7).

ولذلك نرى أن أسماء الله الحسنى المختصة بالعلم والإحاطة قد تكررت بشكل
ملفت:

[سَمِيعٌ بَصِيرٌ... (1) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ... (3) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ... (6) إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] (7).

إعلان الولاء

وتختتم سورة المجادلة بآية محورية في الولاء الكامل لله والتبرؤ من أعدائه:

[لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] (22) كلام شديد ولهجة لم
نسمعها من قبل... إياك أن تحب من يعادي دينك، الأمر ليس فقط متعلقاً
بأفعالك، بل حتى بمشاعرك القلبية... ولا بد من التذكير أن الحديث هنا مختص
بالمناهج والحضارات التي تعادي الإسلام، فلو كانوا غير مؤذنين أو محاربين فلا بأس
من التعامل معهم، كما سنرى في سورة الممتحنة... أما إذا كانوا يعادون الله

ورسوله، ويحادون الله ورسوله، ولو كانوا من الأقارب أو الأهل أو الأصحاب، فالمطلوب هو التبرؤ الشديد منهم والإنتماء الحقيقي للإسلام. فإذا فعلت ذلك، فاستبشر بقوله تعالى: [أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (22).

هذه كانت سورة المجادلة، التي بدأت مع امرأة تشكي زوجها لرسول الله، وكيف أعطاها الإسلام حقها، وانتهت لتسألك يا قارئ القرآن: أنت مع من... نسأل الله تعالى أن يحقق فينا الإنتماء الكامل لدينه..

سورة الحشر

تحدث سورة الحشر عن يهود بني النضير وحادثة إجلائهم عن المدينة بعد إخلالهم بالعهد مع رسول الله. هذه الحادثة التي ظهر فيها نوعان من الناس: نوع ساعد أعداء الله ووقفوا بجانبهم وهم المنافقون، ونوع تبرأ من أعداء الله وهم المؤمنون... رأيت كيف أن الإنتماء يسير معنا في سور هذا الجزء... هيا بنا نستعرض هذين النوعين اللذان كشفت حقيقتهم في تلك الحادثة.

المنافقون: ضعف الإنتماء

لما أراد النبي ﷺ أن يجلي بني النضير، سارع المنافقون إلى القيام بالمفاوضات مع اليهود، لذلك نزلت الآيات لتفضحهم: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَفَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] (11) رأيت استعمال كلمة [لِإِخْوَانِهِمْ]، فالمنافقون ليسوا إخواناً للمؤمنين، لأنهم ينتمون للمشركين... وكان الآيات تسألك: أنت مع من؟ وتنتمي لمن؟

وتمضي الآيات في كشف كذبهم وخداعهم:

[لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ & لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ] (12 - 13).

هؤلاء الكفار لن ينصروا بعضهم، فليس لهم وحدة أو انتماء يجمعهم، ومن الطبيعي أن يتبرأوا من بعضهم كما سيتبرأ الشيطان من أتباعه: [كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ] (16).

المؤمنون: الإلتناء الكامل

فما البديل عن الإلتناء لهؤلاء؟ الإلتناء الكامل للإسلام:

[لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ] (8) أرايت قمة الإلتناء لهذا الدين، ليس بالكلام، وإنما بالعمل والتضحية..

[وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (9).

فالمهاجرون انتموا لهذا الدين بصدق، والأنصار أحبوا الذين هاجروا إليهم، لا بل آثروهم على أنفسهم رغم ضيق حالتهم المادية. ومع أن هجرات البشر عبر التاريخ يعقبها كراهية شديدة وحروب ومشاكل بين الوافدين وأهل البلد، لكن هجرة الأنصار إلى المهاجرين كانت بخلاف ذلك، حب وإيثار وتضحية... وتأتي بعد ذلك آية رائعة، تصف لنا وحدة الأمة عبر الأجيال:

[وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ...] (10).

أرأيت روعة الآيات في وصف المؤمنين؟ كيف أن أجيال الأمة كلها تنتمي لنفس الفكرة ونفس المنهج... وحتى في حال الخلاف الذي قد يحصل بين أفراد الأمة، فإن السورة ترينا كيف أن المنتمين لهذا الدين لا يطعنون بمن قبلهم، وإنما يقولون: [وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا] (10).

أرأيت الفرق الهائل بين الفريقين؟ بين من ينتمي للمؤمنين ويضحى لأجل انتمائه وإخوانه، وبين من ينتمي لأعداء الله لأجل الدنيا، ويخونهم في أقرب فرصة...

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل

ثم تأتي آية رائعة، تهمز القلوب من خشية الله تعالى: [لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...] (21).

فما علاقة هذه الآية بغزوة بني النضير؟ إن اليهود اعتقدوا أن حصونهم ستمنعهم من الله وتحميهم من المؤمنين، كما في قوله تعالى [مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ] (2) فأنت الآية 21 وكأنها تقول لهم: كيف تظنون أن هذه الحصون مانعتكم من الله. هذا القرآن يصدع الجبال العظيمة فما بالك بالحصون المتهاوية؟ اعلموا أن لا ناصر ولا معين إلا الله تبارك وتعالى.

هو الله

وفي الختام، تأتي ثلاث آيات رائعة في أسماء الله الحسنى، كلها أسماء العظمة والقوة والجلال:

[هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ & هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ & هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (22) - (24).

وكما بدأت السورة بتسبيح الله وتعظيمه [سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (1) فهي تنتهي أيضاً بالتسبيح والتعظيم [يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (24).

وكأن ختام السورة يؤكد على معنى واحد: كيف لا تنتمون إلى الله، وهو الذي له الأسماء الحسنى التي كلها عظمة.. انتموا إليه ولا تنتموا إلى غيره...

سورة الممتحنة

وسورة الممتحنة نرى هدفها واضحاً من أول آية فيها [يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...] رأيت كيف أن الولاء للمسلمين والتبرؤ من الكافرين واضحان في سور الجزء كلها... لذلك تأتينا السورة بأربعة امتحانات للانتماء:

1. امتحان حاطب بن أبي بلتعة

2. امتحان المؤمنات المهاجرات

3. امتحان التوازن في الولاء والبراء

4. امتحان النساء قبل مبايعتهن

تعالوا معاً لنستعرض هذه الامتحانات التي أوردتها السورة الكريمة، سورة الممتحنة.

حاطب بن أبي بلتعة وإفشاء الأسرار

كان رسول الله ﷺ يجهز الجيوش قبل فتح مكة، حتى يفاجئ الكفار بدخول مكة فيستسلموا دون أن يحدث أي قتال أو إراقة دم في الحرم... لكن أحد الصحابة - وهو حاطب بن أبي بلتعة - أرسل لأهله في مكة حتى يحذرهم من مجيء المسلمين.. فكان امتحاناً لولاء ذلك الصحابي الجليل، الذي أخطأ في تصرفه هذا، ولذلك نزلت آيات السورة تعاتبه على ذلك:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي] ثم يأتي تحذير من مودة من عادى الله ورسوله [تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ].

لكن الملفت في الآية أنها عاتبت سيدنا حاطب عتاباً رقيقاً، فهي أكدت أنه لا يزال مع المؤمنين، من خلال البدء بـ: [يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا]، وأكدت أن أعداء الله هم أعداؤه [.. لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ..]، وليس هذا فحسب، بل ذكرته بمرضاة الله [إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي]. رأيت كيف عالج القرآن تلك المشكلة - التي تعتبر في المنطق العسكري خيانة عظمى - بأسلوب تربوي رائع، وذلك باللطف والتحبب في الخطاب.

إبراهيم والذين معه: إنا براء منكم

ثم تعرض لنا السورة موقفاً واضحاً في الإنتماء الكامل لدين الله والتبرؤ الشديد من المناهج الأخرى:

[قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ...] (4).

رأيت كيف أن الجزء الثامن والعشرين بأكمله، هو عبارة عن عرض نماذج المنتمين لدين الله، وبالمقابل للآخرين الضعيفين في انتمائهم... يا شباب، قبل أن تختتموا المصحف، وقبل أن تنتهوا من قراءة منهج الله تعالى، تعلموا هذا المعنى، الولاء للمؤمنين والتبرؤ من الكافرين...

إمتحان مبايعة النساء

وهذا الامتحان هو سبب تسمية السورة بسورة الممتحنة... اسمع قول الله تعالى:

[يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ...] (10).

هذه الآية تتحدث عن معنى مهم جداً للمجتمعات التي تريد أن تحافظ على انتمائها للإسلام. إمتحنوا النساء قبل أن تدخلن إلى مجتمعاتكم، حتى نضمن عدم دخول المشككين والمفسدين لمجتمعاتنا، لأن المرأة هي ضمان المجتمع، وهي التي تحفظ انتماء أفرادها لدينهم وتحفظ وحدتهم وتماسكهم. أرايت قيمة المرأة ومكانتها في المجتمع المسلم... أرايت دور المرأة في الحفاظ على انتماء المجتمع لدين الله، من سورة المجادلة إلى سورة الممتحنة...

إمتحان العدل مع غير المسلمين

وحتى لا يفهم الولاء والبراء على أنه العداة الكامل لغير المسلمين، والتبرؤ من كل أهل الكتاب، حتى الذين لا يجاروننا ولا يعادوننا، تأتي سورة الممتحنة بقاعدة هامة في التعامل مع غير المسلمين:

[لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] (9).

أنظر لروعة القرآن: ففي نفس السورة التي جاء فيها [لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّيكُمْ أَوْلِيَاءَ] (1) نرى فيها قوله تعالى [أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ] (9). فالإسلام يطالبنا بالبر والإحسان إليهم والعدل معهم [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] فلمن النهي؟ ولمن المعاداة؟

[إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (8).

وحتى عن الكافرين المعادين، فإن الآيات تظهر التوازن في التعامل [عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة...] (7).

وهكذا نرى أن السورة عرضت توازناً دقيقاً في الإنتماء، بين التبرؤ من الكفار الذين يحاربوننا وبين العدل والتسامح مع من يعيشون معنا بسلام، حتى لا يسيء المسلمون فهم هذا الأصل المهم من أصول ديننا الرائعة.

أين أنت من هذه الامتحانات؟ وما هو مدى ولائك لدين الله وتبرؤك من المناهج الغريبة التي تتعارض مع هذا الدين؟ وهل هناك توازن في نظرتك إلى هذا الإنتماء، أم أن نظرتك تقتصر على التبرؤ من كل الكفار، دون التفريق بين المعادين والمسلمين...

من فضلك، اسأل نفسك هذه الأسئلة بعد قراءة سورة الممتحنة..

سورة الصف

وهدف سورة الصف واضح من اسمها: "يا مسلمون، ويا من انتمى لهذا الدين، وحدوا صفوفكم في سبيل نصرته دين الله"، فتأتي فيها آية محورية وهي قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومًا] (4).

بنو إسرائيل والإنتماء

لذلك تعرض لنا السورة نموذجاً لبني إسرائيل، الذين أتبعوا سيدنا موسى كثيراً، لأن انتماءهم لدين الله كان ضعيفاً [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ] (5) فماذا كانت النتيجة [فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ] (5).

ويأتي سيدنا عيسى إلى نفس القوم بنفس الرسالة [وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ] (6).

لكن ضعف الإلتواء عند بني إسرائيل لا يزال موجوداً [فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ] (6).

كيف لا توحدون صفوفكم؟

وبعد أن حثتنا الآيات على توحيد الصفوف تأتي آية خطيرة:

[يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ] (8).

وكأن المعنى: توحّدوا أيها المؤمنون، وانصروا هذا الدين، لأن أعداء الله يريدون
أن يطفئوا هذا الدين. وكيف يكون عندكم ضعف في الإلتواء وأنتم تعلمون أن الله
تعالى سيتم نوره ولو كره الكافرون.. لذلك تعقب هذه الآية بشارة أخرى من الله
تعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] (9) هذا الدين منصور بإذن الله، وسيظهر على الأديان كلها
وينتصر على المناهج الأخرى، فسارع بالانضمام تحت لوائه حتى تكون من الفائزين
إن شاء الله...

كونوا أنصار الله

وتحتم سورة الصف بنداء للمؤمنين جميعاً، حتى يثبتوا انتماءهم للإسلام:
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَرَ اللَّهِ] (14) فلا تكفي الصلاة والصيام، ولا
تكفي قراءة القرآن، حتى تكون منتبهاً لهذا الدين.. لا بد من أن تكون من أنصار
الله... هذه القاعدة ليست مقتصرة على أمة محمد ﷺ، بل كانت مطلوبة أيضاً من
أتباع الأنبياء السابقين، كعيسى عليه السلام: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَرَ اللَّهِ
كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَرَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَرُ اللَّهُ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ] (14).

سورة الجمعة

إن هدف سورة الجمعة هو ببساطة: اجتماع المسلمين ووحدهم... فصلاة الجمعة هي رمز اتحاد المسلمين ورمز وحدة أهل الحي الواحد، وأهل البلد الواحد، يلتقون فيها بشكل أسبوعي حتى يسمعون خطبة الجمعة ويزيدوا الروابط الاجتماعية فيما بينهم... لماذا نرى هذا المعنى غائباً في مساجدنا؟ لماذا ضيعنا مراد ربنا من هذه الفريضة، ولماذا أفسدنا هذه الصلاة المباركة؟ ليتنا نرى خطباء الجمعة يراجعون أنفسهم في المعنى المطلوب الأساسي من خطبة الجمعة، وليتنا نرى المصلين أنفسهم، من الشباب والرجال والأطفال وحتى النساء، يذهبون إلى الصلاة كل جمعة بنية تجديد انتمائهم وصلتهم بإخوانهم المسلمين...

عناصر خطبة الجمعة

ومن المعاني الجميلة في السورة أنها ابتدأت بالعناصر المطلوبة في خطبة الجمعة. كيف هذا؟ اسمع قول الله تبارك وتعالى:

[هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ] (2)، ما هي مهمة هذا الرسول؟ وبالتالي ما هي مهمة من ينوب عنه ويخطب الجمعة في الناس؟ [يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ] (2)... فعناصر خطبة الجمعة هي: تلاوة القرآن والتعاشير مع آياته وأحكامه، تزكية النفوس وإصلاحها، وتعليم الناس سنة النبي ﷺ وأحاديثه...

فاسعوا إلى ذكر الله

وتختتم السورة بأهم ما يجب على المسلم أن يفعله حتى يثبت انتماءه لله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ] (9).

فمن دلائل انتمائك أن تسارع إلى المسجد حتى تتوحد مع المسلمين في الحي، وأن تضع الدنيا خلف ظهرك دون أن تلهيك عن انتمائك وعبادتك [ذَلِكُمْ

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] (9).

وتذكر لنا السورة حادثة أخطأ فيها صحابة رسول الله، عندما تركوا رسول الله يخطب على المنبر وسارعوا إلى ملاقاته إحدى القوافل وهي تدخل المدينة [وإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمَنْ أَتْتَجْرَةٌ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ] (11). هذه الحادثة تثبت لنا أن الصحابة - على رغم فضلهم ومكانتهم - بشر مثلنا، وقد يتشاغلون عن الإلتزام والولاء في لحظة فقر أو ضيق.. لكن أهم صفة فيهم هي سرعة العودة والإنابة إلى الله.

كمثل الحمار يحمل أسفاراً

وفي مقابل الصحابة رضوان الله عليهم، تأتينا السورة بمثل رهيب عن ضعيفي الإلتزام:

[مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (5).

إياك أن تكون منهم... إياك أن تذهب إلى الخطبة وأن تحمل هذا الدين مثل من يضع على كتفه معلومات دون أن يفهم منها شيئاً أو يطبقها ويجعلها منهجاً له في حياته... إنتم إلى الإسلام بصدق، وأظهر هذا الولاء وهذا الإلتزام من خلال صلاة الجمعة وتفاعلك مع المؤمنين، هذه هي رسالة سورة الجمعة، نسأل الله تعالى أن تتحدد هذه المعاني في نفوس الشباب كل أسبوع وفي كل خطبة جمعة...

سورة المنافقون

وسورة المنافقون تحذر من هذا المرض الداخلي الذي يهدد انتماء الأمة ويضيع وحدة أفرادها، لذلك تبدأ السورة من أول آية في وصف كذبهم وخداعهم: [إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَّفِقِينَ لَكَاذِبُونَ].

والله يعلم إنك لرسوله

وفي الآية الأولى إعجاز لغوي لطيف، فقد يظن البعض أن هناك تكراراً في قوله تعالى [وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ]... لكننا في اللغة العربية إذا أردنا أن نعرف القيمة البلاغية لجملة ما، نحذفها لنرى مدى أهميتها وتأثيرها على المعنى. فإذا فعلنا ذلك [إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] وحذفنا الكلمات التي تحتها خط، يصير المعنى أن الله يشهد أن المنافقين كاذبون بادعائهم أن محمداً رسول الله، والعياذ بالله... سبحان الله، من المستحيل أن نرى أي كلمة بل أي حرف في القرآن دون أن يكون له أهميته في توضيح المعنى...

الخطر على الولاء

وانظر إلى معالم النفاق في حياة هؤلاء في الآية (4) [وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسُهُمْ وَان يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ] (7) فهم يتمتعون من الخارج بمظاهر برافة وملامح خادعة، لكنهم من الداخل [يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ] لذلك [هُمُ الْآذِينَ فَاحْذَرُهُمْ].

وترينا الآية (5) مدى تكبرهم على الإسلام وعلى رسول الله: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ].

والله العزة ولسوله وللمؤمنين

حتى أن الحال وصل بزعيمهم - عبد الله بن أبي بن سلول - إلى النيل من رسول الله ρ [يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ] (8) فهو يقصد أنه هو الأعز، وأن رسول الله ρ - والعياذ بالله - هو الأذل، فترد عليه نفس الآية بقوة [وَاللَّهُ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ]. آية خطيرة، آية في منتهى القوة... إذا لم تشعر بالعزة في انتمائك لهذا الدين، فاحذر

أن تكون فيك خصلة من خصال النفاق. وتذكر قول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلنا الله".

لا تلهكم أموالكم

وتختتم السورة بذكر شواغل الإنتماء، تمهيداً لسور التغابن والطلاق والتحريم، التي تتكلم عن هذا الموضوع بالتفصيل: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] (9).

فالأموال والأولاد كانت هي مشكلة المنافقين الأساسية، فاحذر أخي المسلم أن تشغلك هذه الأمور عن ذكر الله وعن انتمائك للمؤمنين، فتكون بذلك معرضاً لخطر النفاق الشديد.. فما الحل إذا؟ بالإنفاق في سبيل الله [وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ] (10) لأن الإنفاق هو أفضل وقاية للقلوب من مرض النفاق، ومن شواغل الإنتماء...

سور التغابن والطلاق والتحريم

هذه السور تتحدث - كما ذكرنا سابقاً - عن المحاذير التي تضيّع الإنتماء عند المسلمين. ومن عناوين السور، نلاحظ أنها كلها مشاغل اجتماعية.

فالمشغول بالمال والزوجة والولد عن الله تعالى وعن دينه، هو إنسان مغبون (أي مخدوع)، وسيعاني كثيراً عندما يكتشف هذه الحقيقة في يوم التغابن [يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ] (9).

إنما أموالكم وأولادكم فتنة

لذلك تكشف لنا السورة هذه الحقيقة حتى لا ننخدع في الدنيا بهذه المظاهر، فيأتي قول الله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ

فَأَحْذَرُوهُمْ] (14) ثم الآية التي بعدها [إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ] (15).

والملاحظ أن الآية الأولى لما ذكرت الأزواج والأولاد، جاءت بحرف "من" الذي يفيد التبعية [إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ]، أي أن بعض أزواجكم عدو لكم وليسوا كلهم كذلك، لكن الآية الثانية تثبت أن كلهم فتنة، وأن من سيتخطى هذه الفتنة له أجر عظيم إن شاء الله...

وكما رأينا في سورة المنافقون، فإن الحديث عن الفتنة يعقبه الأمر بالإنفاق: [فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ...] (16) ثم [إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ] (17).

فأنفق في سبيل الله أخي المسلم، حتى تثبت انتمائك لدينك ومنهجك، وحتى تقي قلبك من التعلق بزينة الحياة الدنيا.

لا تترك زوجتك

وحتى لا يسيء أحد فهم سورة التغابن، ويفهم أن المطلوب هو عداوة أهله وزوجته وأولاده وتركهم حتى يتفرغ لعبادة الله، تأتي سورة التحريم بمعنى رائع: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] (6).

لا تهجر أولادك، ولا تترك زوجتك تفعل ما تشاء. خذ بيدهم للهداية ودلهم إلى طريق الله حتى تنجو وإياهم من العذاب...

سورة الطلاق (لا للخلاف)

وسورة الطلاق تؤكد - مع أن اسمها بحد ذاته هو من مظاهر الفرقة

الاجتماعية- على أنه لا بد من المحافظة على وحدة المجتمع وعدم الخلاف حتى خلال الطلاق. فترى فيها آيات كثيرة تركز على تقوى الله:

- [... وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...] (1).
- [... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا...] (2).
- [... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا...] (4).
- [... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا] (5).

وكأن السورة تبين لنا آداب المفارقة في حياة الأسرة المسلمة، والتي تتلخص بكلمة واحدة: تقوى الله، لأن عدم التقوى في هذه الظروف لن يؤدي إلى انهيار أسرة واحدة فقط، بل إن ضرر ذلك سيتعدى إلى المجتمع كله...

سورة التحريم (دور المرأة في الإنتماء)

ويختتم الجزء الثامن والعشرون - كما بدأ - بذكر المرأة ودورها في الإنتماء، وكيف أنها إن لم تنتم لهذا الدين، فإنها ستضل الكثير من الناس بذلك، ولن ينفعها حينئذ انتماء زوجها مهما كان صالحاً وحتى لو كان نبياً، لأن الإنتماء واجب مطلوب من كل فرد بذاته. فنرى مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط [كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ] (10).

ونرى في المقابل نموذجاً معاكساً: امرأة فرعون الذي هو أشد الناس كفراً، وكيف كان انتماؤها للإسلام قوياً رغم كفر زوجها وطغيانه [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] (11).

ثم مريم ابنة عمران، التي تجلى انتماؤها في عفتها وحيائها وعبادتها المخلصة لله تعالى [وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ] (12).

نسأل الله تعالى أن يرزقنا مثل هذه النماذج المضيئة في حياتنا، حتى يكن عوناً للمؤمنين على انتمائهم للإسلام وثباتهم على هذا الدين، ونسأل الله تعالى أن يعين شباب الأمة على قراءة الجزء الثامن والعشرين وفهم معانيه والانتماء لدينهم وقرآهم..

سور الجزء التاسع والعشرين

فريضة شرعية

هذا الجزء يحمل الوصية ما قبل الأخيرة للقرآن الكريم.. وهي فريضة الدعوة إلى الله وضرورة حمل منهج الإسلام للأرض كلها.. فبعد أن عرفت أخي المسلم، في الجزء الثامن والعشرين، قيمة الإنتماء للإسلام وأحسست بحلاوة الولاء لدين الله، لا بد لك أن تتحرك بالإسلام وتدعو الناس إليه بكل ما أوتيت من قوة وجهد وحكمة..

وفريضة الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم ومسلمة، مهما كانت معلوماتهم الدينية قليلة، فقد قال رسول الله: "بلغوا عني ولو آية". لذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل: من علم مسألة فهو عالم بها. ولنا في سيدنا أبي بكر قدوة حسنة، عندما أسلم على يديه ستة من كبار الصحابة الكرام في أول يوم من إسلامه، رغم أن معلوماته في الدين كانت أقل بكثير من معلوماتك أخي المسلم...

فإذا علمت أن الصلاة واجبة فحدّث الناس في الصلاة... كلّمهم في حب ربنا وحلاوة الجنة وأهوال الآخرة... هذه أمور سهلة لا تحتاج للكثير من المعلومات المعقدة والصعبة، وستجد المادة التي تعينك عليها في جزء تبارك.

سورة الملك (تعرف إلى من ستدعو)

وأول سورة في هذا الجزء تعرفك: إلى من ستدعو. فقبل ان تباشر بدعوة الناس، تعرّف على الله الذي ستدعو الناس إلى دينه:

تعرف على ملكه وعظمته [تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (1).

تعرف إلى إتقانه في كونه [فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ & ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ] (3-4).

أنظر إلى الطيور من فوقك وإلى الماء من تحتك واسأل نفسك من الذي يتحكم بهذه الأمور كلها إلا الله: [أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْضُونَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ] (19).

[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ] (30).

فكل هذه المعاني تمهد لك أيها الداعية طريق الدعوة إلى الله، لتملأ قلبك بحب الله قبل أن تخرج بالدعوة إلى الناس

سورة القلم (أخلاق الدعاة)

وترشدنا سورة (ن) إلى المبادئ الخلقية التي يجب أن يتحلى بها الدعاة إلى الله. فتعرض نموذجين من الأخلاق: قدوة الدعاة ρ، وخلقهم العظيم [وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ] (4). وبالمقابل، نرى فيها أصحاب الأخلاق السيئة، لأن أولئك هم أبعد ما يكونون عن الاستفادة من الدعوة [وَلَا تُطْعَمْ كُلٌّ حَلَائِفٍ مَّهِينٍ & هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ & مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ & عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ & أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ...] (10-14).

وتأتي السورة على ذكر قصة أصحاب الجنة، الذين أدى بخلهم الشديد إلى كره الناس لهم وحرمانهم من الرزق. وكأنها تقول لنا: إياكم والبخل، لأنه من أسوأ الأخلاق التي قد تصيب الدعاة فتمنع وصول الرسالة إلى الناس...

ولا بد للداعية من أن يتعلم مبادئ الإسلام البسيطة، وأن يوثق علمه بالقراءة المستمرة. ومن هنا نفهم سبب تسمية السورة بسورة القلم، وندرك لماذا كانت هذه السورة ثاني سور القرآن نزولاً بعد سورة العلق، التي كانت أول كلمة فيها [أَقْرَأُ].

أيها الدعاة، كيف ننتمي إلى أمة إقرأ وكيف ندعو الناس إليها إذا لم نلتزم بالقراءة المستمرة وتدوين العلوم وتوثيقها؟

سورة الحاقة (يوم القيامة)

وبين سور الدعوة إلى الله، تقدم لك سورة الحاقة زاداً لك أخي المسلم في دعوتك لإخوانك والناس من حولك... فالحاقة هو من أسماء يوم القيامة، والتذكير بهذا اليوم هو من أهم الوسائل التي يجب أن نستخدمها لترقيق قلوب الآخرين وإيقاظهم من غفلتهم... فتري فيها هول العرض على الجبار: [يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ] (18)، وتنتقل بك الآيات بعد ذلك إلى مصير الناس بعد تطاير الصحف: [فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمُ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً & إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةً & فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ & فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ..] (19-22).

أرأيت فرحته... أسمعت نداء الفوز والفلاح منه؟ فلماذا لا تكون مثله؟ ولماذا لا تدعو الناس ليكونوا مثله..

وفي المقابل: [وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً & وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَّةً & يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ & مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةً & هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً & خُدُوهُ فَغُلُوهُ & ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ & ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ] (25-32).

آيات رائعة، ومقابلة رهيبة... ولاحظ أن السورة ابتدأت بأهل الجنة قبل أهل النار، وكأن المعنى: حَبَّبَ الناس بالجنة قبل تخويفهم من النار، لأن الترغيب يؤثر في النفوس بشكل أقوى بكثير من الترهيب..

سورة المعارج (أهمية العبادة إلى جانب الأخلاق)

وكما تحدثت سورة القلم عن أخلاق الداعية، تتناول سورة المعارج الجانب الآخر من صفات الدعاة، وهو العبادة، حتى يجمع الدعاة بينهما ولا يفترطوا

بأحدهما على حساب الآخر.. فتأتي آيات رائعة في وصف المصلين المتقين
 [إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً & إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً & إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً &
 إِلَّا الْمُصَلِّينَ & الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ & وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
 مَّعْلُومٌ & لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ & وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ... أُولَئِكَ فِي
 جَنَّتِ مُكْرَمُونَ] (19-35).

والملاحظ أن هذه الصفات هي نفسها التي وردت في سورة المؤمنون، وكأن
 المعنى: أين أنت أيها الداعية من المؤمنين؟ وأين أنت من الاستقصاء الذي قمت به
 في الجزء الثامن والعشرين...؟

هل قويت إيمانياتك وعبادتك قبل أن تدعو الناس إلى الله؟

لكن بالمقابل، إياك أن تفهم من هذه السورة أنك لا تقدر أن تدعو إلى الله
 إلا بعد اكتمال الإيمان. لذلك يقول ابن تيمية رحمه الله كلمة جميلة في هذه
 المسألة: "لا يقولن أحدكم لا أدعو حتى يكتمل إيماني، فإنه بين أمرين، فإما أن
 يأتي يوم ويقول قد اكتمل إيماني فقد ضل، وإما أن يموت ولم يكتمل إيمانه..".

فما الحل إذا؟ اسمع قوله تعالى [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] (آل عمران، 110).

الحل هو أن تدعو إلى الله وتحسن أخلاقك وتزيد من إيمانك، وكل هذا لا يتعارض
 مع الدعوة والأخذ بيد الناس، لأنهما يعينانك أصلاً على العبادة والخلق الحسن...

وهكذا، نرى أن السور الأربعة الأولى من الجزء قد عدت صفات الداعية إلى
 الله، من معرفة قدر الله، إلى حسن الخلق، إلى العلم والمعرفة، إلى الإيمان بالآخرة
 واستعمال ذلك في الترغيب قبل التهيب، بالإضافة إلى الزاد الإيماني من العبادات
 والأخلاق.. بعد هذه المقدمة التي اشتملت على الصفات، تنتقل إلى سورة نوح،
 التي تعرض لنا نموذجاً للداعية الناجح في دعوته.

سورة نوح (تقرير داعية)

تبدأ السورة بالتكليف الرباني لهذا الداعية العظيم [إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (1). ثم تنقلنا بعد ذلك إلى عرض تقرير بحياة سيدنا نوح الدعوية...

فهيا بنا أخي المسلم نقرأها سوياً ونتعلم من هذا النبي الكريم غيرته على دين الله، ونقف على فنون الدعوة إلى الله وأصولها:

تفاني الداعية

هذا التقرير يظهر فيه تفاني الداعية في دعوته [قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا] (5).

لماذا جاء ذكر الليل قبل النهار؟ وهل هناك أحد يدعو ليلاً؟ إن هذه الآية ترينا كيف أنه عليه السلام كان يصل الليل بالنهار في الدعوة إلى الله، دون أن يفرق بينهما، فهو مستمر في الدعوة على مدار الساعات الأربع والعشرين... لكن تكذيبهم كان شديداً [فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا] (6) ومع ذلك لم يتوقف عن الدعوة، [وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ...]. (7) - رأيت كلمة "كلما" كيف تفيد المداومة - [وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا] (7).

ورغم كل هذه الصعوبات وكل هذا التكذيب، نلمس من السورة إصراره الشديد على تبليغ الرسالة: [ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا & ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا] (8-9) فكأنه يقول: لقد جرّيت كل الوسائل الممكنة، أخذت كل واحد وكلمته لوحده، وأقيمت مؤتمرات حتى أشرح فكري للناس، وخاطبت الأفراد والجماعات... ومع ذلك [وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ] كما جاء في سورة هود، آمن معه 60 واحد فقط على إحدى الروايات.. تخيل... أي رجل واحد يؤمن كل 15 سنة... ما هذا التكذيب الشديد.. وما هذا الإصرار والتفاني على الدعوة...؟

فسورة نوح، كما رأينا، تؤكد على معنى مهم جداً في جزء الدعوة إلى الله: استمر في الدعوة حتى لو لم يستجب لك أحد، واجعل سيدنا نوح قدوتك في ذلك.

فن الدعوة

ويعمضي التقرير في وصف أساليب الدعوة المستعملة:

[فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا & يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا & يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا] (10-12).

فهو ييشرهم أن استجابتهم لأوامر الله ستكون خيراً لهم في الدنيا قبل الآخرة، وكأنه يقول لهم: ألم تحبوا الدنيا؟ ألم تعلقوا بها؟ فاستغفروا ربكم حتى تتحسن دنياكم وتزدهر...

ثم ينتقل إلى أسلوب آخر: قدرة الله في الكون [مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا & وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا] (13-14).

[أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا & جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا] (15-16).

أسمعك الآن تقول في نفسك: إنها سورة الملك، وأهمية التعرف على الله وتوقيره حتى ندعو إليه... ترابط رائع بين سور الجزء... وماذا بعد؟

[وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا & ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا] (17-18)... تذكرة بالموت، وبالיום الآخر. إنه محور سورة الحاقة... أن زاد الداعية إلى الله هو الحديث عن اليوم الآخر... رأيت كيف تترابط سور هذا الجزء، وكيف ترينا سورة نوح تطبيقاً عملياً للمعاني المذكورة في السور السابقة...

سبب الهلاك

ويوضح سيدنا نوح - في تقريره - سبب تكذيب هؤلاء القوم:

[قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا].

فالمشكلة واحدة، وهي الانشغال بالأموال والأولاد... هذه المشكلة هي نفسها التي رأيناها في سورة التغابن: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ]** (14).

وتحتم السورة بدعاء، حتى تعلمنا أن الداعية إلى الله لا بد أن يقرن جهده الشخصي وأخذه بالأسباب، بالدعاء والتوجه إلى الله لأن الهداية من عنده تعالى...

[رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا] (28) أرأيت كيف تتوسع دوائر الدعاء، من النفس أولاً، إلى الوالدين والإخوان، إلى المؤمنين والمؤمنات... سورة رائعة، وتقرير مهم لكل الدعاة إلى الله، ليستخلصوا منه الدروس والعبر المفيدة.

سورة الجن (دعاة إلى الله من عالم آخر)

ثم ينقلنا الجزء 29 إلى نموذج آخر من الدعاة إلى الله، الجن... نموذج عجيب، تعرضه سورة الجن وكأنها تسألك: ألا تغار منهم؟.. كيف يستجيب الجن للدعوة ويحملونها، وأنت غافل عنها وغير منتم إليها... اسمع قوله تعالى:

[قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا & يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا] (1-2).

لماذا لا تكون مثلهم؟ لماذا لا تقتدي بالجن أيها الداعي إلى الله؟

أنظر إلى تحديهم للكفار من قومهم (وبالأخص إبليس) **[وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا]** (4) وانظر إلى إنكارهم للمنكر الذي كان يقوم به الجن والإنس على سواء: **[وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا]** (6). آية مهمة، تحذر كل من يلجأ إلى الجن، بأنه سيزداد تعاسة إلى تعاسته... اسمعوا هذا التحذير أيها الناس من الجن أنفسهم، كيف يجذرونكم

من التعامل مع بني قومهم واللجوء إليهم...

وتتوالى آيات كثيرة لترينا حكمة هؤلاء الناس وفهمهم لحقيقة الدعوة وأهميتها:

[وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا] (13).

[وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ] (14).

ثم نرى كلاماً مشابهاً لكلام نوح عليه السلام، بأن الإيمان يفيد صاحبه في الدنيا قبل الآخرة: [وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا] (16).

فالسورتان واضحتان في علاقتهما مع بعضهما، وفي تعليمنا فقه الدعوة وأهميتها وأساليبها..

سورة المزمل (زادك أيها الداعية)

وهدف هذه السورة واضح من بدايتها: [يَأْتِيهَا الْمُزَّمِّلُ & قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا] (2-1). زادك أيها الداعية: قيام الليل، لماذا؟ لأن حمل الدعوة أمر شاق وصعب [إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا] (5) فما علاقة القيام بذلك؟ [إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً] (6) إن صلاة الليل هي التي تبني الرجال، وتبني الدعاة الذين يقسمون برنامجهم اليومي إلى قسمين: دعوة في النهار، وعبادة في الليل: [إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا & وَذَكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا] (7-8).

وتأتي السورة على ذكر موسى وفرعون [إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا & فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً] (15-16) فما علاقة موسى وفرعون بمحور السورة؟

إن قيام الليل هو المعين الأول على مواجهة الطغاة والجبابرة والمكذابين، كما كان الحال مع سيدنا موسى عليه السلام... وكأنها تقول لك: أيها الداعية، صل في الليل حتى تكون أقوى على دعوة الناس في النهار... معادلة واضحة تقدمها

إلينا سورة المزمل.

وتختتم السورة بقوله تعالى **[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ...]** (20) إلى آخر الآية.

فقيام الليل كان فرضاً على المسلمين في بداية الدعوة السرية، وبقي كذلك لمدة سنة كاملة. لكن الأمر شق على الصحابة، فنزلت الآية الأخيرة من السورة حتى تخفف الحكم على الصحابة، وتقول لهم بالمقابل: **[فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ]**. والملفت أننا نرى فيها قوله تعالى **[وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]**. فمع أن السورة مكية ونزلت في أوائل العهد المكي، لكنها ذكرت الجهاد في سبيل الله، لأن قيام الليل هو من مقومات الاستعداد للجهاد في سبيل الله، فاستعينوا به أيها الدعاة، حتى تنهأوا للجهاد في المستقبل..

سورة المدثر (قم فأنذر)

أيها الداعي إلى الله، بعد أن أخذت زادك، وتعرفت على من ستدعو إليه، ورأيت نماذج مضيئة من الدعوة إلى الله، وأيقنت بالآخرة وتعلمت عنها حتى تحدث الناس بها... ماذا أنت فاعل في مكانك؟ لماذا لا تزال ساكناً... **[قُمْ فَأَنْذِرْ]** (2). فهي سورة الحركة والنهوض بالدعوة إلى الله..

[يَأْيُهَا أَلْمُدَّثِرُ & قُمْ فَأَنْذِرْ & وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ...] (1-3). هذه الآية لا تعني أن تقول بلسانك: "الله أكبر" وحسب... عرّف كل الناس على قدر الله، واجعل الأرض كلها تكبر الله... لتكن أوامر الله أكبر من أي شيء في حياتك.

ومن الملفت في السورة، أن آياتها سريعة الحركة، سريعة الوقع والتأثير. ففي سورة المزمل، كانت الآيات خفيفة وبطيئة، تناسب جو قيام الليل الذي تحدثت عنه السورة **[يَأْيُهَا أَلْمُرْمَلُ & قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلاً... وَأَذْكَرِ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً...]** (1-8).

أما سورة المدثر، فإن حركة آياتها تتناسب مع سرعة حركة الداعية إلى الله، الذي يملأ الأرض حركة ونشاطاً بإيجابته وتفاعله مع الآخرين **[قُمْ فَأَنْذِرْ & وَرَبِّكَ]**

فَكَبَّرَ & وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ & وَالرُّجْزَ فَأَهْجُرْ... [(2-5).

[فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ & فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ & عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ] (8-10) وهذا من روعة القرآن، أن حركة الآيات نفسها تتناسب مع
هدف السورة ومحورها..

انظر مثلاً إلى قوله تعالى [كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ & فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ] (50-
51) فنرى فيها تشبيهاً للكافرين وكأنهم يفرون من الهداية، فرار الحمير الوحشية من
الأسد المفترس.. تشبيه رهيب، يتناسب مع سرعة آيات السورة وحركتها..

سورة القيامة

وهذه السورة، من اسمها، تذكر بيوم القيامة، لتقف إلى جانب سورة الحاقة في
تزويد الدعاة بالمادة الأساسية خلال أخذهم بأيدي الناس إلى الله، وخاصة من
خلال التذكير بأول مراحل الآخرة، وهو الموت: [كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ & وَقِيلَ
مَنْ رَاقٍ & وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ & وَالتَّتَفَتِ الْأَسَاقُ بِالسَّاقِ & إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمَسَاقُ] (26-30).

سورة الإنسان

هذه السورة توضح أحد أهم المفاهيم التي يجب على الدعاة إلى الله أن يوقنوا
بها:

"المطلوب منك هو الدعوة فقط، أما النتائج فهي على الله". لذلك ترى فيها
قوله تعالى [إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا] (3) فكأنها تقول للدعاة،
وتقول لنبيهم p: لا تياسوا من تكذيب الناس لكم، لأن الله تعالى هو الذي
يهدي من يشاء [فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا] (24) [إِنَّ
هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا] (27).

سورة المرسلات

وبعد أن خاطبت سورة الإنسان الدعوة، حتى لا يتأثروا بتكذيب الناس،
نصل إلى سورة المرسلات، التي نرى فيها خطاباً موجهاً وتحذيراً مباشراً للمكذبين
أنفسهم [وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ] (15).

وتقول للدعاة في نفس الوقت: لا تتحسروا عليهم، وخذوا بالأسباب واتركوا
النتائج على رب العالمين [فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ].

سور رائعة في ترابطها وحديثها عن الدعوة إلى الله. ومع أننا لم نتناول كل ما
فيها من أصول الدعوة ومعانيها، إلا أننا حاولنا أن نسلط الضوء على المفاتيح
والمعاني الأساسية فيها، لنترك المجال أمام قارئ القرآن حتى يعيش مع هذه السور،
ويتعرف على اللفظات اللطيفة التي لا يخلو القرآن منها، والتي لا تنقضي، مصداقاً
لحديث النبي ﷺ: "لا تنقضي عجائبه" ..

سور الجزء الثلاثين

ختام المنهج

هذا الجزء هو ختام القرآن، وختام منهج الاستخلاف الذي وضعه الله تعالى للبشر... فبعد الأحكام والتشريعات، وبعد ذكر أخبار السابقين وأخذ العبرة منهم، وبعد ذكر مقومات الاستخلاف في سور وأجزاء بأكملها، يأتي الجزء الثلاثون، بسوره القصيرة المؤثرة، حتى يؤكد على المعاني التي تساعد قارئ القرآن على حمل هذا المنهج. هذه المعاني تبدأ من الإيمان بعظمة الله تعالى وقدرته، إلى التذكير بلقاء الله والعودة إليه في الآخرة، إلى التأكيد على ذكر الله تعالى وشكره...

سورة عبس (عتاب في سبيل الله)

ونقرأ في سورة "عبس" العتاب الرباني الرقيق لرسول الله ﷺ، عندما أعرض عن الأعمى (الذي هو عبد الله بن أم مكتوم) الذي جاءه يسأله في أسئلة معينة - وكان مسلماً - لكن النبي أعرض عنه لأنه كان يحدث بعض زعماء قريش... فنزلت آيات السورة: [عَبَسَ وَتَوَلَّى & أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى & وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَّى & أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى] (1-4) حتى تعلمنا أن الدعوة حق للناس كلهم وليست لفئة محددة، ونعلم أن المقبل على الدعوة هو أولى بها مهما كان مستواه الاجتماعي..

والجدير بالذكر أن اهتمام النبي ﷺ بأكابر القوم لم يكن تعظيماً لمستواهم الاجتماعي وانتقاصاً من قدر الأعمى الذي أعرض عنه، وإنما لأنه ﷺ رأى أنهم

أكثر نفعاً للإسلام فطمع في إسلامهم من أجل الدين لا من أجل غناهم.. لذلك نزل العتاب الرباني حتى لا يهمل أي شخص مقبل على الإسلام، وحتى يتعلم الدعاة إلى الله أن يهتموا بالناس كلهم، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، فلا يميزوا بالدعوة إنساناً على آخر.

سورة الطارق (له الخلق والأمر)

وفي سورة الطارق دعوة إلى تذكر حقيقتنا وأصلنا: [فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ & خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ & يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ & إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ] (5-8) يخلق الإنسان من نقطة ماء بسيطة، تخرج من صلب الذكر وترائب الأنثى، مثل نقطة المطر التي تخرج الزرع من الأرض [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ & الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ] (11-12) فخالق الإنسان وخالق الكون إله واحد، خلق الإنسان كما يخلق الزرع من ماء أودع فيه سر الحياة.

سورة الشمس (قدرك عند خالقك)

وفي سورة الشمس رصد لظواهر كونية سخرها الله لخدمة الإنسان، الذي هو أهم تلك المخلوقات وأكرمها:

[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا & وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا & وَالنَّجْمِ إِذَا تَلَاهَا & وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰهَا & وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا & وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا & وَالْأَرْضِ وَمَا طَبَّاهَا & وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] (1-7) فتمر هذه الآيات الكونية ثم تقف السورة عند النفس لتفصل فيها وتوضح أهميتها: [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا & قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا & وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا] (8-10) فإذا أدرك الإنسان قدره عند خالقه، سارع إلى طاعته والإنابة إليه، ليبادل ربه وداً بود وحباً بحب.

سورة الضحى (محبته عند ربه)

ونرى في نفس الجزء سورة مقابلة للعتاب الرباني: سورة الضحى التي تظهر حب ربنا تبارك وتعالى لنبيه محمد: [وَالضُّحَىٰ & وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ & مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ] (1-3) فلا تظن يا محمد أن ربك تاركك أو كارهك:

[أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ & وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ & وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ] (6-8) كلمات رقيقة تشع بالحب الرباني لرسول الله..

ومن اللطيف في السورة أن رب العزة جل وعلا أقسم في بداية السورة بوقتین هادئین رقيقین على النفس: الضحى، والليل، فحب الله لنبيه لم يقتصر على الألفاظ فقط، وإنما تعداها إلى الجو النفسي لألفاظ السورة وآياتها..

سورة التين (أنت أفضلهم..بشرط..)

ونرى نفس المعنى المذكوراً في سورة التين: [وَالزَّيْتُونِ & وَالزَّيْتُونِ & وَطُورِ سِينِينَ & وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ & لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ] (1-4).. فما علاقة الآيات الثلاثة الأولى التي أقسم الله بها بخلق الإنسان؟ إن هذه الآيات قد عدت ثلاثة أماكن مباركة أقسم الله بها: أرض التين والزيتون وهي بيت المقدس، وطور سيناء الذي كلم الله موسى عنده، والبلد الحرام مكة.. وكلها أماكن لها حرمتها وبركتها وقدسيتها.. وبعد ذلك تذكر السورة خلق الإنسان في أحسن حال، وكأن المعنى: أن حرمة النفس البشرية على الله تعالى وكرامتها هي بجرمة هذه الأماكن، فأكرم نفسك أيها الإنسان بالطاعة شكراً لله الذي خلقك في أحسن تقويم، فإن لم تفعل ذلك... [ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ] (5) ولن ينجيك من هذا إلا الإيمان والعمل الصالح: [إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ] (التين: 6).

سورة العلق (حفظ العمل)

نرى في هذا الجزء سورتين: إحداهما في بداية الرسالة "سورة العلق"، [أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ & خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ & أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ & الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ & عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] (1-5) والأخرى هي نعي النبي في سورة "النصر" .. وهي بمثابة ختام الرسالة: [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ]. هذه السورة نزلت قبل وفاة النبي ﷺ، لتبشّره بما سيراه من عز وانتصار للإسلام: [وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا & فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] (2-3). فما علاقة الاستغفار بما في السورة من نصرة الإسلام وعز المسلمين؟.. إن الإنسان المنتصر قد يشعر بشيء من العجب والكبر، كما رأينا في الكثير من القادة الفاتحين عبر الزمان، لذلك كان لا بد من الحمد على النعمة تذكيراً بواهبها وما نحها، والاستغفار من التقصير في شكر المنعم... وهذان الأمران لا يحفظان العمل فقط من الضياع بل يحفظان قلب العبد من الكبر والطغيان.

شعار المخلصين

ولذلك نجد أن الاستغفار في الإسلام يأتي دائماً بعد الأعمال العظيمة، فبعد الصلاة نقول: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.. ويعلمنا ربنا من خلال هذه السورة أن نرد الفضل إليه دائماً ونتّهم أنفسنا بالتقصير فنستغفره على تقصيرنا.. فلن نستطيع أحد أن يوفّي ربّ العزة حقّه وقدره.

سورة التكاثر (التوازن بين المادة والروح)

وتأتينا سورة التكاثر بمعنى مهم: أن لا نعيش لأجسادنا فقط.. لا نعيش من أجل الطعام والنزهة والزواج فقط.. فلا بد من الانتباه إلى الروح، والحذر من أن يلهينا المال والولد عن ذكر الله، فنفاجأ بالموت ولقاء الله، [أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ & حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ] (1-2) ثم تبدأ السورة في توعّد كل من يعيش للملذات ومتاع جسده فقط: [كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ & ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ & كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ & لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ] (3-6). إياك أن تكون منهم... إن في داخلك

روحاً تحتاج إلى غذائها من الطاعة والاستغفار والحفاظ على الصلاة وقيام الليل... فإن لم تستجب لهذا التحذير فاسمع الآية الرهيبة في تصوير رؤية جهنم والعياذ بالله: **[ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْمُتَّقِينَ & ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ]** (7-8) فالله تعالى سيسألنا عن كل نعمة صغيرة أو كبيرة أنعم بها علينا، والتي من أهمها هذا الجسد الذي رزقنا الله إياه، فاستعمله البعض في معصيته ناسين أرواحهم وغذاءها وتحضيرها للآخرة..

سورة العصر (البنيان المرصوص)

ونصل إلى سورة العصر، التي قال عنها الإمام الشافعي رضي الله عنه: لو لم ينزل من القرآن غيرها لكفت الناس وهي سورة العصر، فقد جمعت هذه السورة كل معالم الإسلام في قوله تعالى: **[إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]** (3)، ثم أشارت إلى أهمية اتحاد المؤمنين وتعاونهم على نصرته هذا الدين والصبر على ما يجدونه في طريقهم من عقبات: **[وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]** (3). وكل من لا يسير على هذا النهج وهذا الطريق فهو خاسر **[إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ & إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا...]** (2-3). هذا النهج وهذا الطريق هو نفسه الصراط المستقيم الذي ندعو الله به في كل ركعة **[أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ & صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]** (الفاتحة، 6-7) فالمغضوب عليهم خاسرون والضالون أيضاً خاسرون.. أما الذين تواصلوا بالحق والصبر فقد أنعم الله عليهم بنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم.

بناء الأمم والحضارات

وترى في سورة العصر معان هامة جداً، فهي قد جمعت مقومات بناء الحضارة والأمة، مثل الاهتمام بالوقت والزمن **[وَالْعَصْرِ]**، وأهمية أن نشغل وقتنا في العمل الصالح المفيد **[ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]**، بالإضافة إلى العمل ضمن فريق وروحية العمل الجماعي **[وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]**. فإذا وعت الأمة سورة العصر ارتقى وعبها ونضجت مقومات حضارتها.

سورة الفيل (كيد الباطل ضعيف)

وسورة الفيل تخبرنا أن الكون كله ملك الله تعالى، وأنه تعالى قادر على إنزال العذاب على كل ظالم، في كل عصر وكل حين: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ & أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ]. إن كيد أعداء الله ضعيف لا يؤثر ولا يدوم، لأنه ضال، ولأن قدرة الله الغالبة تقف دونه: [وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ & تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ & فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ] فاستعينوا بالله على عدوه وعدوكم.

سورة قريش (احذر إلف النعمة)

ونأتي إلى سورة قريش، التي تعالج مشكلة خطيرة عند الكثير من الناس، وهي إلف النعمة والتعود عليها إلى أن تصل بهم الحال إلى عدم الشعور بها ونسيان شكرها... [لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ & إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ] (1-2) لقد ألفت قريش تلك النعمة العظيمة، بأن مهد الله لهم طريقاً آمناً ليقوموا برحلتين تجاريتين، على مدار فصلي الشتاء والصيف.. هذه النعم لا بد أن تقابل بشكر المنعم وعبادته: [فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ & الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ] (3-4) فأعظم نعم الله تعالى على الإطلاق، وأهم حاجيات الإنسان الأساسية: الطعام والأمن.. سورة قريش تقول لأهل القرآن: أحيوا قلوبكم بتذكّر النعمة واحذروا الإلف الذي يميت القلب ويصرفه عن شكر المنعم.

